أزمة التنظيمات الإسلاميّة

الإخوان نموذجاً



سلسلة أدوات القادة (١١)

د. جاسم سلطان





أزمة التنظيمات الإسلامية

(الإخوان نموذجاً)



أزمة التنظيمات الإسلامية

(الإخوان نموذجاً)

د. جاسم سلطان





الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر
سلطان، جاسم
أزمة التنظيمات الإسلامية (الإخوان نموذجاً)/ جاسم سلطان.
٣٢٦ص.
ISBN 978-614-431-091-5
١. الإخوان المسلمون. ٢. الحركات الإسلامية. أ. العنوان.
297

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٥

مدير المشروع: أ. جمال المليكي
المتابعة والتنسيق: أ. أحمد درويش

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت ـ المكتب الرئيسي: رأس بيروت ـ المنارة ـ شارع نجيب العرداتي
هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ **محمول:** ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧
E-mail: info@arabiyanetwork.com
القاهرة ـ مكتبة: وسط البلد ـ ٢٢ شارع عبد الخالق ثروت
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٣٥ **محمول:** ٠٠٢٠١١٥٠٢٩٦٤٩٢
E-mail: info@arab-network.org
الدار البيضاء ـ مكتبة: ٢٨ زنقة روما، تقاطع شارع مولاي إدريس الأول
هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧ **محمول:** ٠٠٢١٢٦٦٤٣٢٣٠٤٠
E-mail: info-ma@arab-network.org

المحتويات

الفصل الثاني

التنظيمات الإسلامية وأفكارها: الإخوان نموذجاً

تقديم

هذا الكتاب قطع زمناً طويلاً قبل أن يخرج نظراً إلى حساسيته المتوقعة، وترددت كثيراً قبل أن أفكر في نشره نظراً إلى أنه يمسّ وتراً حساساً سواء في مواضيعه أو في توقيته، ولكني قدرت أن الأوضاع ليست مضمونة، والعمر يمضي وما يمكن الآن قد لا يتيسر غداً، فمادة الكتاب تتناول حركة الإخوان المسلمين وإن كان مجمل الأفكار هو قاسم مشترك عند الجميع بسبب الاستدعاءات التراثية والتصوّرات الكبرى التي يحملها مجمل التيار الإسلامي، ومادة الكتاب أيضاً سيستخدمها كل في أغراضه، ولكن الهدف منها هو تعريف المهتمين بمنظومات الأفكار الكبرى المنتشرة التي ربما لم تتح لهم الفرصة للنظر فيها بطريقة منظّمة، تسمح بإيجاد الروابط بين أجزائها وإنتاج عصر جديد هو ابن مراجعة الفكر القديم، وتصويب ما يحتاج إلى التصويب فيه.

فالشكر والعرفان موصول إلى كل من ساهم في توفير الأجواء والظروف كي يتمّ هذا العمل، وأخص منهم الأسرة الكريمة، وفريق العمل القريب الذي ساهم بنقاشاته في إثراء

الأفكار وأستميح الأحبة عذراً الذين ربما يزعجهم الكتاب في بعض جوانبه فقد أردت به تصويب المسار من أجل غد أفضل.

د. جاسم سلطان

أزمة الحالة الإسلامية من الفكر العام
إلى الفكر الحركي
(أزمة الفكر تقود إلى انسداد الواقع)

مقدمة

اللغة مهمة في توصيف الظاهرة الإسلامية

الظاهرة الإسلامية المتحركة أمامنا في المشهد من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار تشكّل اليوم جزءاً كبيراً من المشهد اليوم، وهي تخوض صراعات على جميع المستويات: فمن صراعاتها الداخلية في كل حركة وحزب، إلى صراعاتها البينية على احتلال مواقع المجتمع الذي تعيش فيه، إلى صراعها مع الحكومات التي تعيش في ظلها، إلى صراعاتها الإقليمية والدولية، فهي تعاني كثيراً وتتكلّف من التضحيات ما لا يعلمه إلا الله، وتكلّف من حولها أيضاً كثيراً من العناء... ومحاولة فهم هذه الجماعات يحتاج إلى مجلدات لكثرتها وتشعب أطروحاتها، ولذلك اقتصرنا في هذا الكتاب على أهم هذه الجماعات، وهي حركة الإخوان المسلمين ـ باعتبارها كما

تعرف نفسها «كبرى الحركات الإسلامية» ـ وعلى أهم مُنظِّريْن فيها، وهما: حسن البنا وسيد قطب رحمهما الله.

والحركة الإسلامية تمر في هذه المرحلة بأصعب أيامها، خاصة في مصر، فقياداتها في السجون، وشبابها في المنافي... وعلى الرغم من أن ذلك ليس غريباً عليها منذ اصطدامها بالنظام الملكي في مصر، مروراً بنظام عبد الناصر، ثم بالسادات، ومن بعده حسني مبارك، إلا أن هذه المرة الوضع مختلف والصورة مختلفة؛ فلأول مرة تصل الحركة إلى موقع السلطة وتقترب من تحقيق آمالها، وبين عشية وضحاها تنقلب الأمور لتعود إلى مربع الصفر مرة أخرى.

ومع هذا المسار الصعب يطرح الموضوع نفسه: لماذا هذا المسار؟ وما الذي يجعل الحالة الإسلامية تصل إلى الطريق المسدود المرة بعد الأخرى؟ والحركة في مصر ليست استثناء من إطار أوسع، له المفاهيم نفسها، فيوماً ما ارتفعت الآمال بإقامة دولة الإسلام في القارة الهندية، فانفصلت باكستان عن الهند ثم تحوّلت إلى دولة فاشلة ثم انشقت على نفسها فولدت بنغلاديش، وهي دولة فاشلة أو توشك ثم جاءت تجربة أفغانستان ووصل المجاهدون إلى الحكم ثم انهارت التجربة لتقوم تجربة طالبان ثم تنهار ثم ولدت تجربة السودان وانتهت إلى فشل ذريع ثم جاءت الصومال وانتهت إلى كارثة ومن قبلها الجزائر... شيء ما يقود إلى النتائج ذاتها.

وبين كل ذلك نجحت ماليزيا ونجحت تركيا في صناعة نجاحات مقدّرة، وكلتا التجربتين بنت نموذجها على الأسس الغربية المعروفة، واعتمدت التنمية الاقتصادية كرافعة

للمجتمع، وهو مسار لم تر الحركات الإسلامية التقليدية أنه مسار ممثل للإسلام، ومن اعتبره كذلك رآه كنوع من التحايل إلى أن يحدث التمكين ثم سيظهر الوجه الحقيقي بحسب هؤلاء.

وكثير من الناس يسأل: ما وجه الإشكال في أفكار هذه الحركات ولماذا لا تنجح؟

ونحن في هذا الكتاب سنحاول أن نسلط الضوء على أهم الإشكالات في فكر الحركات الإسلامية الذي يحول بينها وبين أن تكون رافعة اجتماعية للتقدم، وغرضنا من الكتاب أن تكون لهذه الإشكالات لغة تسمح برؤيتها كما هي، ورؤية احتمالات التجديد والإصلاح إن رأت أن تعيد النظر في ذاتها.

والكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب تفاكر، وقضاياه هي أحجار عثرة في طريق تقدّم الأمة والتي إن لم نجد لها حلاً، فالمخرج مما نحن فيه سيكون صعباً... ولكن بصدق العزم وبالمصارحة مع الذات يمكن زحزحة الأحجار ورؤية الضوء في آخر النفق الذي نأمل أن لا يكون طويلاً.

فدراسة الأفكار العامة والمقولات المنتشرة على السطح، ستقودنا إلى تلك البنى التنظيمية التي تتحرك بهذه الأفكار والتنظيمات، وأفكارها ستقودنا إلى مؤسسيها أو رَجل الأيديولوجيا.

والكتاب، على قصره، هو رحلة عمر مع كثير من القضايا التي نراها هنا معاشة في ساحات الجامعات والمساجد وفي المحاضرات وفي الكتب. هي ليست كتابة من خارج المشهد بل

في عمقه، وهي لا تدّعي كمال الإحاطة فلا أحد يستطيعها ولا هي نهاية النقاشات، فنقاش الأفكار يصطدم بقدرة الإنسان على الحجاج غير المتناهي... الكتاب محاولة لتنظيم مجموعة التحديات التي تعوق التقدم أو على الأقل بعض هذه القضايا... هو ليس نهايات القول ولكن بدايات أولية لو أردنا السير إلى الأمام بدلاً من الغرق في الماضي، ولكن من المؤكد أننا دخلنا إلى عش الدبابير كما يقال، وليس لأمر إلا لأنها الطريق الوحيدة، على الأقل في هذه المنطقة، للتقدم إلى الأمام وقضاياه التي ناقشناها هنا لم نناقشها إلا لأنها تؤثر في المستقبل وتعوق إشراقة يوم جديد على الأمة. لقد ذكرنا أسماء أشخاص وهيئات هنا، لا لسبب إلا لأنهم لا يزالون مؤثّرين في الحاضر، أما هم بأشخاصهم أو جمعياتهم فهم ليسوا موضع اتهام، فالعقلية الموروثة تجعل نقد الأفكار هو هجوم على الأشخاص والهيئات، فتلك هي الطريقة الوحيدة التي تفهمها للهروب من قضية التفكر وهي مهمة هذا الكتاب.

وتقسيم الكتاب يقوم على فصلين وخاتمة: **فالأول**، هو عن قضايا السطح المتداولة بين المهتمين بالفكر الإسلامي، وهي قضايا ملتبسة يلزم تفكيك بنيتها لرؤيتها بشكل يسمح بمعالجتها... **والثاني** هو في فكر الحركات الإسلامية المؤسس، وخاصة عبر رؤية أطروحة حسن البنا وسيد قطب التي تأثرت بهما أغلبية الحركات الإسلامية المعاصرة بطريقة أو بأخرى.

تمهيد

هذا الكتاب كتب للحالمين بغد مختلف... ينتفع به من غادر مقاعد التلقين وأراد أن يطرح على نفسه السؤال بجرأة... هو لمن أراد أن يدرس وأن يتعلم وأن يتفكر... أما من كان غارقاً في دهاليز الأفكار المصمتة، لا يريد أن ينظر خارجها؛ فهذا الكتاب يعتذر منه ويرجوه أن يغادر!

لقد استغرق الإنسان العربي جهده وطاقته في الدفاع عن شخوص الماضي وأحداثه وأدار معاركه في الحاضر من خلال استحضار الماضي، وآن الأوان أن ننظر إلى المستقبل... والمستقبل لا يمكن الوصول إليه إلا بتحرير أنفسنا من قيود الماضي التي أرهقتنا... ولكن الماضي فيه كثير من الخيرية التي نحتاج إليها كوقود للمستقبل... وتحرير هذه الخيرية في ضوء احتياجات المستقبل مهمة شاقة لأنها تعني مواجهة الصناديق المغلقة التي أرهقت عقول وقلوب الأمة... إن التفكر هنا هو رحلة مع الذات لمعرفة أسباب هذا الواقع المرير الذي يجثم بظلاله على واقعنا، ويشكل حركتنا في فضاء المستقبل.

نظام الأفكار

إننا حين ندرس نظام الأفكار فغرضنا الرئيس هو تحرير الأجيال القادمة من أسر الأفكار التي أفقدت الإنسان المسلم القدرة على رؤية العصر، ومعرفة شروط إنجاز المشاريع الوطنية وشروط الاستقرار، وجعلته يدور حول نفسه في تجارب عقيمة، لا يكاد يخرج من أزمة إلا ليدخل في أكبر منها، وفي كل مرة تنجح تلك الأفكار في إعطائه المسكنات بينما تتضاءل قدرته للعبور إلى عصر جديد.

الفكر اليوم ليس هو ما يوجد في الكتب، فكم من كتاب لم يقرأه أحد... وكم من فكرة لم يُكتب لها الانتشار... ولكن بعض الأفكار تحوّلت عبر الشعر والقصة والحكاية القصيرة والوعظ إلى مكوّن فكري في جيل كامل لم يقرأ النصوص الأصلية ولم يتوقف عندها، وهو حتى حين يجادل عنها إنما يقوم بذلك بآلية التلقين لا آلية التفكر وبدافع العاطفة لا بدافع الفكر المستقل... هذا هو مصير هذا الجيل الذي تلقّى كل شيء مسطحاً، وآن له أن يدرس بنفسه ويتخذ قراراته بنفسه، فالمستقبل مستقبله والعصر عصره.

فلا يغني في عصر جديد مقولة (**هذا ما وجدنا عليه آباءنا**) بل التفتح على (**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**) وبمنهجية (**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**).

نحن من يعاني نظام الأفكار المختلة نحتاج إلى مكاشفة ربما تكون مُرة، ولكن تلك طبيعة المراجعات... ومن سيأتي الكتاب على ذكرهم من الأشخاص في الكتاب ليسوا مقصودين

لذواتهم، ولولا تأثيرهم المهم في وعي الأجيال لما تعرض لهم أحد، فأعمال العظماء هي ما يدور حولها النقاش أما النكرات فلا يعبأ بهم أحد. . . ونحن نعلم أن هناك تبايناً في الخطاب بين الخطابة المباشرة وبين الكتابة العلمية، بل بين الكاتب ونفسه في كل مرحلة من عمره، ولكن هنا سنتناول الكتابات بحسب تأثيرها في المُتلقين. . . فما يعنينا ليس تقويم القائل أو الكاتب، ولكن يعنينا ما تسرب من فكره فأصبح مسطرة في عقول الأتباع.

أزمة العالم الإسلامي والعربي متعددة الوجوه

على الرغم من أننا، في هذا الكتاب، ركزنا على بعض الفكر الإسلامي، وبالأخص عند حركة الإخوان المسلمين ومن يقع في دائرة أفكارها بشكل خاص بوصفها أكبر الحركات الإسلامية المعاصرة، ولكن الأزمة في العالم العربي تشمل قطاعات واسعة من المجتمع السياسي والديني موسومة بثلاثة تحديات:

- الفكر الشمولي.
- فكرة الاستحواذ.
- قصور المعرفة بالواقع السياسي والاقتصادي والإقليمي والدولي.

فهي قضايا منتشرة بين جميع الفئات. . . فمن تجارب الحركات اليسارية إلى تجارب الحركات القومية، إلى تجارب الدولة الوطنية، اصطدم الجميع بذلك القصور. . . ومن ضمن تلك الدائرة كانت تجربة الإسلاميين؛ لأنها تحمل في داخلها،

وإن كان بلغة إسلامية، الآفات ذاتها من الفكر الشمولي والرغبة في الاستحواذ وقصور المعرفة بالواقع.

إن مشاكل المجتمعات اليوم مشاكل عملية، فمشكلة تنظيم الحياة السياسية والاقتصادية والتعليمية والإعلامية والصحية والبنية التحتية والتكنولوجيا وتوفير فرص العمل وإصلاح قيم العمل والإتقان والنظام في المجتمعات وآليات تقليل دائرة الفساد، كلها قضايا يبدو أن النظم السياسية التي أدارت المشهد على مدار مرحلة ما بعد الاستقلال إلى اليوم لم تستطع حلها، ولا تبدو برامج الأحزاب المعاصرة في المنطقة العربية قادرة على حلها.

فحل مشكلة المجتمع لا تتم بإصلاح الحالة الإسلامية وحدها، ولكن بمراجعات شاملة تقوم بها الفئات صاحبة المصلحة في المجتمع، فاليسار والوسط واليمين كلها يجب أن تقوم بمراجعات كبرى، فمطلب استقرار المجتمعات واقع على كل مكونات المجتمع وليس مطلباً لفئة من دون فئة.

إن عملية التواصل الاجتماعي هي التي بَنَت الثقة، والثقة تتعزّز بالتفاهم والمصارحة والمصالحة بين القوى الاجتماعية، ولكن استمرارها لا يكون إلا بمراقبة اللغة والسلوك والرسائل المتبادلة بين الأطراف المجتمعية، فحين تسود لغة التكفير والتخوين بين أطراف العقد الاجتماعي فذلك مؤشّر صريح على غياب النضج الكافي لإيجاد وطن مستقر.

إن فكرة القهر والظلم لا يمكن أن تنشئ أوطاناً وإن نجحت في فترة زمنية وظنّ بعض أن ذلك ممكن، ولكن تجارب التاريخ تثبت أن جمهوريات الرعب كلها سقطت بشكل مرعب

وإن طال بها الزمن، فإنسان العصر أصبح أوعى بحقوقه وبذاته وممكناته... وهذا يعني أننا سنوفر الزمن والألم والمعاناة، بالاعتراف بقصور تلك التصوّرات والإرادة الصارمة في مغادرتها وخلق عالم جديد يليق بالإنسان كل الإنسان.

التجارب الإسلامية والإسلاميون ليسوا شيئاً واحداً حتى في فصيل مثل الإخوان المسلمين، فتجاربهم ووعي قياداتهم مختلف بين قطر وقطر وزمن وزمن؛ فمصر ونمط التفكير فيها، والسودان ونمط التفكير فيها، وتونس ونمط التفكير فيها، واليمن ونمط التفكير فيها... كل ذلك ليس شيئاً واحداً... وبالتالي يتفاوت الأداء السياسي والحكمة بحسب ثقافة القيادات وإدراكها للواقع وقدرتها على تجاوز عُقَد الأفكار المؤسِّسة... ونحن في هذا الكتاب حين ندرس الظاهرة نغوص في الفكر التأسيسي لها والنواة الفكرية التي تقود إلى العنت والإرهاق للتنظيمات والمجتمعات على حد سواء، فمن شعر من الأحبة أنه قد تخلّص من نمط الأفكار، فهو ليس معنياً بما جاء في الكتاب، بالضرورة، ومن شعر أن الكتاب يخاطب شأنه فهذه ليست نقيصة فيه، ولكن طريق للمراجعة والنظر.

والكتاب في الوقت ذاته لا يجرّد التنظيمات من خيريتها، فكم من شباب أنقذت من الانحراف، وكم من قضية ساهمت فيها بطاقاتها وتنظيماتها في خدمة العالم الإسلامي، وكم من عمل خير من مدارس وأيتام ومعونات وإغاثات ساهمت في تنظيمها وتوصيلها إلى المحتاجين.

والحاجة إلى هذه المنظمات كجزء من المجتمع المدني قائمة في أي بيئة، ولكننا فقط نريد أن نعرض لجوانب الخلل

التي تقود كل هذه الجهود وكل هذه الطاقات إلى حائط مسدود، المرة بعد المرة، ولا تُحدث المراجعات المطلوبة؛ فالإخفاقات تُعزى باستمرار إلى الخارج وهو موجود باستمرار ولن يزول، ولكن ما يمكن مراجعته باستمرار هو الداخل وإشكالياته.

وإصلاح هذه الاختلالات ليس مستحيلاً بطبيعة الحال، ولكنه صعب جداً كما سنتبين من هذه القراءة في عالم أفكار هذه المنظمات.

ماهية الدين كما يشرحها القرآن

الإسلام آخر الرسالات السماوية، ومحمد (ﷺ) خاتم الأنبياء، وغاية الرسالة وصْل الإنسان بخالقه الحقّ، وإشاعة الرحمة في الكون: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ومهمة الإنسان ذات بعدين متعلقين بهاتين المسألتين: كيف يحسّن علاقته بآخرته عبر تزكية نفسه؟ وكيف يعمر الأرض والكون وينشر الرحمة فيها فيوقف الإفساد وسفك الدماء؟.. كلام بيّن واضح بينته آيات الكتاب المبين.

ووجدنا القرآن يسهب في قضية التوحيد ويكرر الأمر بالصلاة وما في جنسها من العبادات، من زكاة وصيام وحج، ويشرح قصة الأنبياء مع دعوة أقوامهم وصبرهم عليهم وتفننهم في دعوتهم، فالعقائد والعبادات وطريق الدعوة وفنونها مبسوطة تقابلها في كل زاوية من زوايا القرآن.

والصالحون في القرآن ينتشرون في شتى فنون الحياة، فمنهم الدعاة ومنهم العبّاد ومنهم المجاهدون ومنهم التجار ومنهم الاقتصاديون ومنهم صنّاع السلاح ومنهم صناع السدود ومنهم

المناضلون من أجل حرية الشعوب من الرق، ومنهم الزرّاع ومنهم النساء ومنهم الرجال، وكل ذلك داخل في مهمة الإنسان في إعمار الأرض ووقف سفك الدماء والإفساد.

والقرآن يوجه إلى فضائل الأخلاق، من عدل ورحمة وإحسان وصدق وصبر ومغفرة وتسامح وصلة رحم وصلة جار. وهو يأمر باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ويصفه فيقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فمهمة محمد (ﷺ) نشر الرحمة وسمته خلق كريم وكلمته قلبها الحكمة والموعظة الحسنة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وهو ـ أي القرآن ـ يرسم للرسول (ﷺ) الحدود التي تقف عندها جهوده وقدراته، وعلى الرغم من كل ذلك فالبشر هم البشر: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [القصص: ٥٦]، فالعالم معقّد وأعقد ما فيه هو الإنسان: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، تلك الحقائق التي وطّن القرآن قلب محمد (ﷺ) على تقبلها والتعايش معها.

والقرآن أكد بعدها القيم التي تدور في فلك المستقرات العقلية وتستحسن العدل والحرية والكرامة الإنسانية والإحسان والشورى والنظام وأمن المجتمع، فزادها تأكيداً وربطها بالآخرة وبالجزاء، ولكنه مع ذلك لم يفصّل في إجراءات تنزيلها في المجتمعات ولا في نظم عملها إلا في مواضع يسيرة.

وعلى الرغم من أهمية الإمامة والدولة إلا أن القرآن لم يتعرض لذكرهما ولا لتفصيلهما، لا في حياة الرسول (ﷺ) ولا وصَف ما بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، فتركها مهمة من مهمات الإنسان، ووضعها موضع الوسائل والفروع لا الأصول والغايات.

والنص القرآني يُنظر إليه في القرآن بأنه يفسر بعضه بعضاً ويمكن النظر إليه في ثلاث دوائر كبرى:

دائرة العقائد والعبادات

وفيها كل ما يلزم أن يعرفه الإنسان عن الغيب وكل ما يجب أن يعرفه عن العبادات في إجمالها وترك التفصيلات للسنة العملية تشرحها.

دائرة الحقائق

وفيها تكلّم القرآن في حقائق النفس البشرية، مثل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]، ومثل: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، وغيرها كثير، وتكلم عن أحوال الأنبياء والصالحين وخلجات نفوسهم من مثل: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١]، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ومثل: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وتكلم عن أهل الكتاب: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢]، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]،

ومثل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ودائرة الحقائق دائرة واسعة.

دائرة الحقوق

وهي الدائرة التي يتفاعل فيها البشر وتطبق فيها قواعد العيش المشترك؛ فيلتقي فيها كل البشر. وقاعدتها الكبرى العدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فهي دائرة مقسومة إلى نصفين:

نصف لدائرة السلم والتعايش في الأجواء الطبيعية

فشرح فيها:

- ✓ قواعد التعايش بين المؤمنين بالإسلام،
- ✓ وقواعد التعايش مع أهل الكتاب،
- ✓ وقواعد التعايش مع غير أهل الكتاب: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨].
- ✓ ومنها قواعد الدعوة فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.
- ✓ فمن لم يبادر بالعدوان فحقّه البر والقسط والدعوة بالحكمة والحسنى، تلك هي القاعدة الذهبية مع كل البشر.

أما نصف الدائرة الباقي فهو في الحرب

وفيها قواعد الاشتباك الأخلاقي والتعامل مع عروض الصلح والسلام وقواعد الهدنة... إلخ.

والقرآن بعدها فصّل في سيرة أهل الكتاب، وخصّ اليهود بالقسط الوافر من الحديث، واليهود في القرآن كنموذج لأمة تنزّلت عليها رسالة السماء وطال عليها الأمد فضمرت الرسالة التي وصفت في القرآن: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وحل محلّها كلام الرهبان وتبدّلت معالمها الأصيلة وتشوّهت صورتها في النفوس والعقول... وذكر القرآن أن هؤلاء القوم في قصصهم عبرة، فكل دين تمر عليه السنون والقرون تختفي معالمه شيئاً فشيئاً، وتغيب تحت تفاسير البشر وجهودهم، وتصبح هذه الجهود حائلاً بين المؤمن والنص الأصلي.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦].

ولكن أفهام الناس للقرآن تفاوتت ومعها تصوّراتهم عن الدولة والعلاقة بالمختلف ديناً، وعن وظيفة المؤمن في الكون ومعها ولدت مختلف التجاذبات في الساحة الإسلامية.

بين الإحباط والتشمير لحل المشاكل واستئناف الإسهام الحضاري للأمة شعرة، فالبعض ما أن يتعرف إلى حجم الخلل حتى يقول: «ليس هناك أمل ولم يكن هناك شيء» وينكمش... وهناك من يدعوه القصور إلى التفكر في الإسهام في العودة الحضارية... ولكن علينا أن نتذكر أن سقوط حضارة مثل الحضارة الإسلامية وتوقفها لا بد من أن يتناول قضايا كبرى أسقطتها وفعلت فعلها عبر قرون وهو ما سنواجه بعضه في هذا الكتاب وفي الكتاب المتمم قضايا العمق التراثي.

ما نرجوه من القارئ أن يواصل رحلة القراءة وأن يكتب خواطره متحرراً من سطوة التلقين الكئيب المنتشر الذي يدغدغ العواطف ويقود مسيرة الأمة من خيبة إلى أكبر منها، ويمنعها من مواجهة أخطائها وأحياناً خطاياها؛ لعله بتحرره من تلك الكتابات الدفاعية يصنع فجراً جديداً للبشرية.

فكرة المراجعات وحاجز الأيديولوجيا والحزبية

تتوالى الكوارث التي لا تهدّد الإسلاميين فقط ولكن المجتمعات بأسرها، وتكلّف الوقت والجهد والمال والأرواح وفرص التقدم على المجتمعات... ولكن لا أحد يتوقّف للمراجعة... ليست سنة ولا سنتين ولا عقداً ولا عقدين، إنه قرن كامل منذ ميلاد المشاريع العربية للتحديث سواء بوجهها الإسلامي أو العروبي أو اليساري، وحال الأمة في تردٍّ، والكل يلقي باللائمة على الأطراف الأخرى... هم سبب التخلف... و«هم» هذه تشمل شركاء الوطن والقوى الإقليمية والعالمية ولكن لا مراجعة للذات، والحقيقة أن الكل يحتاج إلى مراجعة عميقة ومن دونها لا يمكن معرفة درجة إسهام الذات في مشكلة الوطن.

لقد مرت فكرة المراجعة والنظر التي قادت إلى هذا الكتاب بتجربة بدأت من عام ١٩٧٣م، وأوجدت سؤالاً كبيراً في عام ١٩٨٤م، في نظرية العمل وبنية التصورات، وقادت إلى دراسة طويلة استمرت أكثر من عشرين عاماً... وهي تمثّل رؤية الكاتب ولا تدعي الصواب... وهي بدايات حديث وليست نهاياته... غايتها أن تنبه على جوانب رآها الكاتب عبر هذه

الرحلة الطويلة في الحالة الإسلامية، وهي أمور تستحق التوقف... وهي ليست سؤالاً للآخر ولكنها سؤال للذات ووقوف معها.

وهذه مهمة ليست يسيرة، وصعوبتها في قدرة الأيديولوجيا والحزبية الضيقة على حرف أي حوار عن مساره، بنقل النقاش من الموضوع المباشر إلى مواضيع فرعية... وقدرتها على خلق المبررات... فحين تناقش حامل الأيديولوجيا المعتدل وليس المتطرف تمر عادة بمراحل معروفة:

اعتراف تمهيدي عام ثم مسح للاعتراف... وهي تبدأ بـ«كل ابن آدم خطّاء... نعم نحن لنا أخطاؤنا لكن...» ومنها تبدأ المرحلة الثانية وهي بيان أن كل ما تم نتج من ضرورات لم يكن بد منها وأن المشكلة في الطرف الآخر... ومنها سيسرد لك سلسلة قصص عن إجرام الطرف الآخر وكيده... وستنتهي المسألة إلى تشنّج لا خروج منه إلا بأن تغير الموضوع.

حين تسأل عن مراجعة الأدبيات الأساسية،

سيقول لك: لكن هذه الأدبيات تقابلها أدبيات إصلاحية كثيرة وردت بعدها.

فتسأله: ما هي؟

سيقول: لك اقرأ كتابات محمد الغزالي والقرضاوي والغنوشي.

وحين تعلق أن هذه الكتابات ليست مما يدرّس في مناهج الحركات، هذا إن قبلنا أنها كلها تجديدية!

سيقول لك: ولكن لا يمنع أحد من قراءتها...

هكذا تستخدم الأدبيات التي يظهر فيها قدر من الاعتدال أو النقد لإزالة الضغوط وتجميل الموقف، ولكن كل مُطَّلِع على بنية ما يدرس يعرف أن كل هذه الأدبيات ليس لها مكان في التكوين الفكري لهذه الحركات.

تقول له: كيف يمكن أن يتقبّل أي نظام سياسي تنظيماً يفكر في إسقاطه، وتقوم نظريته على بناء عمل مدني يخترق المجتمع وبناء جيش قوامه اثنا عشر ألفاً لحسم الموقف؟

سيقول لك: هذا الموضوع أوقف منذ عام ١٩٤٩م..

تقول له: لم لا يتم إعلان ذلك ووقف تدريس النظرية وإعلان ذلك الموقف منها؟

يقول لك: تلك أدبيات العمل وعموده الفقري وهي عمل المؤسس...

تقول له: ها قد عدنا إلى نقطة الصفر فالإصرار على الفكرة ماذا يعني؟

يقول لك: الفكر يواجه بالفكر...

تقول له: هذا حين يبقى فكراً ولكن حين ينتقل إلى التنفيذ فالوضع مختلف وللمجتمع أن يقلق وهو يرى التنفيذ جارياً... وعندها تواجه الدولة التنظيم بتنظيم الأمن والأجهزة العسكرية ويدخل المجتمع في الاحتراب والتدمير الذاتي...

يقول: هم يقومون بالعدوان وليس نحن... نحن دعوة سلمية...

تقول له: هذه السلمية هي بنية فكرية أم استجابة لضغط الواقع؟...

يقول: بنية فكرية...

تقول: ولكنك قلت: إنك ما زلت تدرس فكرة الاثنتي عشرة ألفاً وأدبيات الماضي، وعليها تؤسس فكر المنتمين...

يقول لك: هل نترك ديننا من أجل هؤلاء؟

عندها يكون الموضوع قد انتقل إلى فضاء آخر..

تسأله: هل هو الدين أم فهم معين وتصوّر معين له يراد فرضه على المجتمع؟ عندها تكون قد دخلت منطقة الحوار في عمق الاستدعاءات الدينية المؤسسة للفعل!

في هذا الكتاب سنحاول أن نغوص عميقاً من السطح إلى العمق في محاولة فهم الالتباسات التي قادت إلى كل هذه الإشكالات وما زالت تقود.

توضيح الإشكاليات

أخبار تتوارد من كل مكان: تونس تثور على بن علي، مصر تثور على مبارك، ليبيا، اليمن... الإسلاميون يصلون إلى الحكم، الفيس بوك والتويتر ممتلئان بالتهاني، تحرير فلسطين قد حان، الشباب يتجهون إلى تحرير فلسطين بالزحف على الحدود، الخلافة ستقوم، أردوغان سيقود الخلافة، أردوغان يزور مصر وينصح باعتماد الدولة العلمانية والإسلاميون يرفضون فكرته ويقولون له مصر مختلفة... مصر إسلامية... مصر تنقسم على نفسها: علمانيون مقابل إسلاميين أو ليبراليون مقابل

إسلاميين، صراع إعلامي ضخم يدور... اتفاقات... صراعات... الجيش يهدّد بالتدخل... الجيش يتدخل... الإسلاميون في رابعة... الإسلاميون يتعرضون لمذبحة... الجيش يعد بالديمقراطية... الجيش يواصل سياسة القبضة الحديدية... مرة أخرى الدولة تطارد الإسلاميين... بين حالة الصعود والهبوط سنتان... بين منتهى الآمال وبين التشاؤم خطوات قصيرة... نتقدم خطوة ونعود خطوتين... كل شيء من حولنا سريالي بدرجة عالية... لا الإسلاميون يقودون المجتمع إلى الديمقراطية ولا الجيش يقود البلد إليها، ولا المجتمع المدني قادر على التماسك وبناء الدولة المدنية... شيء ما يحتاج إلى بحث ولكن الحالة الإسلامية هي ما سيستقطب اهتمامنا في هذا الكتاب.

الحالة العربية الإسلامية وربما الحالة الإسلامية الأكبر في البلاد المسلمة، وربما في غير البلاد المسلمة تشكل حالة من الإرباك لا تخفى على مُطّلع، فالإسلام بشكله الاجتماعي كعقيدة وشعائر وشرائع في جلّ مادته هو محل اتفاق في جمله العامة بين أغلب المسلمين على مختلف توجّهاتهم، فالناس تؤمن بقضايا الغيب في المجمل، وتؤمن بالعبادات: صلاة وصيام وزكاة وحج وتأخذ بالمواريث وبالمحرمات الكبرى... كل ذلك وأكثر منه، لا يشكّل فضاء خلافياً لأنه يشكل العمود الفقري الذي استمر عبر الأجيال وحفظ للإسلام استمراريته على الرغم من تقلب الأحوال وتغيّر الدول. أما فضاء السياسة وشأن الدولة فهو قضية خلافية ممتدة عبر التاريخ الإسلامي، ومن لحظة غياب الرسول (ﷺ) عن المشهد... تظهر في شكل توترات طفيفة أو

حروب لا تبقي ولا تذر... وهي ما زالت إلى يومنا مصدر الخلاف والتوتر... فحديثنا في الفقرات الآتية عن البعد السياسي في فهم الإسلام في يومنا... ولنحاول أن نقارب المشهد بنماذج حية تقرّب الصورة قبل التفصيل.

إسلاميو السلطة وإسلاميو الوادي وإسلاميو الجبل وجيرانهم المسلمون

في تونس في لحظة واحدة، إسلاميون في السلطة يديرونها أو يحاولون، وإسلاميون يواجهون الشرطة في الشوارع باعتبار أن عندهم إسلاماً أفضل، وإسلاميون صعدوا الجبل للقتال باعتبار أن عندهم إسلاماً أفضل من الأفضل، وإلى جانبهم مجتمع مسلم بكل إيجابياته وسلبياته... وفي أفغانستان قبل سنوات، ومع وصول «مجموعات رباني الإسلامية» إلى كابُل كانت مدفعية «حكمتيار الإسلامي» تدك كابُل ثم مدفعية «طالبان الإسلامية» تدك كابُل ثم مدفعية «الشمال الإسلامي» المتحالف مع الغرب تدك كابُل لتخرج طالبان... إسلام يواجه إسلاماً كما قال الصادق النيهوم في أحد كتبه...

كل هؤلاء مستعدون أن يضحوا بأرواحهم ويزهقوا أرواح مخالفيهم باسم الله والإسلام الحق. إنها الحرب باسم الله من كل الأطراف... الكل يرفع راية لا إله إلا الله، والكل يقول: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار... مشهد سريالي ولكن من كثرة تكراره لم يعد يثير الاستغراب...

مقولة: لم يفهموا الإسلام المعتدل

ولكن هناك ما هو أخطر من ألفة المشهد هو تبريره والبحث عن حِيَل بلاغية لتجاوز الأزمة... فالكل سيقول لك: لكن هؤلاء لم يفهموا الإسلام المعتدل... الإسلام الحق... ويتوقف الحديث؛ فقد أوجدنا الإجابة التي تجعلنا ننام ونحن مستريحون... فالإسلام الحق هناك ينتظر من يكتشفه... لم يكتشفه بعد التقليديون ولم يكتشفه بعد المعتدلون في السلطات ولم يكتشفه بعد المحتجون في الساحات ولم يكتشفه بعد المقاتلون في الجبال الباحثون عن دولة الشريعة في مالي، وذلك بلسان الحال والواقع المتخلّف الذي هو نقيض الإسلام... لم يكتشفه أحد بعد ولكنّه هناك في مكان ما، ربما في النص ذاته ينتظر من يميط اللثام عنه أو في التاريخ الذي ننتقي منه لحظات الإشراق لندلل على كمالاته... أو ربما هو موجود في النص وفي لحظة الإشراق التاريخي التي تطابقت مع مقرراته... قلّت أو كثُرت... كل ذلك قابل للفحص والنظر ولكن بعد أن نسلّم بوجود المشكل والتحديات والتوقّف عن الهروب من مستحقاته.

مقولة: الإسلام يتعرض لمؤامرة دولية

وحين تنتهي فكرة «لم يفهموا الإسلام المعتدل» التي أشرنا إليها سابقاً... يقفز لك أحدهم ليقول لك: ولكن الإسلام يتعرض لمؤامرة دولية، هناك أصابع تلعب في الخفاء هم يكيدون للإسلام حتى لا يتمكّن...

تقول له: لكنّ الإسلاميين اليوم في السلطة في أكثر من بلد!

يقول لك آخر: ولكنهم جزء من المؤامرة، إنهم صنيعة الغرب لتمييع الإسلام...

تقول له: ولكن من يعترض عليهم إسلاميون أكثر منهم تشدداً في الساحة.

يقول لك آخر: هؤلاء صناعة المخابرات وفروخها تربّوا في حضن الدولة العميقة.

تقول: ولكن الذين يقاتلونهم في الجبل إسلاميون أكثر تشدداً منهم.

يقول: وهؤلاء أيضاً مختَرَقون تحرّكهم المخابرات الغربية والإقليمية...

من هم الإسلاميون إذاً الذين يحصلون على صك البراءة؟؟ ومن أين يمكن أن نبدأ بالتفكير الموضوعي في أحوالنا... فلا المخابرات الغربية ولا أصحاب المصالح ستخلو منهم الساحة يوماً، ولا احتمالية العمالة ستنتفي بالمطلق جزئياً أو كلياً... كل ذلك سيبقى سيفاً مسلّطاً على أي محاولة للتفكير، فنظرية المؤامرة تبدأ من قضايا صحيحة لتنتهي بمقولات ظنية لا يمكن إثباتها أو نفيها بالمطلق، فتبقى غطاء لحالة العجز، فمن الصحيح أن هناك صراعاً قائماً في الحالة العربية كمثل كل الصراعات في العالم، وأن الأطراف ذات المصلحة كبيرة ومتعددة داخلياً وخارجياً، ولكل فريق أجندته وكل فريق يسعى للوصول إلى أهدافه، كل ذلك طبيعي ومفهوم ولكن صاحب النظرية يخلص من ذلك بأن هناك طرفاً متحكماً في كل عناصر اللعبة خطّط لها منذ البداية، وهو قلّما يفوته شيء، فحتى غير

المفكر فيه قد فكر فيه، وهو بالِغٌ أهدافَه على كلّ حال، ثم يطوّر الحديث من هذه النقطة إلى أن أخطاءنا وقصور فعلنا لا علاقة لها بالهزيمة، فالهزيمة حتم لازم لا فكاك منه ومهما فعلنا فالنتيجة محسومة، وبالتالي فلا جدوى من المراجعة والتخطيط، فالموضوع سيُحلّ بمعجزة ما ومن هنا تنطلق تساؤلات نهاية العالم والخوارق التي ستكسر هذه الهيمنة.

مقولة: لم نعد مسلمين كفاية

بقي من يقول لك: إنه «الإيمان والصلة بالله»، لم نعد نصلي بالقدر الكافي؛ هجرنا المساجد وهجرنا السنن... نحتاج إلى العودة إلى الله والاقتراب منه... ذلك هو حبل النجاة... وذلك صحيح ولكن هل هو الحل؟... إن الإيمان والعبادة أمران عظيمان ولكنهما في صناعة الحياة جزء من المعادلة؛ فمن أراد الحسنيين: الدنيا والآخرة، فيجب أن يكمل شروط عمل الدنيا وهو شق «وعملوا الصالحات» التي بها تنمو حياة البشر... فمعادلة القرآن تشير إلى بعد السماء بمثل: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣]، وإلى بعد الأرض: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وهي طريق كبير تُفرّغ فيها كلّ المواهب الإنسانية لعمران الحياة، والسباق فيها له سننه المعلومة... فماذا لو كان الإنسان عابداً متبتلاً متصوفاً لا تفارق سبحته يده ولم يحسن إدارة السياسة والاقتصاد والاجتماع والصناعة والزراعة والجامعة والبحث والنظر؟ فنابليون بونابرت حين دخل مصر لم تكن تشكو قلة الصالحين والعبّاد والدراويش ولا قلّة علماء الشريعة وطلبة العلم الديني... ولكنها كانت متصحرة في الأخذ بأسباب العمران... واليوم لا يمكن القول:

إن الإسلام التقليدي وإسلامي السلطة وإسلامي الشارع وإسلامي الجبل مجموعات لا تمتلك الإيمان والتقوى أو على الأقل السمت الظاهر والقيام بالفروض والنوافل... فالمساجد تغصّ بالمصلّين، ومعظمهم اليوم من الشباب، ورحلات العمرة والحج لا تتوقف والحرم المكي والنبوي زادهما الله شرفاً عامران بالبشر الركع السجود... بل في بلاد الأفغان، وهي أكثر البلاد تخلُّفاً اليوم من ناحية التنمية تمتلئ المساجد عن بكرة أبيها بالمصلين والمسبّحين، وفي موريتانيا تمتلئ البلاد بحفّاظ القرآن والمتون القديمة... شيء من التفكّر يقول: إن المشكلة ليست هنا.

مواجهة الواقع

وخلاصة الاعتراضات الثلاثة عملياً تقود إلى مشكلة رابعة طبيعية... فباستمرار هناك هذه الشماعات التي لا يمكن إثباتها بالكامل ولا نفيها... فسوء الفهم سيبقى ما بقي الانسان... والتداخلات المصلحية للقوى المختلفة ستبقى ما بقيت الحياة... وقصور الإنسان العبادي في الجملة سيبقى ما بقي الانسان... وبالتالي، ستستمر عملية الهروب من الاستحقاق الرباني الذي جعل المسؤولية معلقة برقبة الذات ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]... **يجب أن نسأل عن الجذور العميقة لطريقة تفكيرنا والأزمات التي بإمكاننا معالجتها والتحكم فيها بدرجة أكبر... فالتخلّف والتقدّم هما ابنا طرق التفكير في المجتمع... وهما ابنا المنظومات العميقة الحاكمة لتصوّراتنا عن العالم وفي العالم... ومن دون معالجة هذه المنظومات بصدق وصراحة فلا طريق للمستقبل.**

في هذا الكتاب سنسمي أهم الإشكالات التي بدت لنا في رحلة التفكر، وغرضنا الانتقال بالحوارات خطوة من فضاء القضايا الثلاث السابقة التي على أهميتها أصبحت تكأة للعطالة الفكرية. ولندخل في صميم القضايا التي نعتقد اجتهاداً أنها أحجار العثرة في طريق التقدم... وحسبنا أن نوجد لغة للحوارات المستقبلية يمكن عبرها التواصل.

١ ـ سؤال: تحدّيات الأفكار أمام الفكر الإسلامي على السطح (قضايا السطح).

٢ ـ سؤال: إشكاليات التنظيمات الإسلامية.

٣ ـ خاتمة (الطريق إلى المستقبل).

وقد خصصنا كتاباً كاملاً لقضايا العمق المتعلقة بالتراث، واقتصرنا هنا على قضايا السطح وقضايا التنظيمات.

الفصل الأول

تحديات أمام الفكر الإسلامي
(قضايا السطح)

مقدمة

إدراك البدايات

✓ تفاعلات وأثر

قبل أن نبدأ بالحديث عن منحنى الانحدار الطويل، يجب أن نشير إلى أن هذا المنحنى لم يكن خطاً واحداً ولكنه عدد من الخطوط، ويمكن الإشارة إلى بعضها كل من زاويته:

ـ فمن نظر من زاوية الفتوحات يمكنه أن يقول: إنها استمرت حتى وصول الأتراك إلى أسوار فيينا في عام ١٦٨٣م، وبالتالي فخط الفتوحات شهد انكسارات، مثل: الغزو الصليبي، والغزو المغولي، والخروج من إسبانيا في عام ١٤٩٢م.. ولكنه لم يتوقف فعلياً حتى في معركة فيينا... وقصة الفتوحات قصة نجاح استمرت عبر قرون طويلة، فهي الجانب العسكري في عصر الخيّالة والمواجهات الفردية والتقنية المتشابهة.

ـ ومن نظر إلى مشعل الحضارة يرى أنه بقي طويلاً في بلاد المسلمين ينتقل من منطقة إلى أخرى؛ فكلما انهارت دولة عامرة بالحيوية كلما نهضت أخرى لتحمل طرفاً من الجهد... فمن

الصحيح أن القلب أصيب بالسكتة مبكراً، ومنذ القرن الثامن تحديداً، ولكن أدّت الأطراف دورها في استمرار الحضارة.

ـ ومن نظر إلى الخط العام للقلب وإلى الصورة الكبرى للخط السياسي يراه خطاً حزيناً مليئاً بالفواجع، ويستغرب مقولة: إن مشعل الحضارة البشرية بقي يدور في هذه البيئة لأنه لا يرى فكرة القلب والأطراف... فذلك أشبه ببقعة كبيرة من الأرض وفيها مولّد عملاق للكهرباء موجود في القلب، يضخّ النور في الأطراف ولكن كل بقعة من الأرض كان لها مولّدها الخاص وحين انهار المولد الأساس نجحت مدينة ربما في الأندلس أن تنير دروبها، فإن انطفأت تحرّكت بقعة في خراسان، فإن انطفأت تحرّكت بقعة في مصر أو الشمال الأفريقي... فلا تخلو البقعة الكبرى من منطقة حية... ولكن هذا لا يمنع من أن القلب لم يعد مشعاً وأن بقية المناطق في ظلام.

ـ ومن نظر إلى الخط العلمي في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والتاريخ والدين... شهد ازدهاراً في عصر الرشيد والمأمون وبعض فترات الدولة في الأندلس... والرشيد والمأمون هما في القرن الثامن الميلادي؛ حيث توفرت رغبة ساحقة عند الأمراء في العلوم وقامت الترجمة، ولكنها تآكلت سريعاً كاتجاه عام وإن بقيت إبداعات فردية متناثرة يرعاها بعض الأمراء، حين يهتمون بجانب كالطب أو الفلك ولم تتحوّل ـ ما عدا في الجانب الديني ـ إلى حالة اجتماعية مغروسة في التربة، وبقيت مقولة العلوم الدخيلة تطبع العاملين بها كأداة من أدوات التنفير من العلوم الوافدة أو المترجمة... ولكن هذه الأعمال ـ على الرغم من كل ذلك ـ أصبحت حجر الزاوية للحضارة

الغربية حين تُرجمت بين القرن الثاني عشر الميلادي والثالث عشر إلى اللغات الأوروبية، ودخلت جامعاتهم وأدخلتهم في العلم التجريبي الذي جعلهم رواد الحضارة المعاصرة بعد حين.

ويعتقد بعضٌ اليوم أننا قد تجاوزنا مرحلة اعتبار العلوم التطبيقية علوماً دخيلة، فالكل يدرس العلوم في مدارسنا. ولكن في الحقيقة المشاهدة أن كل ما حدث هو إعادة تعريف العلاقة، فهي علوم نحتاج إليها للحصول على الشهادات والوظيفة، وليست علوماً للكشف عن المجهول كما هي روح العلم في أمم الأرض، وبالتالي تنقطع العلاقة بها مع الحصول على الوظيفة أو المكانة الاجتماعية، فالتغير الذي حدث تمّ بفعل ضغط الواقع ولكنه لم يؤثّر في خلل العلاقة بالعلوم الكاشفة، فما زال في عقل كثير من منتسبي هذه العلوم أشواق للعودة إلى العلوم الشرعية باعتبارها هي التعبير عن الدين وهي ميراث الأنبياء... فقط وفقط حين نصل بوعينا إلى فكرة العلوم الكاشفة ونمركزها بأنها من صميم الدين لأنها هي خطنا للعلاقة بوضع الإنسان في الكون ودوره في إعمارها... عندها يكون قد أنجز مشروع الخطوة الأولى لدخول العصر في عصر جديد.

والخط السياسي أو إدارة الدولة بدأ واعداً مع الخلافة الراشدة، في عصري أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، ولكنه، وكما سنرى لاحقاً، تعرض لانتكاسات صعبة في عهد الخليفتين عثمان وعلي (رضي الله عنهما) ثم انكسر مع العصر الأموي وتحوّل إلى نظام ملكي تقليدي تكيّف معه الفقه وأسبغ عليه الشرعية، وأعطاه صفة الديمومة باعتباره الممكن والمتاح، وبالتالي فتاريخ القصور عكس كل أمراض الأثرة والصراعات الداخلية بين الأقارب

ناهيك بالأباعد... ولم تخلُ المراحل من ملوك صالحين، ولكنه لم يكن صلاح نظم بل صلاح أفراد، فلم ينشأ نظام مؤسسي ولم تترسخ تقاليد تداول مستقر، ولم توضع فلسفة واضحة لعلاقة الأمة بالسلطة بل تذبذبت بين المثالية المفرطة في الطرح وبين الاستسلام للواقع بكل عيوبه والتقعيد له عملياً.

أما الخط الاجتماعي من المجتمع المسلم الذي أنشأ الأوقاف والمدارس والمستشفيات وشقّ الطرق وأوجه العمران وهو ما صنع خط البقاء، فقد قلّت الكتابة عنه بشكل كبير مما جعل الدراسة لهذا الفضاء شاقة وعسرة المنال، ولكنّها ليست مستحيلة. إلا أنها تتناثر وتجمع شذراتها في كتب الأدب أكثر منها في كتب التاريخ التي اهتمت بالجانب السياسي والأحداث ولم تول الاهتمام ذاته بالجانب الطبيعي في المجتمع.

كل ذلك ليس موضع دراستنا، ولكن يمكن تتبعه في مظانه وسننظر إلى الجانب المختفي من الصورة حتى نعرف الكوابح التي أوقفت عجلة الحياة الإسلامية، ومنعتها من النمو حتى يومنا هذا.

لقد مر الإسلام برحلة طويلة منذ نزول الوحي ٦٠٩م وحتى اليوم ٢٠١٤م، أي أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمن، شهد فيها مساراً سياسياً وعسكرياً وفكرياً متأرجحاً بين فترات استنارة وفترات ربما أطول من الغيبوبة الحضارية، واختلط فيه النص المُنزّل بالاجتهاد البشري، واختلط فيه الدين بالعادات والتقاليد.

ثم حدث الركود الشامل في العقل المسلم بعد مسار طويل يبدأ من القرن الثامن الميلادي وصولاً إلى آخر منحنياته مع بداية

ضعف الدولة العثمانية ١٥٦٦م، وعلى الرغم من أن إعلان وفاة الدولة العثمانية جاء سنة ١٩٢٤م، وأنها بين هذين التاريخين شهدت فترات انتعاش، ولكن المنحنى العام كان في انحدار، ليس فقط بسبب ضعف العثمانيين ولكن بسبب تطورات جيرانهم من الأوروبيين. فالتقدم والتخلف أمران نسبيان متعلقان بحركة الآخر بقدر ما هما متعلقان بحركة الذات. لقد امتدت الدولة العثمانية... السلطنة... الخلافة... سمّها ما شئت في أوروبا وفي آسيا وفي أفريقيا، وأصبحت مصر من ممتلكاتها، يعيّن لها الباب العالي حكّامها، وبطبيعة الحال كان مصير الأقاليم التي يحكمها الأتراك لا يختلف عن مصير الدولة الأم، وقلبها إسطنبول، وربما مبكراً تبينت مصر المأساة والفجوة الحضارية بينها وبين الغرب، فمع نزول نابليون إلى الإسكندرية عام ١٧٩٨م انكشف الغطاء عن وضع حضاري كبير، فرّق بين معسكري الغرب والشرق العربي والإسلامي.

وكما دفعت المهانة الحضارية ألمانيا وإيطاليا إلى أحضان الأفكار المتطرفة الحادة، فولدت النازية ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥م، والفاشية ١٩٢٢ ـ ١٩٤٣م، وبدأ المسار ذاته يتبلور في العالم الإسلامي الذي شعر بالمهانة الحضارية، فولدت الحركة القومية العربية مع نهاية القرن التاسع عشر، وتطورت من حركة إسلامية عروبية إلى حركة عروبية وأخرى إسلامية، وبما أن الفكر السائد حينها كان فكراً أخذ طابع مرحلته من حيث النظرية والتطبيق فهناك جانب تنظيري وجانب مدني وجانب عسكري، كما هو في كل الأحزاب التي أشرنا إليها في أوروبا، وعكست نفسها على نظيراتها في العالم العربي والإسلامي، فأغلبية الحركات رأت

في النموذجين النازي والفاشي طريقاً للمستقبل. وعلى الرغم من أن الأشكال الفاشية والنازية والستالينية الشمولية سقطت في أوروبا تباعاً، ولكنها بقيت عندنا في الفكر والممارسة. فلم تتطور فكرة الدولة، إلى فكرة الدولة الديمقراطية، ولم تتغير التنظيمات لتصبح أحزاباً معاصرة، ولا يزال الصراع بين الدولة وبين هذه التنظيمات يتم بين أُناس ذوي أفكار شمولية غادرها التاريخ ولكنها لم تغادر منطقتنا بعد.

✓ انخفاض السقف

لقد بدأ الحلم الإسلامي واعداً مع جمال الدين الأفغاني، الذي كرّس جهوده لحرب الاستعمار والاستبداد والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وتبعه تلميذه محمد عبده فدعا إلى التجديد وإلى التعليم الحديث، وكلاهما جعل الإسلام مسطرته، والعودة إلى مفاهيم الدين الكبرى بوصلته، واضعاً تطور البشرية في حسابه. وجاء تلميذ محمد عبده، الشيخ محمد رشيد رضا، فأخذ المشروع في اتجاه الماضي البعيد مستحضراً كتب التراث في نقلة كبرى إلى سقف أقل ارتفاعاً من محمد عبده. وجاء تلميذ محمد رشيد رضا، وهو الأستاذ حسن البنا، ليقوم بالنقلة الأخرى إلى سقف أشد انخفاضاً، وتبعه قطب ليصل انخفاض السقف إلى مداه... فتشخيص محمد رشيد رضا وصل به إلى أننا نحتاج إلى إحياء التراث، فأعاد ابن تيمية وابن القيّم إلى الحياة، وهما نتاج مرحلة تاريخية مأزومة... وتشخيص البنا وصل به إلى أن الحل في التنظيم الحديدي وفكرة الإثني عشر ألفاً الذين لن يُهزموا. وتشخيص سيّد ـ عليه رحمة الله ـ وصل به إلى أن الحل في البداية من الصفر التام بطليعة جديدة تعيد

التشهد والمرور بمراحل الدعوة النبوية الأولى بالتمام والكمال لإنتاج الجيل القرآني الفريد.

✓ ميلاد الأيديولوجيا

من رحم هذا المخاض وُلدت حركة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨م، وتبعتها بعد سنين الجماعة الإسلامية في باكستان عام ١٩٤١م على يد المودودي (١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م)، ومجمل الفكر الإسلامي المعاصر قد تشكّل تحت تأثير هاتين المدرستين. والمدرستان قامتا على تراث تيارين رئيسين تاريخيين، هما: التيار السلفي والتيار الصوفي. أخذتا منهما مفردات، ثم أنتجتا أيديولوجيا خاصة، تغذّت منهما بعدها الحركات المتفرعة كالسلفيات الجهادية وحزب التحرير وغيرها. ومنهما تحول الإسلام من دين جامع لكل الأمة إلى أيديولوجيا حادة تُعرّف الداخل والخارج بحدة وشراسة.

لقد تطوّرت كل المدارس وغذّاها المودودي بقائمة مصطلحات، وغذّاها سيد قطب بنظرية تُعيد إنتاج التاريخ وتأوله، وصنع حسن البنا للأيديولوجيا الجديدة عضلات تنفيذية، ومنه تعلم الجميع صناعة العضلات التنفيذية. فلم يكن غريباً أن ينشأ عندنا إسلام السلطة، وإسلام الشارع، وإسلام الجبل. ويتجاور ذلك مع الإسلام التقليدي أو الاجتماعي التاريخي، وبالتالي، تكوّنت صورة الحالة الإسلامية المعاصرة... اسم واحد، هو الإسلام، لتصورات وتصرفات مختلفة.

وقد يظنّ بعضٌ أن فكرة عسكرة التنظيمات التي أدت إلى بروز نوع «إسلام الجبل» ولدت في السجون. كما يُروج أن فكرة

التكفير تغذت وترعرت هناك، ولكن الحقيقة أن فكرة التنظيمات وبُعدها العسكري التنفيذي كانت مرحلة مبنية على تصور فكري أساس، أخذ طابعه على الأرض كما سنرى في ما بعد عند الاقتراب من أفكار حسن البنا ومن بعده سيد قطب، وربما كان ذلك هو طابع مرحلة كاملة لأغلبية الأحزاب والاتجاهات في العالم حينها، بما فيها العروبية واليسارية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

✓ تضخم فكرة الدولة

في قلب تصوّرات الثلاثة الكبار: البنا والمودودي وقطب، تضخّمت فكرة الدولة بشكل حادّ باعتبارها أساس العودة الإسلامية. فمن منهج أهل السُّنَّة والجماعة الذي يجعل الإمامة والحكم من مسائل الفروع أي الفقهيات نقلها البنا إلى مجال الاعتقاد بقوله: **«والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع» (رسالة المؤتمر الخامس ـ حسن البنا)** وكرّسها المودودي بفكرة الحاكمية، فالسياسة في الإسلام هي بنت مفهوم الوحدانية، والدولة بهذا المفهوم هي بنية عقدية.

لقد كانت مسألة انفصال باكستان عن الهند تحتاج إلى تنظير لا يجعل الخيار للشعب، ولكن يرد أمر الانفصال إلى الأمر الإلهي، هكذا تفاعَلَ الديني مع السياسي فولّد الفكرة، وعمّدها توضيح قطب بنظرية كاملة تدور حولها كل الحياة **(معالم في الطريق)**، اختلط العقدي بالاجتهادي بشكل استدعى كثيراً من الكتابات التي تحاول فض الاشتباك، وكثيراً من الاتهامات والدفوع، ولكن الحقيقة البسيطة أن الإشكال أصبح

كبيراً وترتبت عليه أغلبية الصراعات التي ما زالت تعصف بالأمة حتى اليوم. ولنبدأ بإلقاء نظرة على السطح لمعرفة تداعيات تلك الأفكار.

أفكار مربكة

١ ـ إسلاميون أم مسلمون (ظاهرة التشظي)

تسمع المذيع والضيف يتناقشان عن الصراع بين الأحزاب الإسلامية وغيرها ويرددان الألفاظ ذاتها:

هؤلاء ليسوا مسلمين هؤلاء إسلاميون.

فيرد الضيف: بل هم متأسلمون.

فيرد المذيع: هل يمكن تشبيههم بالخوارج؟

يرد الضيف: ربما يمكن أن نسميهم الظلاميين.

مشهد وحوار متكرر... فماذا في العمق؟ كيف برزت كل هذه التسميات؟

لقد ولّدت فكرة الحاكمية تصورات مختلفة، وأهمها ميلاد الحركات الإسلامية، وهم من يريدون العودة إلى الإسلام عقيدة وشريعة، وهو مطلب لا يختلف عليه المسلمون بحكم عقيدتهم ـ هذا في المجمل ـ، ولكنهم سيختلفون في الطريقة التي يُكيّف بها هذا الفصيل أو ذاك فكرة العقيدة والشريعة.

ففكرة العقيدة والشريعة حين تتحول إلى فكرة سياسية قابلة لأخذ أي شكل، من تصوّر طالبان ودولة العراق والشام الإسلامية إلى فكرة الغنوشي وأردوغان عن الدولة. لم يكن

توجّس الناس في الغالب مرجعه إلى أساس الفكرة، ولكن كان توجسهم من الشكل الذي ستؤول إليه، وكيف ستؤثر في حياتهم. وعلى الرغم من ازدياد أعداد المؤمنين بأفكار هذه الجماعات حتى من غير المنتمين إليها، إلا أنّ الجسم الاجتماعي الأكبر بقي يضع مسافة بينه وبين هذه الجماعات، وأصبح المجتمع يميّز بين فكرة المسلم والإسلامي.

لقد تحركت عبر التاريخ قوافل الإسلام من مكان إلى آخر في بلاد الإسلام، انتقلت البضائع وانتقلت الأفكار وانتقل العلماء وانتقلت مراكز الثقل الحضاري مرتحلة من الجزيرة إلى الشام إلى العراق إلى الأندلس إلى الشمال الأفريقي إلى المحيط الآسيوي. مع تقلّب الأحوال على منطقة المركز التي أصبحت منذ القرن الثامن الميلادي شكلاً بلا مضمون للوحدة يُنقل فيها الخليفة باعتباره حامل أختام من مكان إلى آخر، حتى ملّ من ذلك فسلّم الأختام للسلطنة العثمانية وأعلن استقالته من المنصب، فسميت السلطنة العثمانية حينها دولة الخلافة.

لقد انقسم المسلمون مبكراً مع مقتل عثمان (رضي الله عنه) سنة ٣٥هـ، وانقسم الصف المسلم إلى معسكر علي (رضي الله عنه) ومعسكر الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان واقتتل المسلمون. ثم انقسم معسكر علي (رضي الله عنه) فولدت فرقة الخوارج على إثر معركة صفين سنة ٣٧هـ ونشبت أول المعارك معهم سنة ٣٨هـ في النهروان، ثم استتب الأمر لمعاوية ببيعة الحسن (رضي الله عنه)، وقيام ما يسمى بعام الجماعة، وما لبث أن انكسر الاستقرار مرّة أخرى بتولي يزيد بن معاوية الحكم، فأنتج فواجع أهل البيت وظهر خط

التشيع رويداً رويداً ملتحماً بفكرة الرضى من آل محمد في تحالف أبناء علي مع أبناء العباس، الأمر الذي سينكسر مرة أخرى بتولي العباسيين السلطة وستدور الحرب بين الفريقين طويلاً عبر ثورات متوالية من مكة والمدينة حواضن الفرع العلوي أي أبناء علي بن أبي طالب والذين تمركزوا في مكة والمدينة.

تقاتل الجميع وولدت مصطلحات مثل: الرافضة والنواصب والخوارج، واستمرت القائمة بعدها في الازدياد مع ظهور المذاهب الفقهية وتعددها، تعددت التوجهات ووصلت إلى استباحة الدماء والتكفير والتبديع والتضليل، ثم جاءت الانقسامات الاعتقادية فظهرت مسميات جديدة حفرت عميقاً وإلى يومنا في العقل المسلم والنفسية المسلمة شروخاً لم نساهم في اندمالها حتى اليوم.

وعلى الرغم من انقراض ممثّليها أو قلّتهم فما زال بعضٌ يصارع المعتزلة والمجسّمة والفلاسفة... إلخ. وبالتزامن مع كل ذلك ولد صراع التسلّف والتصوف وما زال الاشتباك قائماً. في ضوء ذلك كلّه لم نبحث في أي ظاهرة من الظواهر الانقسامية، لم ندرس الأسباب العميقة التي تقود إلى القتل والدمار، لم نحدّد الحد الأدنى الذي يكون به المسلم مسلماً مُصانَ الدم والعرض والمال، كانت الأفكار تتجه في اتجاه واحد: من ليس معي فهو ليس على الإسلام، أو أن إسلامه مخدوش، وفي كل الأحوال لم يكن هناك ضير لو وقف الأمر عند ذلك، ولكن الموضوع كان ينتهي باستباحة كل شيء، لم ننظر إلى دائرة المشترك الجامع، ولكن كنا بارعين في ما يفرق ويشتت، داهمنا

الصليبيون ونحن متفرقون يقتل بعضنا بعضاً فلم نتّعظ، وداهمنا المغول ونحن غارقون في خلافاتنا فلم نتعظ، وداهمنا الغرب الحديث ونحن ممزقون فأعنّاه على أنفسنا.

لم نغص عميقاً في جذور فهمنا للدين، فالدين في ذاته نص ولكنه يكتسب وجوده من تفاعله مع عقل الإنسان وقلبه، كل هذا التاريخ من الصراعات أوجدنا آلية لتجاوزه لأن مواجهته تعني تشريح العقل ومقررات استقرت عليها الأفهام، ومسألة مراحل اكتسبت قدسيتها عبر تعاقب الزمن.

لكن هل هذا حديث عن التاريخ أم عن واقعنا اليوم؟

هل زالت الأفكار الانقسامية بإشراقة العصور الحديثة؟ هل وعينا التحولات الكبرى التي تدور من حولنا أم أضفنا إلى انقساماتنا السابقة انقسامات جديدة؟

لقد أعادت التيارات الإسلامية المعاصرة إنتاج المشكلة ذاتها، وهي نتاج طبيعي لإفرازاتها، فمع العصور الحديثة وانقسام المشروع العروبي الإسلامي إلى شقين: عربي وإسلامي، واستمرار تباعد المسافات بينهما كما يتنافر السالب والسالب والموجب والموجب، قطبان لا يلتقيان، وإن التقيا فسرعان ما ينفصلان. دار صراع مرير بين المسار الذي عرّف نفسه بأنه إسلامي والمسار الذي عرّف نفسه بأنه عروبي.

فالإسلامي بدأ يتمركز حول التراث وشيئاً فشيئاً يغرق فيه، والآخر بدأ يتمركز حول التراث الوافد من الغرب وشيئاً فشيئاً يغرق فيه، وبدأ مصطلح جديد يشق طريقه إلى الوجود: الإسلاميون ومفردها إسلامي.

لم يكن هذا فارقاً بين مهتم بالإسلام ومعاند له، بل شيئاً فشيئاً تحول ليعني جموع المنتمين إلى الحركات الإسلامية على وجه التحديد في مقابل عموم المسلمين، بقدرة قادر بدأت فكرة المسلم تنزوي في مقابل فكرة الإسلامي، وأصبح على الإنسان إن سُئل أن يجيب إلى أي فصيل من الفصائل الحزبية ينتمي؟ وظاهرة التشظّي لا حدود لها، فداخل الحالة «الإسلامية» لم يعد يكفي أن يكون الإنسان إسلامياً ليتم التعامل معه، بل مطلوب منه أن يحدّد أهو إخواني أم تبليغي أم سلفي أم صوفي أم جهادي أم تحريري؟ فالأخويات الخاصة أصبحت هي أساس العلاقة الطبيعية وليس مطلق الشهادتين، والسؤال الكبير الذي تحتاج الأمة إلى أن تقف أمامه طويلاً هو: كيف يمكن أن نستعيد الإسلام ويصبح عندنا تصور واحد للفظ «مسلم» ويصبح كافياً في التعريف، وكافياً لنيل حقوق الأخوة العقدية؟ تلك هي أولى المعضلات وأقساها وأصعبها، ناهيك بأن نتحدث عن الحقوق الإنسانية التي هي القاسم المشترك بين البشر باعتبارهم بشراً.

مفهوم الأمة الواحدة أصبح يعني الأمة التي لها تصور الطائفة أو الحزب أو الجماعة ذاته عن الدولة. ولم يعد الموضوع متعلقاً بالشهادتين وأمهات قضايا الإيمان وأداء العبادات المشروعة باعتبارها خطاً فاصلاً بين الكفر والإيمان، بل أصبح السقف متعلقاً بشيء أكبر، مَنْ لَم يبلُغه احتاج إلى مراجعة إيمانه بل إعادة النطق بالشهادتين كما بيّن سيد قطب في كتاب **المعالم**: «إنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة ـ حتى لو

كانوا يدعون أنفسهم مسلمين...» (**معالم في الطريق**، ص٦).

ومع تنوّع الجماعات وتنوع برامجها وتصوراتها عن الشكل الذي تأخذه الدولة عندما تصبح مؤمنة بفكرة الحاكمية كما شرحها المودودي وسيّد، أصبح الصراع بين هذه الجماعات شرساً، وبينها وبين غيرها من المسلمين الذين لا يرون رؤيتها مريراً، فوُلدت مُسمّيات المسلم والإسلامي والآخر المناوئ. فالمسلم هو الإنسان العادي الذي يريد الجميع كسبه لصفهم باعتباره مادة خام سُيعاد تشكيلها بعد أن ينتظم في الطائفة أو الجماعة أو الحزب، ومن ينتمي إليهم أو يتبنى تصوراتهم هو الإسلامي.

اتسعت الشقة بين الفريقين: المسلم والإسلامي باطراد، ولم يعد الناس يفهمون سبب هذا التشدد ولا ما هو المطلوب على وجه التحديد. ومع حالة التدافع كانت الجماعات الإسلامية تزداد إغراقاً في تصليب بنيتها التنظيمية، فأصبحت النصوص التي وردت في جماعة المسلمين الكبرى أو الأمة تُستدعى باعتبار أن محل تنزلها هو هذه التجمعات التي تختزن الإسلام الحق، ومع وفرة الآيات القرآنية على تعدد سياقاتها ووفرة النصوص الحديثية بمختلف درجات صحتها، أصبحت النصوص، مثل: الفرقة الناجية، ونصوص مفارقة الجماعة، ونصوص وجوب البيعة، ونصوص طاعة الإمام، وقل ذلك عن آيات الولاء والبراء والمفاصلة تحتل مكاناً كبيراً في تكييف علاقات الجماعة مع أفرادها وعلاقتها بمحيطها.

وأصبح السؤال: كيف يمكن إرجاع الأمور إلى نصابها؛ حيث يصبح الإسلام بالشهادتين وأداء الفروض واجتناب

النواهي كافياً لنيل أخوة الإسلام؟ وأن تصبح تلك التصوّرات عن الإسلام اجتهادات أو أثراً للدين وليست ذاته، فهي برنامج وتصور مقترح وليس ديناً مُنزّلاً يفصل بين جموع المؤمنين.

تلك حالة مطلوبة، وصعوبتها في أن توليد مثل هذه الحالة يعني نفض الغبار الذي تراكم عبر مئات السنين، وصلّبته الاستدعاءات العشوائية للنصوص التي حوّلت ما هو عام للمسلمين إلى خاص بالطوائف، ثم الفرق الاعتقادية، ثم المذاهب، وأخيراً بالأحزاب والجماعات، فكل آية أو حديث وردت في المؤمنين تترجمها العقلية الإقصائية المتشظية إلى شيء يخص أفراد التنظيم، وتضيق في أحيان كثيرة حتى تقتصر على بعض الخواص منهم.

تخليص العقل العام والعقل الحزبي والأيديولوجي الذي صنعته نظرية كل طائفة وكل حزب من فكرة الاصطفاء والخصوصية لفكر الإسلام الواحد... مهمة كبرى في هذه المرحلة، وما أشقها من مهمة!

٢ ـ تطوير فكرة الاختلاف

الاختلاف سُنّة ربانية، الجميع يقول ذلك ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، وحين ننظر إلى الاختلاف كمفهوم، أي كتجريد عقلي، فكرة في الذهن، مفهوم واضح المعنى.

فمفهوم «المختلف» تأتي بمعنى عدم التماثل، أو الشيء

الذي يتم به تمييز الفرق. وفي الواقع الخارجي يستعمله الإنسان فيعرف أن وجهة نظره ليست متطابقة مع آخرين، أو أن لونه أو ملبسه ليس متماثلاً مع الآخرين. فالخلاصة، أنه لا يصعب على الإنسان فهم المعنى اللفظي للخلاف، وبعضٌ يتحاذق ليقول لك: هناك فارق بين الخلاف والاختلاف، فالخلاف أمر طبيعي والاختلاف قدر زائد فيه شحناء وتباغض، باعتبار أن زيادة المبنى في كلمة اختلاف تفيد زيادة المعنى، والتي تعطيها كلمة خلاف. كل ذلك ليس مقصودنا، والحقيقة أن الناس تتدافع في كل المجالات في العلم والسياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر مناحي الحياة، ولا تجد غضاضة في ذلك وهو أمر طبيعي.

ولكن ما هو غير الطبيعي ويثير الفزع هو طرق تدبير الاختلاف، ماذا يحدث عندما نصل إلى مناطق تبدو مسدودة؟

إن الغربي والشرقي اللذان يعتقدان أن حياتهما الدنيوية هما المسؤولان عنها، وهما من يديراها، من السهل عليهما أن يجدا آلية لتدبير الاختلاف، فهناك الحوارات والتصويت والاقتراع العام أو الخاص بحسب القضية، ويتجه الجميع إلى ما نتج منه، أي رأي المجموع. ولكن ماذا لو كان كل شيء محكوماً بالدين؟ كل شيء تُستدعى له نصوص ويُعطى طابعاً دينياً؟ هنا ينشأ احتمالان: إما أن يكون النص الديني نصاً مغلقاً، أي قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، وبالتالي يقف الإنسان أمام مسارات القبول أو الرفض، فإن قبل فلا مشكلة، وإن رفض فهو خارج عن جموع المؤمنين بعُلوية النص، إلا إن لم يوجّه

اعتراضه إلى النص ولكن إلى الواقع ومقتضياته بحكم الضرورات وذلك ما يحدث عادة. ولكن ماذا لو أن الضرورة لها صفة الديمومة أو طول الأمد كما هو الحال في كثير من مستجدّات العصر؟ فقد أباح بعضٌ التصوير باعتباره ضرورة لعمل تصاريح المرور من الموانئ وأشباهها، فلما طال العهد وأصبح الواقع كله ضرورة توقف الحديث عن حرمة التصوير.

والحقيقة البسيطة التي يعرفها كل مطّلع على الشريعة أن مساحة النصوص القطعية الثبوت والقطعية الدلالة قليلة بشكل مذهل، وأن معظم نصوص القرآن تقع في دائرة ظنية الدلالة، مما جعل الفقه يتسع باستمرار، وحتى النظرات الاعتقادية، في ما عدا الجمل العامة من الاعتقاد، كانت مثار خلاف عبر تاريخ الإسلام لأنها تقع في دائرة النصوص حمّالة الأوجه.

وفي ضوء هذه المعطيات الموضوعية، سنجد نصوصاً مفتوحة على التأويل، هذا إن صح سندها، وواقعاً متغيراً بشدة، ووسيطاً إنسانياً متنوع القدرات العقلية يفسر ويوازن بين مقتضيات النص ومقتضيات الواقع، ومن هنا فلا مناصّ من الاختلاف.

ويسارع بعضٌ ليتخلّص من الموقف بحيلة بلاغية: «الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية» وتلك أمنية، ولكن بالنظر عبر العصور المختلفة، ومنذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، بل في الخمسين سنة الأولى من وفاته عليه الصلاة والسلام، ماذا كانت نتائج الاختلاف؟ وهل أفسدت للود قضية أم شُهرت السيوف وسالت الدماء؟ وبعدها ماذا حدث في شأن

الاختلاف في قضايا الاعتقاد والفقه والسياسة والتزكية؟ وأي معارك دارت؟

كان من المفترض أن تكون المكتبة الإسلامية قد امتلأت الآن بمصنفات لا حصر لها تنقد الظاهرة تحت عنوان كبير: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، كان النص حاضراً وجاهزاً للتفعيل، وهو نص صريح وواضح. وخطبة الوداع حاضرة قريبة في المتناول: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ونصها صريح وواضح، ولكن مسار الأحداث أخذ طريقاً أخرى، كل خلاف صغير تنشأ له فرقة، وكل فرقة تدعي أنها على الدين الحق وغيرها على الباطل، ثم تنحت مصطلحاتها وأدواتها التي تُشنّع بها على المخالفين.

لم تتحول عندنا قيمة احترام الاختلاف التكويني: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، إلى قيمة كونية إنسانية عامة، وعجزنا حتى عن تطويرها إلى قيمة إسلامية خاصة، لم تعبر من فضاء القيمة لتكون مبدأ حياة، ولم نوجِد آلية تدبير للاختلاف وإجراءات إدارته، ولم نوجد آلية حماية لنظام الاختلاف ورعايته باعتباره أداة تطور المجتمعات ونموها، لا آلية تدميرها وتفتيت وحدتها.

كان من المفترض أن تكون مكتبتنا الإسلامية ملأى بالبحوث التي تجعل لمفهوم الاختلاف عمقاً فلسفياً كونياً وجودياً تأسيسياً في صناعة الحياة، يجعل من التنميط مشكلة لا من الاختلاف، فبالاختلاف ينقدح الرأي وتكتشف فرص الاختراقات المعرفية، وبه يتم تواصل الرقي في الكمالات، ذلك هو الجانب الإيجابي من الاختلاف، ومن منظومات الاختلاف.

كان يجب أن نجعل من الاختلاف مبدأ تطور إنساني، فبه يستمر رقي الإنسان ويتم التحاور بينه وبين غيره، هكذا قدّم القرآن حوار الخالق مع الملائكة ومع الشيطان ومع الإنسان، وحوارات المخلوقات مع بعضها واختلافها وتدافعها وتناقضها، وأقرّ كل ذلك وجعل وجود الشيطان والإنسان والملائكة ممكناً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها على اختلافهم واختلاف طبائعهم، وجعل وجودهم ضرورة لبقاء النظام، فكيف بالإنسان والإنسان؟ وكيف بالمسلم والمسلم؟

نحن ندفع اليوم ثمن الغفلة عن النظر العميق إلى الظواهر البشرية الطبيعية التي تتطلب الاعتراف بالتنوع والاختلاف، وتتطلب الاحتفاء به كوسيلة للتقدم، وتتطلب بحثه فلسفياً وجعله جزءاً تكوينياً أساسياً في عقلية المجتمع، وتضع له الآليات الإجرائية والسياسات العامة وتقوده ليصبح مثمراً بدلاً من مصادرته وقمعه ووقف تطور المجتمع الإنساني والمسلم.

إنّ النتائج المترتبة على عدم الوضوح في مفهوم الاختلاف كارثية، فهي تعني أن هناك باستمرار أحداً يعتقد أنه يمتلك الحقيقة كاملة، ومن حقه أن يصادر بقية الآراء وأن يقسر الخلق على مراده، وأن ينكر عليهم الحق في أن يختلفوا، وإن قَبِل اشترط أن يكون ذلك ضمن ما يقرره هو وبالسقف الذي وصل إليه، والفارق كبير بين تنظيم الاختلاف وقتله ومصادرته. فتنظيم الاختلاف ممكن، ومصادرته مقدمة التكفير والتفسيق والتبديع واستباحة الدماء والأعراض، والتاريخ خير شاهد على ذلك، فهل لنا من عبرة؟

علامة سلامة فكرة الاختلاف في الأمة هو تحوُّلها إلى قيمة يسعى الكل لإبرازها، فتتحول من مفهوم سلبي إلى مفهوم إيجابي، من حالة قهر إلى حالة تنوع وتنافس، إن الأمم التي عبرت بفكرة الاختلاف من مفهومها السلبي المدمر إلى مفهومها الإيجابي المثمر، تجاوزت كثيراً من مشاكلها... لأنها أعطت الجميع الحق بأن يتميز عن غيره، وبالتالي، يصبح أكثر إبداعاً عبر توفيرها لآليات تدبير الاختلاف في ظل الحرية.

٣ ـ الإسلام نظام شامل أم منظور شامل؟

شاعت في الأوساط الإسلامية فكرة «الإسلام نظام شامل» فكيف ولدت هذه المقولة؟ وكيف تحوّلت لمسلّمة؟ وما هو واقعها اليوم وما تأثيراتها؟ أسئلة في غاية الأهمية، وهي موضوع حديثنا هنا.

يدخل الإنسان إلى الأجواء الإسلامية فُيقال له: إن الإسلام نظام شامل، فهو عقائد وعبادات وسلوك، وهو سياسة واقتصاد واجتماع وجيش ودفاع، وأن الواقع المتخلّف الذي تراه نتج من غياب النظم الإسلامية عن هذه الفضاءات، وأن مهمتنا ستكون وضع النظم الإسلامية مكان النظم الوافدة أو هكذا يجب أن يكون، وبعد ذلك سترى الفارق.

ثم تُستدعى له إشراقات التاريخ الإسلامي مجتزأة من سياقاتها ليُقال له: إن هؤلاء طبقوها فنجحوا، ونحن تخلينا عنها ففشلنا، وكل ذلك تمهيداً للقول له: بما أن النظم الإسلامية التي نريدها هي الإسلام، فالعمل لها واجب لأنه عمل للإسلام، ثم يتطور الحديث ليقال له: ولكن استعادتها تقتضي عملاً مُنظّماً، والعمل المُنظم واجب لأنه: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، فالتنظيم واجب لغيره، أي لإقامة الدولة التي تطبق النُظم، هكذا يصبح الإنسان إن أراد الإسلام وثمراته ليس له

سبيل إلا الانخراط في هذه التنظيمات وتراتبياتها.

وفكرة أن الإسلام نظام شامل فكرة غائمة، وقد تعني أشياء متعددة، فالمنطق السابق فيه فجوات، فما المقصود بكلمة «نظام» الواردة في العبارة؟ هل يُقصد بها وجود قيم ومبادئ عامة في الإسلام تخصّ المجالات المختلفة أم وجود نُظم محدّدة المعالم بالمعنى الحديث للنُظم؟لنأخذ المجال السياسي مثلاً ونسأل صاحبنا: ما هو النظام الإسلامي السياسي؟

المتوقّع أن يقول لنا: عندنا نظام «الشورى»، وسيسوق لنا قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

تسأله: ما هي مدخلاتها وعملياتها ومخرجاتها ونظام التحكم الذي يضبطها من التوقف أو الاختراق والتلاعب؟ وأين هي المسطرة؟

يقول لك: ليس هناك هذا التفصيل، ولكن الرسول (ﷺ) استشار أهل الحل والعقد، وكذلك فعل أبو بكر ومن بعده. تقول: ولكن هذا كان يحدث في القبيلة العربية قبلها، بل في أغلب الشأن البشري، فأين النظام؟

فالإنسان يستشير زوجه وأهله وأصدقاءه وأهل الرأي، وما دام الأمر غير محدد بأي قيود وضعيّة عرفية أو قانونية محددة المعالم يمكن التحاكم بها وضبط مسار من يخرج عنها، فكلمة نظام المعاصرة لا تنطبق عليها، لأنها تقتضي الثبات والتكرار في الأداء.

يقول لك: يمكن ترتيب فكرة الشورى بهذا الشكل اليوم.

تقول له: أي إنك ستنشئ لها نظاماً لم يكن موجوداً من قبل.

يقول لك: ولم لا!

وتجيبه: ولم لا صحيح، ولكننا بدأنا الحديث من أن هناك نظاماً مستقراً اسمه النظام الإسلامي السياسي!

يقول لك: لا، لكن هناك مبادئ عامة يمكن الاهتداء بها عند وضع النظام السياسي المعاصر.

ها نحن عدنا إلى نقطة الصفر، وهي أن الموضوع ليس متعلقاً بوجود نظام، ولكن بوجود مبادئ عامة لوضع نظام.

لكن ما الفرق بين وجود نظام الشورى وبين وجود قيمة اسمها الشورى؟

يمكن أن نتخيل لرحلة القيم مساراً استقرائياً من التجربة الغربية، فهناك القيمة المجردة وهي من المستقلات العقلية، كالنظام مثلاً، وهي حالة جنينية للفكرة يستشعرها كل عاقل، وهي حين يركّز عليها العقل ويقلّبها من جميع جوانبها سلباً وإيجاباً ليكتشف سبب وجودها ودرجة أهميتها ومبرر الالتزام بها، تكون قد أخذت بعداً فلسفياً عميقاً يسمح لها بالانتشار الثقافي، ويسمح للجماهير بالتواصل معها والانحياز لها، وهذا ما يؤهل المجتمع لتحويلها إلى مبدأ مثل: «سنقوم بتنظيم كل شيء ولن نقبل بالفوضى»، فإن تمّ ذلك أصبح سؤال الإجراءات العملية التي تتحقق النتيجة بها حاضراً، يليه سؤال: كيف يمكن معرفة درجة الالتزام بالنظام وما هي الإجراءات التي تتم حيال من يخالف النظام؟ هي إذاً، حلقات تتكامل لتنتقل بها القيمة من المجرد

العقلي إلى الواقع الاجتماعي، وهو ما نجحت فيه كثير من الأمم حتى اليوم ولم ننجح فيه نحن كمجتمعات، وبقيت معظم القيم أجنّة لم يكتب لها النماء، واستخدمت في سياق التمدُح التاريخي لا في سياق الواقع الاجتماعي القائم.

فالفارق كبير بين وجود القيمة المجردة في الذهن وبين تجسيدها في الواقع الاجتماعي، فلو أخذنا الشورى كمفهوم مجرد، فالخطوة الأولى باستمرار هي ورود المفهوم على الذهن، فكلمة شورى تعني طرح الموضوع المُعيّن على آخرين وقدح زناد أفكارهم لاتخاذ قرار بشأن هذا الموضوع، وهي بهذا المعنى واضحة وربما يعملها الناس فطرة عند الحاجة، ولكنها عندما تقال في سياقات القرآن يُقصد بها ما هو أكبر لأنها مرتبطة بكلمة (أمرهم)، وبالتالي هي تخص ما يؤثر في الفضاء العام من قرارات أو بلغة معاصرة القرار السياسي، ومنها اشتق مصطلح «أولي الأمر».

والاستشارة في الأمر السياسي أمر درج عليه البشر فمن ملكة سبأ: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، حتى اليونان والرومان والمغول، ناهيك بالقبائل والشأن البشري عامة. فهو بهذا المعنى حاجة بشرية وتتم بطرق مختلفة، ولكن عبورها لتصبح نظاماً بالمعنى المعاصر وتأخذ شكلاً قانونياً فهذا أمر آخر، فكأنك تقول: صاحب دكان العطارة القديم يبيع ويشتري، والشركات العابرة للقارات تبيع وتشتري فهما متماثلان. ولكن النظام في الحالتين مختلف؛ ففي دكان العطارة المالك واحد فلا تعقيد في اتخاذ القرار ولا إلزام، ولكن في الشركات العابرة للقارات هناك مجالس الإدارات، وهناك العلاقات الدولية،

وهناك القوانين الدولية، وهناك المُلاك المختلفون، وبالتالي فتعقيد النظام عالٍ، والتشابه بينهما في أن هدف هذا الربح وهدف هذا الربح تشبيه مع الفارق.

فالشورى باعتبارها حاجة فطرية غير مُقننة شيء وتحوّلها إلى نظام مُقنّن شيء آخر؛ فالقيم تعبر من فضاء التجريد العقلي إلى مجرد الوعي بأهميتها، ولكن في أي درجات الأهمية تقع: أهي ضرورة وجود للمجتمع ـ فالمجتمع في خطر من خسارة وجوده المادي أو دخوله في حروب وفي ضوائق اقتصادية يقوده إليها الاستبداد بالرأي ـ، أم أنها أمر تحسيني وجد أم لم يوجد فالأمر سيان؟

حين ننظر إلى النقاشات التي أخذت شكلاً قانونياً في الفضاء الديني وتستدعي النص الديني والحادثة التاريخية للقول بالوجوب أو الندب أو الإباحة أو الكراهة أو التحريم، نجدها وصلت إلى قولين كلاهما شرعي ومدلل عليه، فهي عند بعض مُلزمة، وعند بعضٍ مُعلمة، وبالتالي من أخذ بها أخذ بقولٍ شرعي مُعتبر ومن تركها فقد أخذ بقول شرعي مُعتبر. وبما أنه أسهل لولي الأمر أن يأخذ بعدم إلزاميتها بقيت قيمة الشورى في فضائها النظري التصوري من دون مصاديق مُنظّمة على الأرض عبر التاريخ الإسلامي شيئاً للتمدح، أو قيمة جنينية تنتظر من يطعمها لتنمو.

ولكن البشرية قادتها في حواراتها الفلسفية من مستوى الفكرة النظرية إلى الفكرة الفلسفية، فبحثت في علاقة الحاكم بالشعب، وفي وضعية رأي الشعب بالنسبة إلى القضايا العامة، وانتهت فلسفياً إلى أن الشعب هو مصدر السلطات، وأن الحاكم

ليس ظلَّ الله في الأرض، بل هو ممثِّل للشعب، وعليه أن يستشيرهم في الأمر كضرورة وجود للمجتمع.

كل هذا النقاش الفلسفي جعل موضوع الشورى وجوهرها يعني أن كل ما يخص الجماهير لا يستقل فرد بتقريره، بل الأمر يعود إلى المجموع والتوافق. فالبحث الفلسفي المعمّق جعله في مستوى الضروريات الوجودية للمجتمع، وبالتالي هو ليس أمراً اختيارياً للحاكم إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل.

عند هذه النقطة يبدأ السؤال عن الآليات والإجراءات، وبعد وضعها يُطرح سؤال المحافظة عليها، أي كيف تُصان من الإلغاء أو التحايل، ثم توضع موضع التنفيذ وتطوّر بالممارسة.

ها نحن نرى أن محطات الرحلة كثيرة، والرحلة طويلة بين الفكرة المجردة والفكرة المُفعّلة، فكي يتحوّل نظام الشورى السياسي إلى نظام لا بد من أن يخرج من مستوى الفكرة المجردة للبحث الفلسفي العميق، ثم لينتقل بعدها إلى مبدأ حياة، ثم يتحوّل إلى آليات وإجراءات ثم إلى آلية حماية، ثم يتطور مع التجربة. فكم قطعت فكرة الشورى عندنا من هذه المراحل عبر الزمن؟ وأين بقيت عالقة؟

ونحن حين ننظر إلى القيم التي نعزوها إلى الإسلام، كالنظام والنظافة والحرية والعدالة وغيرها، سنجد أغلبها عالق في فضاء الفكرة، ولم ينتقل إلى الخطوات بعدها، ووظيفته في عصرنا وظيفة استرجاعية وقائية من انهيار الذات أمام تطور البشرية؛ فحين يسألنا أحد عن نظافة شوارعنا وسلوكيات النظافة العامة عندنا في بلاد الإسلام نقول له: كانت قرطبة لها شوارع

نظيفة، والإسلام حثّ على النظافة، ثم نذكر نصوصاً تدلل على ما نقول، ثم ننام مرتاحي الضمير. ها نحن أثبتنا أننا خير منهم، كل شيء عندنا ولكننا لا نطبق، ولا نسأل أنفسنا بالضبط ما الذي عندنا وما الذي قلناه؟ كل الرحلة التي ذكرناها نجيب عنها بذكر القيمة والتدليل عليها بنص، ثم ذكر حادثة تاريخية استثنائية عن وجودها في يوم ما ومكان ما، هكذا دُربت العقلية التي أنتجناها.

هكذا تصل الحركات الإسلامية والأفراد المسلمون إلى السلطة نضالاً أو بفعل الأحداث، ثم تجد نفسها فارغة اليدين من النظم، بل حتى من استعداد المجتمع لتطبيق القليل من النظم، فلا الحفر المعرفي الفلسفي أُنجز، ولا الانتشار الثقافي الاجتماعي المهيّئ للنضال من أجل القيمة تم، ولا النظام موجود، وتمضي السنوات كما هي، ونحن نقول: الإسلام نظام شامل من دون أن نعي أن الوصول بالفكر إلى مرحلة نظام هو ابن عمل شاق، وليس نصّاً أو فكرة مجردة أو حادثة تاريخية معزولة من سياق.

إن ما نمتلكه ببساطة، منظومة قيم ونصوصاً توجيهية كبرى في مواجهة الواقع العملي، وهي تشكّل منظوراً شاملاً، ولكنها لا تشكّل نُظماً في وضعيتها الخام؛ فالنظام ابن رحلة طويلة من العمل، وفي هذا السباق تأخرنا كثيراً، ولكن نقطة البدء هي الاعتراف بأن لدينا منظوراً شاملاً وليس نظاماً شاملاً. فالإسلام من حيث هو دين تحدث عن الاعتقاد ففصّل، وربط الدنيا بالآخرة، فطرح ثلاثية: الغيب والإنسان والعمل الصالح، وهو منظور تدعمه منظومات عبادية وظيفتها ربط المخلوق ببعدين:

بُعدٌ مرتبط بالسماء، وبُعدٌ مرتبط بالأرض وإعمارها. فالإيمان والعبادة الصرفة توجه إلى السماء، والعمل الصالح والسعي في الأرض متجه إلى الأرض بالفعل، وقاصداً لله بالنية، وفي فضاء الاعتقاد والعبادة تفصيل نصوصي كبير، ولكن كلما اتجهنا إلى فعل الإنسان في الأرض نجد أن التفصيل يقل، فيجعل الأصل الإباحة والمحرمات استثناء، ويجعل النص مفتوحاً على الاجتهاد والنظر ليتسع لتطورات الإنسان ونموه.

٤ ـ التمكن من المجتمع أم تمكين المجتمع

مع فكرة أن الإسلام «نظام شامل» ولدت فكرة «التنظيم الشامل» وهو موضوع يحتاج إلى فك الالتباس. لقد قلنا: إن الإسلام يقدّم لنا عقائد وعبادات وقيماً ومبادئ، وعلى البشر نحت الشكل الذي ستأخذه في الواقع. وتحدثنا عن رحلة القيم في ما سبق، ولكن التصور الأول أن الإسلام نظام شامل حتى لو أخذناها على ما هي عليه، هل تقود بالضرورة إلى فكرة التنظيم الشامل؟ ولماذا التنظيم الشامل؟

حين ننظر إلى السؤال سنجد عدداً من الإجابات المحتملة، فمن الممكن الإيمان بأن الإسلام نظام شامل ولكن التنظيم يتخصص في جانب من جوانب خدمة المجتمع ومن الممكن أن يدعو إلى فكرة شمول الإسلام دعوة ويترك للمجتمع أمر الإيمان بها وتطبيقها، ولكن الفكرة كانت تحتوي بعداً آخر، بعداً مسكوتاً عنه، وهو أن المهمة كاملة سيحملها التنظيم، فهو سيبني نفسه بشكل يجعله قادراً على ملء الدولة في حال بروز الفرصة، وهو أمر أوسع من فكرة حكومة الظلّ، فحكومة الظلّ هي

حكومة تتكون من ذوي الخبرات وتناظر فى العدد والتشكيل الحكومة الرسمية، ودورها يكون في تدارك أخطاء الحكومة القائمة وكشفها وتقديم بديل متكامل للشعب وإشراك المعارضين في حكومة الغد، ولو قارنا بين حكومة الظل وبين التنظيم السري لوجدنا فوارق جوهرية:

	حكومة الظل	التنظيم السري
الشرعية القانونية	مشروعة ومتعارف عليها	غير مشروع وغير متعارف عليه
الهدف	استلام الحكم تداولياً	الانقضاض على الحكم
المآل	ترك السلطة	التحكم في السلطة
الممارسة عند الاستلام	السماح للمنافسين بعملها	منع الآخرين من العمل بالطريقة ذاتها
البنية	معروفة	مجهولة

فهنا التنظيم ذاته هو الحل، وهو من سيُسخّر المجتمع لإنتاج الشكل الذي تَصَوَّرَه للحياة (الإسلامية)، وعلى الرغم من أن الفكرة طوباوية، فلا يمكن تنظيم مهما عظم أن يغطي احتياجات دولة، بل حتى قطاعات منها بكوادره، ولكن مع الأيديولوجيا تختفي الأسئلة، فالموضوع يقوم على التسليم لا على التفكّر، هكذا أصبحت فكرة التنظيم الشامل فكرة حاضرة في الوجدان العام ولدى قطاعات شبابية عريضة، فكرة يُعد التعرض لها تعرض للإسلام ويستدعي استنفار الطاقات كافة لوقف السؤال.

من المفهوم بالنسبة إلى حركة دعوية أن تربي أفرادها، وتدعو المجتمع إلى سد ثغراته والمساهمة في تطويره وبنائه، ولكن أن تأخذ على عاتقها أنها من سيقوم بالمهمة عن المجتمع فذلك كان يجب أن يستدعي نقاشاً مطولاً، فمن الذي يعطي أي فرد في المجتمع المسلم الحق في أن يُنصّب نفسه بديلاً عن المجتمع، يخطط عنه، ويفرض عليه رؤيته، ويبني تنظيماً بديلاً عنه؟

هنا نحتاج إلى أن نغوص في أعمق من مجرد السطح لمعرفة جذور الأفكار، فالفكرة تبدأ من قراءة العالم بالنسبة إلى المنظّر الرئيس في الموضوع، فهو لو قرأ المجتمع على أنه مجتمع لم يعد يُطبّق الإسلام، والإسلام نظام شامل، وأن لا أحد من البشر عاد يفهم أو يتذكّر أن الإسلام نظام شامل، وأنه لا بد من استعادة الدورة التاريخية بتربية الناس (وهم هنا في النهاية أفراد التنظيم أولاً والذين سيربون الناس بعدها) على هذا المفهوم، ومن ثم أخذهم إلى دائرة صنع القرار وإلى مفاصل المجتمع لإعادة الدورة الحضارية مرة أخرى، وهنا ليس المقصود فقط الأفراد بل التنظيم كاملاً باعتباره النواة التي احتفظت بخصائص الرسالة المحمدية الأولى والمؤهلة لتنفيذها، وذلك أن من عداهم غير صالح لذلك، قد يُفاد منه في مرحلة ما، ولكنه لم ينصهر بالفكرة في بوتقة التنظيم الممثّل للرسالة الخالدة.

وهنا يقفز لك متحمس ليقول لك: ولكننا لا نقول نحن «جماعة المسلمين» ولكننا «جماعة من المسلمين»، وتلك مقولة كثيرة الترداد ولكن الواقع التثقيفي للجماعات حين يقدّم نفسه

على أنه الفهم الصحيح للدين وأن غيره هو الفهم القاصر للدين وأنه التمثيل الوسطي المعتدل، يختفي الفارق بين جماعة من المسلمين وجماعة المسلمين. فحين تُستدعى نصوص الولاء والبراء ونصوص الجماعة في أحاديث الرسول (ﷺ) أو في القرآن فالعقل ينصرف إلى التنظيم لا إلى كل المؤمنين، وعندما تأتي فكرة البيعة والمرشد أو الأمير يصبح المشهد مكتملاً، فالخروج من هذه البيعة هو خروج عن ولي الأمر واجب الطاعة، والذئب يأكل من الغنم القاصية، والخروج من هذه الجماعات هو عين التساقط من طريق الدعوة، فطريق الدعوة لن تكون فيه إلا إن كنت مع هذه الجماعة أو تلك، ولذلك ستجد أهم الكتب المتداولة **الطريق إلى جماعة المسلمين** أو كتاب **المتساقطون على طريق الدعوة** معبّراً عن هذا التصور الذي لا يُصرح به ولكنه يُعاش ويُتنفس.

فكرة التنظيم الشامل تقابلها فكرة التنظيم الخادم أو التنظيم الوظيفي الذي لا يمتلك رؤية السيطرة على المجتمع ولا امتلاكه، ولكنه يرى نفسه خادماً للمجتمع يسد ثغرة من ثغراته ويعالج قصوراً ما اعتراه ويدعو غيره إلى سد بقية الثغرات.

هو تنظيم لا يرى نفسه بديلاً عن المجتمع أو وصياً عليه بل يرى نفسه لبنة من لبناته، وذلك هو الوضع الطبيعي لكل مؤسسات المجتمع، فهي خادمة للمجتمع ولا تسعى للسيطرة عليه بما فيها الأحزاب السياسية فهي تأتي وتذهب، ذلك في صميم فكرة التداول. ولكن التنظيمات الشمولية عقلها الباطن يقول: «جئنا لنبقى»، هذا ما يفعله أي حزب شمولي تقوده أيديولوجيا مغلقة؛ فالخميني مثلاً كان على درجة من البراغماتية

حين قبل بالحسن بني صدر وغيره في مرحلة ما، ولكن خط الفعل ينتهي باستمرار لغلبة الأيديولوجي على الموضوعي، وبالتالي احتكار السلطة أو تفريغها من معناها.

تلك هي المعضلة التي رآها الآخر وتجعله يستميت في حربه على التنظيمات، ولكن الأخيرة تعجز في أحيان كثيرة عن رؤية عمق المشكل الذي وقعت وأوقعت المجتمع فيه.

يكمن الحل للخروج من هذه الأزمة في تغيير فلسفة قيام هذه التنظيمات من أساسها، إنها تحتاج إلى فهم المجتمع أولاً قبل أن تعمل من أجله، لأنها تحتاج إلى أن تعرف أن المجتمعات لا يمكن التحكم بها إلا بالقوة والإكراه، ولو تم ذلك فهو قصير الأمد قليل النفع يرتد وينتكس حين يجد الناس الطريق لفك أسرهم. وبهذا النمط من التفكير تتحول الحركة إلى منظومة مستبدة حتى وإن كانت على حق، فليس الهدف من وجود التنظيمات هو التحكم بالمجتمع، بل خدمته من خلال ما ترى نفسها أنها قادرة على تطويره والإضافة إليه... كل ذلك يكمن في فهم الفرق بين مفهومين أساسيين... **الهيمنة** على المجتمع أم **تطويره وتمكينه**.

٥ ـ مهمة الدين: السيطرة أم البلاغ؟

في القرآن آيات كثيرة يخاطب الخالق بها رسوله (ﷺ) ليقول له: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وآيات كثيرة تعطي الناس حق الاختيار: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، ﴿فَمَن شَآءَ

فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]... وهكذا... للحظة يبدو هذا كافياً فلا سيطرة في الإسلام، وهو دين يعرض نفسه على البشر بالحسنى، فإن قبلوا فذلك خير وإن رفضوا فحسابهم على الله.

ولكنّ شخصاً يفاجئك معترضاً: ألم يقل الرسول: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي»، ولا يهم أن الحديث معلول باثنين من رواته، فصاحبنا سيسترسل ليقول لك: هناك آيات ذُكر فيها الحكم: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

فتقول له: تعني اقضِ بينهم وهي غير قضية الحكم.

فيقول لك: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

فتقول له: هذه أيضاً بمعنى القضاء.

فيقول لك: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

تقول: هذه بحكم مقام الرسول حينها كحاكم، وليس بمقتضى الرسالة للتوضيح فالأنبياء ليسوا بالضرورة حكاماً، فوظيفة النبي تطبيق الأحكام، أما وظيفة الحكم فهي تدبير شأن الخلق حرباً وسلماً، وهذا قد يكون في ذات الشخص كما في الأنبياء الملوك، داود وسليمان، وقد لا يكون كالنبي الذي عاش

في فترة طالوت فاحتاج الناس إلى ملك يقودهم في الحرب، فالفارق بين المهمتين ضروري في هذا المقام، فالرسالة قد تنفصل عن الحكم بمعنى سياسة الدولة.

فيقول لك: ولكن الرسول حارب المشركين، وآيات القتال كثيرة.

فتقول له: ذلك حين يعتدي أحد عليك فمن الطبيعي أن تقاتله لرد عدوانه.

فيقول لك: هل نسمح للناس بالكفر أو بالخروج من الدين؟

فتقول له: هم وشأنهم، فإجبارهم على الدين وهم له كارهون يجعلهم منافقين: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، وهؤلاء أشد عذاباً من الكفار.

يقول لك: ولكن أين حد الردة؟

فتقول له: الدليل فيه ليس مستقراً لا سنداً ولا متناً، وليس في القرآن في مقابل الكفر عذاب دنيوي بل كله في الآخرة.

هكذا يستمر الجدل ولا يصل أي من الطرفين إلى شيء، ولكن القضية الكبرى تبقى معلقة، فهل الدين بلاغ ودعوة أم هو قسر وإكراه؟ ومترتبات هذا الاختيار كبيرة وخطيرة.

في البرازيل تدعو الحكومة كل أصحاب الأديان إلى أن يقدموا كتباً معبّرة عن أديانهم، وأن يدرّسوها لطلاب المدارس، وحجتها أن ذلك يوفر للطلاب فرصة اختيار دينهم، هكذا يُحتفى بالتنوع الثقافي في البرازيل. ولكن السؤال ليس عن التنوع

الثقافي في البرازيل، بل يمكن طرحه كالآتي: حين تتوفر فرصة توصيل نور الله للعالمين من حكومة ما، ويُترك لكل أهل ملة أن يُقيموا شعائرهم ويتقاضون لما يرتضونه في دينهم، وأن يدعوا من يشاؤون إلى دينهم ليدخل فيه، ما مبرر فكرة ورغبة السيطرة على الآخرين أو قتالهم؟

ما الذي ينقص المسلم الإنكليزي أو الأمريكي من دينه بحيث يُحرم من الجنة ورضوان الله لو توفرت له كل هذه الميزات على قدم سواء مع غيره من البشر ومارس دينه ودعوته؟

يعود صاحبنا ليقول: أين الحدود؟ قطع يد السارق، ورجم الزاني المحصن، وقتل المرتد؟

تقول له: كل ذلك موضوعه الفقه، والناس بين مضيّق وموسّع، وهي جزء من الفقه لا ينفصل. ماذا لو أوجد لها الفقه الإسلامي حلاً، هل هذا كافٍ؟

يقول لك: لا، لا نريد متساهلين.

ها نحن نقف أمام المشكل الذي يواجه الحالة الإسلامية ويعوق تقدمها، فكم تُشكل الحدود من كل منظومة الدين؟ وكيف يصبح ما هو استثناء حاكماً وداعياً إلى وقف الحالة الطبيعية التي تشكّل النسبة الأكبر من الدين، الذي يقوم على قاعدة الدعوة والبلاغ، فتحوّل بفعل تصوّرات بعض إلى صورة رجل شاهرٍ سيفه في وجوه الخلق يرتزق من القتل، ثم أُلصقت هذه الصورة بالرسول الذي يقول فيه القرآن: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، التي يسارع المسلمون للاحتماء بها في رمضاء الإعلام الذي يصفهم بالإرهاب وحبّ القتل

والدماء، ولكن بعض منظومات التدين الداخلية ـ وليس الدين ـ هي التي تعيد التشديد على أن الإسلام جاء شاهراً سيفه مشيراً إلى عنقه بأنه جاء للبشرية بالذبح، وهي في ذلك لا تعتني بسياق الحادثة أو بمقصودها، بل تجعلها فلسفة الدين وروحه، بل تطبق ذلك في كل مكان تصل إليه.

إن تحديد الموقف العميق من الدين وروحه، والإجابة عن سؤال: هل يأتي الدين في سياق الاختيار الطوعي ـ فوظيفة المسلم البلاغ المبين ـ أم يأتي في سياق السيطرة وجمع الغنائم في الحرب والسلم، فتصبح وظيفة الدين جذب المقاتلين الذين يعيشون من القتال؟

هل مطلوب من الدين أن يُخلّى بينه وبين الإنسان ليبلغه الدين أو يخلى بين المتدينين والبشر ليسيطروا عليهم ويخضعوهم؟

موضوع العنف الذي يستخدمه بعض بحجة الجهاد: هل فكرته وجوهره يقومان على رد عدوان الآخر ـ فحيثما توقف العدوان انتفت مشروعية القتال وبدأت الدعوة ـ، أم أن الموضوع متعلق بهدنة لمعاودة فتح بلاد العالمين بالسيف؟ وإن أي هدنة لا تدوم إلا عشر سنوات ثم يبدأ القتال مرة أخرى؟

كل هذا مُثار حتى اليوم في نقاشات جهاد الدفع وجهاد الطلب، فجهاد الطلب عند فصيل من المعاصرين اليوم يتم تناوله كما في كتب الفقه القديمة كأن شيئاً لم يحدث في العالم، لينتهي التحليل بأن توقفنا اليوم نتيجة لضعفنا، ولكن حالما نتمكّن فليبشر العالم بزحفنا لنجعل الآخر خاضعاً لسلطان هؤلاء باسم الدين، ولن يجدي البشرية أن تقول لنا: تفضلوا وادعوا

الناس فمن شاء الدخول إلى دينكم فهو اختياره، لا شيء يوقف عملية السيطرة سوى الإسلام وليس دون القتل سوى دفع الجزية.

٦ ـ العالم دار دعوة أم دار حرب

المنظور السابق قاد إلى تداعيات كبرى في العقل المسلم، بتقسيم الفقيه المسلم القديم لبلاد البشر إلى دار حرب ودار إسلام. وقال بعضهم: وهناك دار العهد التي صولح أهلها على أن تبقى الأرض لهم ويدفعوا في مقابلها جزية ودار عهد غير حربية، وهناك الدار المركّبة وهي دار إسلام تغير حالها كمعظم بلاد المسلمين اليوم فلم تعد تطبق الإسلام كما هو وإن بقيت على أجزاء كبيرة منه. وانشغل الفقيه بتعريف مفهوم دار الإسلام ودار الحرب، وطور بعضٌ في موضوع أحكام الديار ليقول: إن ديار الإسلام متفاوتة في اعتبارها دار إسلام... واختلفوا بأي اعتبار ستعد دار إسلام أو دار كفر... فهل يكفي فيها إقامة الشعائر لتعد دار إسلام أم يلزم تطبيق الإسلام كله فيها؟

ولو صحت هذه التقسيمات في عصور سابقة؛ حيث حرية الدعوة مفقودة وحرية الاعتقاد مفقودة وحرية التعبد مفقودة، وحيث كان الأصل في العلاقات الدولية الحرب والغزو، فبأي مسوّغ يستمر تداولها في هذا العصر؟

إن الموضوع يدور حول الموضوع السابق وجوهره، هل فلسفة الدين تقوم على أن السلم والدعوة والبلاغ هي أساس الدين، وأنها لما تأمنت انتفت مبررات العدوان، وما عدا ذلك هو الاستثناء فتعالج كل حالة بحالتها أم العكس؟

وجوهر كل هذه الاضطرابات يكمن في سؤال جوهري: هل إقامة الحرب سببها الكفر أم سببها العدوان ومنع الدعوة والدخول في الدين؟

شاب يسأل:

ألم يقل القرآن على لسان إبراهيم ومن معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]. لم قال: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ ولم يقل: «حتى تتوقفوا عن العدوان»، أرجو توضيحها فهذا أمر حاسم في حياتي؟

كيف سيقرر هذا الشاب وأمثاله مواجهة هذا السؤال؟

هو إما يستنتج منها مباشرة أن سبب الحرب هو الكفر فيقرر أن علاقته بالعالم تقوم على العداوة والبغضاء حتى يخضع البشر إلى منطقه الإيماني ومعتقداته... وهو ما يقود إلى فكر التكفير والعنف... أو ينظر إلى مجمل النسق القرآني ليستبين معناها!

فأول الأسئلة هل وردت الآية في دائرة العقائد أم دائرة الحقائق أم دائرة الحقوق... فلو نظرنا إلى موقعها في القرآن لوجدناها متمركزة بين آيات القتال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم

بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٩].

ها هو المشهد الذي لم يستطع هذا الشاب أن يراه، فالنص واضح في سياقه وغامض لو اقتُطع منه؛ فهو في سياقه يتكلم عن حالة الحرب والعدوان التي يشنها الآخر على المسلم مع كل صنوف الأذى، وعندها فمن الطبيعي أن يبادله المسلم البغضاء والعداوة والقتال حتى يوقف عدوانه، وحين ينتهي العدوان يقوم سوق الدعوة على رجاء الوصول إلى الإيمان. . . وبغضاء المؤمن للكفر باقية. . . أما القتال والمقاطعة فينتهيان إلى الحالة الطبيعية وقوامها البر والقسط، أي دائرة الحقوق في السلم. . .

أما بغير هذا النسق فيصبح القرآن معارضاً بعضه بعضاً؛ فمرة يطالب بالعداوة والبغضاء حتى حصول الإيمان ومرة يطالب بالبر والقسط مع بقائهم على دينهم!

فلو كان المطلوب قتال الناس حتى الإيمان لما أقر أهل الكتاب على دياناتهم، ولما صولح غيرهم على دفع الجزية... ولكن الفكر المتذرّر لا يؤمن بالنسق!

إن ارتباك العقل المسلم أمام هذه القضايا مُفزع، وآثار الاضطراب فيها مُدمّرة للإسلام والمسلمين، وآثار ذلك ظاهرة اليوم وتزداد ظهوراً مع الزمن. إن دار الإسلام لا تُعرف بالتخوم، ولكن تعرف كما قال أبو علي الجبائي حين سُئل عن دار الإسلام: «دار الإسلام حيث أقيم شعيرتي وأقول رأيي غير خائف»، قيل: فبغداد ليست دار إسلام على ذلك. قال: «فليكن» إنه يقول إن دار الإسلام حالة وليست رقعة أرض، تلك هي حقيقة الدين، فحيث وجد الأمن والأمان وأمكن تبليغ الدين وممارسته من غير ضغوط وجد الإسلام وداره، وهي مساحة متسعة للنضال من أجل مطلب يتمناه كل إنسان تستوعب تطورات هذا العصر وتغيّراته.

٧ ـ هلاك العالم أم هداية العالم

وعلى تخوم تلك الفكرة التي لا تجعل البشر محل دعوة وبلاغ، تقوم قاعدة: «من ليس معنا فهو ضدنا». ويدعو الخطيب على منبره: «اللهم أهلك اليهود والنصارى والهندوس عبّاد البقر والبوذيين عبّاد الوثن والفسقة والظلمة واجعلهم ونساءهم غنيمة للمسلمين» «هولوكوست كوني»، دمار شامل لكل البشر، يختلط

فيه الغضب من وقائع قائمة إلى شعور بالمهانة الحضارية والاحتلال، إلى خيبات الأمل من فشل عملية النهوض الداخلي، إلى إدانة العالم وتحميله المسؤولية، لتلبيس كل ذلك نصوصاً وآيات تُقتطع من سياقاتها، لاستدعاء فتاوى بنت سياقاتها أيضاً، ويتكون من ذلك خليط يُعبّر عن نفسه بأنه الإسلام، وينتهي كل ذلك بالدعاء بالهلاك على كل البشر باستثناء فئة غير محددة أو محددة بحسب ضيق أو اتساع أفق الخطيب عمن تشملهم رعاية الإسلام، أو من يمثّلون الإسلام الحق، ولكل تعريفه الخاص عنهم بحسب ميوله وانتماءاته.

إن منبع كل ذلك واحد، وهو أصل الدين دعوة أم سيطرة؟ بلاغ وبيان أم هيمنة وسلطان؟

لا مناص من الإجابة عن هذا السؤال بشفافية ووضوح لأن مترتباته كبيرة، أمّا قول القائل: دعونا نتفق على أنّ صدّ العدوان أو جهاد الدفع هو القدر المشترك بين الجميع، ثم حين ننتهي من ذلك نفكر في جهاد الطلب، فهو قول غير أخلاقي، وإن كان يبدو حلاً وسطاً لردم الهوة بين «المتشددين» وبين «المعتدلين»! وسبب عدم أخلاقيته أنه لا يقطع مع فكرة الاعتداء ولا يقولها صريحة: إن الدين بلاغ وليس سيف، وإن جوهره البلاغ وفلسفته البلاغ والرحمة للعالمين، وإن السيف فيه استثناء وحالة اضطرار:

- ✓ إمّا لفتح حرية الاختيار للبشر.
- ✓ أو لرفع الظلم عن المستضعفين.
- ✓ أو لدفع ظالم معتدٍ ولا شيء غير ذلك.

وهي قضايا أصبحت من مستقرات البشرية اليوم على الأقل في الإطار النظري والتصوري وليست خاصة بالمسلمين.

> نزل الوحي بمهمة أساسية، وهي تصحيح عقائد الناس، وتحسين أخلاقهم وتعاملاتهم، فهو من جهة يصحح علاقة العبد بربه من خلال التوحيد، ومن جهة أخرى يصحح علاقة البشر بعضهم ببعض من خلال الحثّ على إقامة العدل وأداء الأمانة والتزام الأخلاق الكريمة. وبذلك يمكن القول: إن وظيفة الدين الأساسية واضحة المعالم ورسالته بيّنة الأركان، أما في الحالات الاستثنائية والتي يمكن أن نطلق عليها وظائف لحظية للدين فتكمن في الدفاع عند حالة الاعتداء، وكفّ أذى الظالم عن المظلوم، من هنا كانت آيات رد المعتدين لحالات معينة وليست كأوامر مطلقة بالقتال.
>
> فالحالة العامة والأساسية للدين تكمن في فكرة التوحيد والقيم الكبرى التي دعا إليها الإسلام، والاستثناءات (كرد المعتدي وإقامة الحدود على المخالفين) لها سياقاتها التي ما إن تنتهي حتى يعود المسلمون إلى دورهم الأساس... دعوة الناس إلى الإيمان بالله، وعمل الخير في الدنيا والتنافس لإعمار الأرض والفوز بنعيم الآخرة.

٨ ـ سؤال الدولة

مقدمة

الشباب المسلم يسكنه حلم الدولة الإسلامية: شيء كامل، مجتمع كامل يتحرك وفق مقررات الشريعة الإسلامية، مجتمع الصلاح الذي سيعيد كل شيء كما كان في الماضي، مجتمع مثالي، خلافة إسلامية، أستاذية العالم، استعادة ما أُخذ من بلاد الإسلام، إخضاع العالم، فتح العالم، ولكن كل شيء يبدأ من إنشاء الدولة... في لحظة ما أفغانستان هي الدولة، يتم شدّ الرحال إليها وتصرف الأموال ويجيش الشباب، وينتهي الأمر إلى مأساة، المجاهدون يقتتلون... الشباب في المعتقلات وفي غوانتنامو.

لا . . . الدولة ستقوم في البوسنه والهرسك، شدوا الرحال إلى هناك وأقيموا. . . لا شيء مرة أخرى الشباب الإسلامي مطارد. . . لا الدولة ستقوم في الشيشان. . . شدوا الرحال إلى الشيشان. . . دمار شامل. . . لا . . . الجزائر هي الحل. . . لا السودان هو الحل. . . لا الصومال هي الحل. . . لا مالي هي الحل. . . أخيراً مصر هي الحل. . . ذاكرة قصيرة تنسى، ولكن الحلم حاضر وسؤال الدولة حاضر، وهو يُنتج المشكلة ذاتها والنتائج ذاتها كل مرة، شيء ما يحتاج إلى مزيد من التفكير!

يُعد سؤال الدولة وعلاقتها بالدين من أعقد الأسئلة في المجتمعات الإسلامية اليوم، فنظرة واحدة إلى ما حدث في مصر؛ حيث عبّرت ثورة يناير عن مطالب بسيطة: «عيش وحرية وكرامة وعدالة اجتماعية» كان من الممكن أن يشكّل البوصلة، ومع اتفاق الناس على هوية الدولة العربية والإسلامية ومرجعية الشريعة الإسلامية كان يبدو المشهد مهيئاً لتوافق وطني واسع، ولكن الهاجس الديني كان ملحّاً حول إمكانية سيطرة التيار الإسلامي على كامل المجتمع بدعوى حرمان العلمانيين من تلك السيطرة، وبضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية، فتمت الإشارة إلى قضايا أيقظت هواجس يخافها المجتمع ليست عن الدين ولكن عن جرعة الدين التي يُراد حقن المجتمع بها، وكانت ردود الأفعال متوقّعة، وانتهى المشهد إلى كارثة كبرى، فسؤال الدولة وجرعة الدين التي يجب ضخها فيه، وهو أكثر الأسئلة تكلفة من حيث المآسي التي يقود إليها ويسببها، والنزاعات التي يثيرها. ولمعالجة هذا الموضوع سنعرضه في نقاط على شكل أسئلة لتفكيك عقدة الموقف والنظر إليها مجردة من الشوائب بعد عرض شيء من المقدمات.

الدولة حاجة بشرية

أي مجتمع بشري صغر أم كبر لا بد له من نظام عرفي أو مقنن يسير عليه، تلك حقيقة بسيطة يدركها كل عاقل، فمن الأسرة الصغيرة إلى فرق العمل، إلى المؤسسات، إلى الحكومات، إلى المؤسسات العالمية يوجد نظام هرمي بشكل ما، ويوجد تنظيم وتراتبية قرار.

لم يكن مجتمع قريش استثناءً ولا مجتمع المدينة، ولا الدين الجديد في شكله البشري الحي، فكل شيء يأخذ شكلاً هرمياً ولو بسيطاً، فهناك رأس ثم أتباع، فكان من الطبيعي أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام على رأس جماعة الإسلام وهي تتكون، وأن يكون القرار عنده بحكم مختلف الاعتبارات، الرسالة والحكمة والسن والمكانة والدعوة، كان أمراً طبيعياً أن يحدث، والسؤال هنا: هل أمر بإقامة دولة؟

هل هناك أمر صريح في القرآن بإقامة الدولة؟

لا يبدو أن في القرآن أمراً صريحاً بإقامة دولة! أو ترؤّس حكومة!

فالأمر القرآني يحض على أمرين: القضاء بين المتخاصمين من جانب، ويتناول من جانب آخر مشاورة المؤمنين، وأن المؤمنين يستشير بعضهم بعضاً في الأمور التي تؤثر في المجموع. فلفظ الحكم في القرآن في مثل: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وأمثالها، مقصود به القضاء لا رئاسة الدولة.

وليست الشورى موضوعاً خاصاً بالمؤمنين، ولكنه يتم بين

البشر بحكم حاجتهم إلى الرأي، وقد رأينا بلقيس ملكة اليمن وهي تستشير، فمن أين وردت فكرة الحكم والإمامة؟

والكيان الإسلامي منذ نشأته واجه إشكالات كبرى:

- **لا يوجد تفصيل للشكل**

عندما ننظر إلى الصحابة بعد وفاة الرسول (ﷺ) وخلافهم في السقيفة وبعدها، لا نجد نظاماً معيناً ولا تصوراً موحداً صادراً عن الدين لديهم، إنما استكمال لوضع قائم، وهو أنهم كمجتمع مؤمن يلزمه أن يدير نفسه، ولم يكن مُتخيلاً أن يكون هناك تشريع غير الإسلام، كان وضعاً طبيعياً سواء أنجحت فكرة الأنصار بأن مدينتهم عادت إليهم: «وأنتم يا معشر المهاجرين رهط»، أو فكرة القرشيين: «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش»، ففي الحالتين سيكون هناك وضع تنظيمي للمجتمع. وعلى الرغم من أن الفقهاء المسلمين عدوا تلك سابقة قانونية يقيسون عليها إلا أنه لم يكن مُتخيلاً غيرها على كل حال في ذلك الوضع تحديداً، سواء وجد نص أم لم يوجد، وفي الخلاف لا يبدو أن أحد الطرفين قد احتج بالقرآن أو بالنص الديني، في أصح رواية عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي حضر الحادثة كما رواها البخاري (**صحيح البخاري**، باب «رجم الزاني»).

- **لم يتم الاتفاق على آلية تداول مستقرة**

باستثناء فكرة التغلب، وهي تأتي بحكم الواقع، لم يستقر المجتمع ويتوافق على شكل محدّد لانتقال السلطة يؤمن الاستمرارية والسلاسة ويقلل الاختلافات وهو ما رأيناه بعد مقتل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

• لم يتم وضع آلية مستقرة لحل إشكالية الخلاف حول سياسات الحاكم

وهو المشهد الذي سينتهي بمقتل عثمان (رضي الله عنه)، وحتى يومنا لا توجد تلك الآلية في المجتمعات العربية.

• لم يتم التوافق على آلية مستقرة لمواجهة النزاع المسلح الداخلي

وهو المشهد الذي رأيناه في الفتنة الكبرى التي ذهب ضحيتها ٧٠,٠٠٠ من ذلك الجيل في الاقتتال البيني، وما زلنا لم نطور فكراً وآليات لمواجهة هذا النوع من المشاكل.

• لم تتم الإجابة عن سؤال الاستبداد بطريقة تكفل عدم حدوثه

وما زالت المجتمعات العربية تمرّ بالمشكلة ذاتها ومن دون ثقافة أو آليات لمواجهتها.

• لم يتم التوافق على آلية تدبير الاختلاف الاجتماعي

فكثرت المقاتل البينية بسبب التكفير والتفسيق والتبديع، ولم ننشئ ثقافة تقاوم هذا النوع من التصرفات.

كل هذه الإشكالات الجوهرية تعطي مؤشرات على درجة نضج الفكرة السياسية في أي مجتمع ومن الواضح أنها لم تكن متوفرة حينها ولكن المخيال الإسلامي يبحث عن حلول الدولة هناك!

• **الفقيه يقرر أن الدولة وسيلة لتطبيق الأحكام**

ومع ذلك فهناك الكثير من الشواهد على فكرة الدولة ذات السيادة الدينية، وهذا ما يخبرنا الفقيه المسلم عنه.

«وظيفة الدولة القيام على الدعوة الإسلامية، وإقامة الشريعة الإسلامية، وقيادة الأُمَّة وفق هذه الشريعة»[1].

«فالله شَرع الأحكام التي تُنظم المجتمع الإسلامي، وطالَب المسلمين بتنفيذ هذه الأحكام، ومعاقبة المتمردين على تلك الأحكام، بإقامة الحُدود والقصاص مِن المعتدين، وكل ذلك يحتاج إلى سلطة سياسية»[2].

«إنَّ المُسْتَنَد القانوني للحُكم في الدولة الإسلامية هو الإسلام، فالقوانين التي تحكُم في الدولة الإسلامية هي مِن عند الله، وإطاعتها على ذلك واجبٌ لا بُدَّ منه، والإنسان تطمئن نفسه إلى طاعة ربه وخالقه بقدر ما تنفر مِن طاعة قوانين بشر مثله»[3].

هي من مسائل الفروع

ربما كان ذلك صحيحاً وسهل الاستنتاج، فالرسول (ﷺ) قاد مجتمعاً ومارس شؤون الدولة، فقضى بين الناس وأبرم المعاهدات، وحرك الجيوش، وجمع الزكوات، ومن بعده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم). صحيح أن ذلك النقاء

(١) عمر سليمان الأشقر، **نحو ثقافة إسلامية أصيلة**، ص٣٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٤٧.

المفترض في الحاكم انقضى بانقضاء الخلافة الراشدة التي امتدت ٣٠ سنة، وانتهت بقيام الدولة الأموية، واستمر ابتعاد الفكرة عن فضاء الصورة الأولى، ولكن الفكرة هي الفكرة، يمكن استدعاء الآيات القرآنية والشواهد التاريخية على وجودها في الخلافة الراشدة، ومن بعدها كانت تُمارس من غير سؤال، هي شيء يُعاش ولكن لا يُناقش، حتى ظهر التشيع العقدي وبدأت حوارات الإمامة تدخل كتب الاعتقاد، مما اضطر ابن تيمية إلى أن يرد على فكرة أن الإمامة من مسائل الاعتقاد بقوله: إن أهل السُّنَّة متفقون على وجوب نصب الإمام، ولكن من أنكر ذلك فهو ليس بكافر، فهي من مسائل الفروع وليست كمن أنكر لا إله إلا الله أو على الأقل... واستمع إليه وهو يقول: «بل نحن نعلم بالاضطرار أن النبي لم يذكر للناس إن أرادوا الدخول في دينه، الإمامة، لا مطلقاً ولا معيناً فكيف تكون أهم المطالب في أحكام الدين... ثم يتبع... فقد كان يجب بيانها من النبي (ﷺ) لأمته الباقين من بعده كما بيّن لهم أمور الصلاة والزكاة والصيام والحج وعين أمر الإيمان بالله وتوحيده واليوم الآخر. ومن المعلوم أن بيان مسألة الإمامة في الكتاب والسُّنَّة بيان هذه الأصول»[٤].

«والقرآن مملوء بذكر توحيد الله تعالى وذكر أسمائه وصفاته وآياته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقصص والأمر والنهي والحدود والفرائض بخلاف الإمامة فكيف يكون القرآن مملوءاً بغير الأهم والأشرف... وأيضاً فإن الله تعالى علّق

---

(٤) منهاج السُّنَّة، ١/ ١٧.

السعادة بما لا ذكر فيه لإمامة، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]... ولم يذكر الإمامة... فإن قال قائل: إن الإمامة داخلة في طاعة الله ورسوله قيل نهايتها أن تكون كبعض الواجبات كالصلاة والصيام والحج». وقال في الصفحة ٢٦: «وما كان أحد أركان الإيمان لا بد من أن يبينه الرسول لأهل الإيمان؛ ليحصل لهم به الإيمان فإذا علم بالاضطرار أن هذا مما لم يكن الرسول يشترطه في الإيمان علم أن اشتراطه في الإيمان من أقوال أهل البهتان. فإن قيل: دخلت في عموم النصوص أو هي من باب ما لا يتم الواجب إلا به أو دل عليه نص آخر قيل هذا كله لو صح لكان غايته أن تكون من بعض فروع الدين لا تكون من أركان الإيمان، فإن ركن الإيمان ما لا يحصل الإيمان إلا به...»(٥).

الدولة وتحقيق مصالح الإنسان

وابن خلدون يقدم إلينا فكرة صالحة للتأمل في هذا السياق: «أن الملك الطبيعيَّ هو حمل الكافة (المجتمع) على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسيَّ هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به».

---

(٥) المصدر نفسه، ١/ ٢٣.

والإسلام في محصلته ما هو إلا الفطرة السليمة التي فطر الله عليها خلقه ولا سيما إذا كان هذا الفكر نتاجاً للتفاعل الصحيح بين نصوص الشرع وواقع الناس المتجدّد. وبهذا المعنى نادى الأفذاذ ممن خبروا عمق الشريعة وسبروا أغوارها من علماء الإسلام، من أمثال: القرافي وابن تيمية وابن القيم والشاطبي وغيرهم... في أكثر من مكان بأنه: «حيثما وجد العدل والحق، فثمّ شرع الله ودينه حتى ولو لم يدل على ذلك نص صريح من قرآن أو سُنَّة».

ويعتبر تعريف الإمام ابن عقيل للسياسة أوسع وأوفى تعريف، فقد عرّف السياسة بأنها: «كل تصرف من ولي الأمر يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يأتِ به الشرع».

فالسياسة بحسب هذه المقدمات هي من مسائل الفروع عند ابن تيمية، وهي تدور مع العدل والحق كما عبّر عنها ابن القيم، وهي تصرف من ولي الأمر يحقق المصلحة ويبعد عن الفساد عند ابن عقيل، وهي عند الشاطبي تحقّق مقاصد كلية قارة يريدها الشرع وتقرّها العقول، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال للفرد وللمجتمع «وكل ذلك بما لا يخالف الشرع».

مسلّمات الفقيه المضمرة

ونصوص الشرع بعضها قطعية الثبوت قطعية الدلالة، وبعضها قطعية الثبوت ظنية الدلالة، وبعضها ظنية الثبوت ظنية الدلالة، وبعضها يقع في منطقة العفو التشريعي، وبالتالي تبقى

هناك إشكالية كبيرة في أيها الذي سنسميه شرع، فالقطعي الثبوت والدلالة واضح أنه الشرع بيقين، أما الباقي فهو رهن بالفقيه وأدواته وقدراته وإلمامه بعصره، وهنا تبرز إشكالية التعاطي مع الأوضاع السياسية المستجدة، فالفقيه تصوّر حالة مثالية يكون فيها المسلمون متفقين على شكل معين اسمه «الدولة الإسلامية»، ومتفقين على شخص ما أو سلطة ما يعطونها الطاعة اسمها «ولي الأمر»، وأن المجتمع إما «نقي» ليس فيه إلا مسلمون، أو أن به غير مسلمين «خاضعين» بالقوة أو بالتراضي لإكراهات المسلمين وسقف المساواة الذي يفرضونه عليهم، وهذا يعني أن هناك تحديين كبيرين أمام فكرة الدولة الإسلامية في هذا العصر:

١ ـ أدوات الفقيه وتكوينه تشهد قصوراً كبيراً عن مقاربة العصر.

٢ ـ والفرضيات التي يطرحها لا وجود لها في الواقع.

مسلّمات الناشط الإسلامي المعاصر التي تحتاج إلى بيان

والناشط الإسلامي القائل بالدولة واقع بين مقررات الفقيه القديم التي تم تسويقها في هذا العصر من دون تبصر به وما حدث لإنسانه وأوضاعه وبين مطرقة الواقع الذي لا يستسلم لما يريد وهو لا ينتبه أن فرضيات الفقيه الأولى غير متوفرة في الواقع أصلاً.

فالمجتمعات ليست هي الإسلاميين الحركيين ورؤيتهم السياسية، وقسر المجتمعات على تبني تلك الرؤية مُحال بشاهد الواقع:

- فليس كل المسلمين مؤمنين بتلك الأفكار.
- ولا غير المسلمين يطربون لتلك الهيمنة.
- ولا بإمكان أحد إخضاع كل هؤلاء لسلطته بالقسر.
- ولا العالم القائم بتوازن قواه سيترك هؤلاء يُكرهون الناس على ما يريدون.

ومن هنا يوضع الشاب المسلم في حيرة كبرى، فلا هو قادر على الإفلات من الأطروحات الدينية ولا هو قادر على المرور بها إلى الواقع.

أدوات الفقيه غير كافية لمواجهة تطور الإنسان

والسؤال: كم سيحتاج الفقيه المسلم لتطوير أدواته؟ وتحت أي ظروف ستتحقق فرضياته ومقدماته؟ وماذا لو أن كل ذلك لم يتم؟ هل تبقى المجتمعات الإسلامية مضطربة بين انتظار اجتهاد لم يتم ومنتج إنساني لا تريد تبنيه؟ تلك هي معضلة الحالة الإسلامية. كل ذلك كلام نظري لا أرجل له في الواقع، والسؤال: كيف نُجيب عن الواقع بمعطياته الحقيقية لا الافتراضية وبما هو متاح لا بما يجب أن يُتاح؟

ماذا إذا كان المتاح عملياً هو دولة مسلمة بأغلبيتها السكانية، ولكنها ترفض أن يسيّرها فقيه، وفيها غير مسلمين يريدون المساواة التامة على قاعدة المواطنة الكاملة، كيف ستنظم الحياة التي تسمح للمسلم بأن يتمتع بأكبر قدر من حرية الدين وتطبيق ضروريات إسلامه، وتضمن لغيره أيضاً أن يحصل على الحق نفسه على قدم المساواة؟ دولة تحترم الدين ولكنها

تترك لكل صاحب دين أن يخضع لدينه، وتبقى الدولة حامية لتلك الحقوق وممثلة للجميع، ذلك هو سؤال العصر؟

وهو سؤال لم تستطع أن تجيب عنه الدولة الدينية في العصور الوسطى، ولم تستطع أن تجيب عنه الدولة الصهيونية في مطلبها لتكون إسرائيل دولة يهودية، فهل يستطيع الفقه الإسلامي أن يجيب عنه؟

الواضح أن السلطة في الإسلام ليست واجبة لذاتها بل واجبة لغيرها، بمعنى أن هناك أحكاماً شرعية تحتاج إلى تنفيذ عبر السلطة السياسية أو أي شكل من أشكال السلطة التنفيذية، وهذا يعني حساب كمّ الأحكام التي لا تحتاج إلى سلطة تنفيذية أو إكراه وتعتمد على إيمان الفرد وتقواه، فالمسلم الذي بقي في بلاد النجاشي ولم يرجع إلا في السنة السابعة للهجرة ما الذي كان لا يستطيع أداءه من الدين؟ ومثله المسلم اليوم في كندا أو البرازيل أو غيرها.

ويضرب بعضٌ نماذج لاحتياج الدين إلى السلطة السياسية، وهي جمع الزكاة وإقامة الحدود والدفاع عن ديار الإسلام، وهي مطالب بقي الحاكم المسلم، على الرغم من انحراف الحكم عن مسطرة الخلافة الراشدة وربما عن العدل، يقوم بها أو يأذن بها، وأهمها الدفاع عن بيضة الإسلام، وهو ما دعا الإمام أحمد ابن حنبل إلى تقديم الاجتماع على الإمام براً كان أو فاجراً بدل الاقتتال والفوضى، وهي أمور تحتاج إلى تشريع في هذا العصر، وفي ظل معطيات الواقع، وذلك حتى يجد الفقه الإسلامي حلوله، إمّا باعتماد ما هو قائم أو باكتشاف مسار يوجد الفرضيات الضرورية التي يبدو أنه من المستحيل إيجادها في هذا العصر!

حين نلحظ الأحكام القرآنية، مثل: **جمع الزكاة وإقامة الحدود وإعلان القتال** نجد مطلباً لوجود السلطة التي تقوم بذلك، وعليه ترتبت قضية منطقية أصبحت مستند القوم، فهذه الأحكام تحتاج إلى سلطة لتنفيذها وهي أمور واجبة **وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب**، فالسلطة واجبة لغيرها، أي لتنفيذ الأحكام المنصوص عليها في القرآن.

والسلطة بهذا المعنى واجبة لغيرها؛ ليست شيئاً لا يتم الدين إلا به على المستوى الفردي، ولكن في البناء الاجتماعي يلزم وجود نوع من السلطة تسمح بتنفيذ ما يعتقده ويؤمن به المسلم أنه واجب ديني.

ولنبدأ بتلك الثلاثية: «الزكاة والحدود والقتال» التي تربك القرار المسلم، وننظر في عمقها ولنبدأ بالقتال.

إن أهداف القتال في الإسلام كما يشير القرآن إليها: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، بمعنى رد العدوان... أو حين يراد فتنة المؤمنين عن دينهم بمنعهم من الدعوة إليه أو ممارسته: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، أو حين يراد الدفاع عن المستضعفين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]

لكن ماذا لو انتفت الأسباب المُوجبة للحرب، فالدفاع عن الوطن وصدّ المعتدين واجب ستقوم به أي دولة، فهو ليس

موضع سؤال. وحين تتحالف الدول يدافع بعضها عن بعض بسبب الأحلاف، والدفاع عن المستضعفين يتم اليوم بموجب الشرائع العالمية وتنظمه قواعد دولية متفق عليها، وحرية الاعتقاد مكفولة للبشر، وحرية التدين وحرية الدعوة للأديان مكفولة في العالم، ومن اعتدى عليها فهو يصطدم بالترسانة الدولية. فموضوع القتال اليوم في الدولة المعاصرة وفي النظام الدولي المعاصر على الرغم من قصورها إلا أنها تعالج هذا الموضوع بشكل جيد.

والزكاة اليوم بوسع المسلم أن يؤديها منفرداً أو أن تنظمها قوانين الدولة، وتؤدّى إلى صندوق معين يشرف عليه المسلمون ويديرونه.

وموضوع الحدود هو قدر زائد عن التقاضي للفقيه المسلم في قضايا، مثل: المواريث والمعاملات وغيرها؛ لأنه يستوجب سلطة ما تقوم به، وهو الأمر الذي يربك العقل المسلم، لكن ذلك ممكن الترتيب له داخل التعاقد الوطني المعاصر ووفق شروط العصر، هو جزء من تعاقد وليس سبيلاً لهدم فكرة التعاقد.

فالدولة المعاصرة هي دولة تعاقد بين مكوناتها، وبطبيعتها هي ممثلة لمصالح ومخاوف كل مكوناتها البشرية، ولكن تحت فكرة الدولة التعاقدية تتمركز مبادئ إنسانية وسماوية عظمى وجوهرها العدل، فكل ما نطالب به لأنفسنا يجب أن يكون للآخرين الحق نفسه وأن تُراعى مخاوفهم وحقوقهم.

تطور فكر الدولة

وفكرة الدولة قضية شغلت الفكر الإنساني منذ عصور طويلة، ومرت برحلة طويلة يحسن بالمرء أن يحيط بها، ولنبدأ من حيث اليوم ونعود إلى الوراء.

مطلب الدولة الدينية

يطالب اليهود الصهاينة اليوم بدولة يهودية، دولة خاصة بهم، فالصهاينة سوقوا للعالم فكرتين كبيرتين، **الأولى**: أن اليهودية يمكن اعتبارها قومية، وبالتالي وبحسب مسطرة الثورة الفرنسية يحق لهم التجمع في قطعة أرض تمثّلهم، **والثانية**: أنهم دولة ديمقراطية تحترم حقوق المواطنة. ونحن على الطرف الآخر كعرب ومسلمين نرفض فكرة الدولة اليهودية لا بسبب المبدأ؛ حيث إن الدول تمثيل للمجموع السكاني وليست كيانات دينية، ولكن لسبب خاص بالحالة الإسرائيلية، وهو أنها تغتصب أرضاً إسلامية عربية، وأن هذا سيكون مبرراً لترحيل فلسطينيي أرض ٤٨ أو حرمانهم من حق المواطنة.

وفكرة الدولة الإسلامية في الجانب الآخر ونقاشاتها لا حصر لها، فهي تبدأ بفكرة طالبان بتعيين أمير المؤمنين وإعطائه البيعة، وهو ما تحارب عليه الجماعات الجهادية، وهو القالب التاريخي لفكرة المدينة، وتنتهي إلى الدولة المدنية على النموذج الأردوغاني التي فيها نظام علماني، السياسة يديرها إسلاميون بالهوية بحكم اختيار المجتمع لهم لا بحكم هويتهم الدينية، ويديرون عقداً وطنياً لصالح مجموع السكان بما يتسق مع قيم الإسلام العامة أو مستقرات العقول أو مستقلاتها كما يُقال،

ويطالبون بحرية التدين للجميع. وبينهما تتدرج الصورة، فهناك النموذج التونسي الأخير مع حزب النهضة، وهناك النموذج الذي تنادي به بعض قوى الإسلام السياسي في مصر وغيرها تحت عنوان: «الدولة المدنية ذات المرجعية الإسلامية» وعلى الأطراف توجد اليوم نماذج الدول متنوعة التعاقد من الملكيات أو شبه الملكيات والجمهوريات، وكلها داخلة بشكل ما في فكرة الدولة المسلمة.

تاريخ الدولة المسلمة وإشكالاتها

والتاريخ الإسلامي بدأ بحيرة حول ترتيبات دولة ما بعد النبوة والرسالة، فظهرت فكرة «المدينة لأهلها الأنصار»، وهي سبب التقاء الأنصار في دار السقيفة من دون دعوة أحد من المهاجرين، ثم ظهرت فكرة الدولة العربية القرشية «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش»، كل ذلك في قالب تعاقدي بسيط لأعداد قليلة من البشر في المدينة، مع فكرة صلاح الحاكم ورضى الشخصيات المؤثرة في المجتمع «أهل الحل والعقد» وكل ذلك يتم من دون تقنين أو تعاقد واضح ولكن بشكل ضمني أو عرفي، ولكن هذا التوافق الضمني ما أن يختل لسبب من الأسباب وكما حدث مع التوسع الجغرافي لم يعد قادراً على مواجهة تحديات الدولة فلا الصلاح الفردي ولا توافق القلة المؤسِّسة كان كافياً في حلّ معضلة عثمان (رضي الله عنه) وانتفاضة الأطراف وتمردها، ولم يكن قادراً كذلك على الصمود في وجه الخلاف المسلح الذي نشب بين معسكر علي ومعاوية، ولم يكن كافياً في وقف استمرار الانقسامات الداخلية وظهور الفرق، فخلطة البيعة وصلاح الحاكم لم تكن كافية لمواجهة الاحتمالات

المختلفة للواقع السياسي والاجتماعي، فلم تصمد تلك الخلطة لأكثر من ثماني عشرة سنة، هي سنتا الصديق، وعقد عمر، وست سنوات من حكم ذي النورين عثمان، ثم تضعضع النموذج ولم يبق في الذاكرة منه حاضراً بقوة إلا عهد عمر رضوان الله عليه، فقد كان في شخصه قوة ومهابة وفي عقله رجاحة ونجابة، فاستقرت الأمور في عهده إلى حين. أمّا بعده فبدأ عصر العواصف والأعاصير، حتى استقر لنموذج تقليدي معروف للعرب، وهو نموذج المُلك المطلق والذي مثلته بعدها كل نماذج الحكم اللاحقة حتى العصور الحديثة، وهو نموذج بدأ بإعطاء الحاكم بحكم القوة صلاحيات مطلقة لم ينازعه فيها سوى الفقيه، فولدت الدولة ذات الرأسين بتعاقد ضمني، قوامه أن لا يتدخل الفقيه في الشأن السياسي والاقتصادي والأحكام السياسية، وأن يترك الفضاء الفردي للفقيه عبر الإفتاء في أعمال المكلفين أو أفراد المجتمع، أما الباقي فهو متروك لكلا الطرفين أي الملك والفقيه، أيهما يتغول على منطقة الآخر.

فحين يفكر الفقيه في التدخل في أمر الدولة تقوم مقتلة الفقهاء، كما في خروج ابن الأشعث ومعه الفقهاء ومنهم سعيد بن جبير وأضرابه، وحين يتحرك الملك للتدخل في شأن الفقيه يقوم العامة كما في فتنة الإمام أحمد. في كل الأحوال كان هناك رأسان للدولة، رأس سياسي ورأس اجتماعي، **الأول** بحكم القوة ويسنده الفقيه بالنصوص المنتقاة، **والثاني** بحكم العلم بالدين ويسنده الملك بالتعيين تارة، كما حدث مع القاضي أبي يوسف، وطوراً بدعم العامة كما هو حال الإمام أحمد في بعض مراحله.

وما لبث أن أضيف إلى الأمر رأس ثالث للبناء السياسي، وهو ما عرف بتولية السلاطين، وبدأ مع المأمون، ومع الوقت ضعف شأن الملك (الخليفة) وعظم شأن السلاطين. كان النظام السياسي يتغير باستمرار **من دون نظرية واضحة أو شكل محدد سوى العُرف العربي وتصرفات الملوك أو السلاطين** أنفسهم، وموازين القوة، واستمر الحال حتى يومنا هذا. أما الأقوال الفقهية فلم تُجب عن سؤال الدولة بل أجابت عن تكييف الدين لصالح اللحظة التاريخية وتوازناتها، فعلى الرغم من استدعاء النصوص والحوادث التاريخية كما هو المنهج المعتاد، إلا أن حقيقة التكيّف كانت باستمرار حاضرة، فلو أخذ التاريخ مساراً آخر لكنّا رأينا تكيّفاً آخر.

لم يستطع الفقيه أن يؤثر كثيراً في صيرورة الحياة السياسية، بل بقي يعود إلى المشهد إما باستدعاء السلطان كما حدث مع الماوردي، أو بسبب ظرف طارئ كما حدث مع العز بن عبد السلام.

توقف العطاء النظري السياسي الإسلامي مبكراً، ولم يكن مُقدّراً له النمو حتى لو استمر بسبب مناهج المقاربة المتبعة تقليدياً، وهو ما سنؤجله إلى حين الحديث عن مشكل مناهج البحث التي خصصنا لها كتاباً كاملاً، ولكن البشرية كانت أيضاً تتطور من حولنا، ليس فقط في النظرية السياسية، ولكن في كل مناحي الحياة قطعت البشرية في سباقها مراحل كبيرة عبر قرون متطاولة من النقاشات والتجارب العملية، فماذا حدث في فكرة الدولة عبر العصور؟ وكيف انتهت البشرية اليوم أو على الأقل قيادتها المعاصرة الممثلة في الغرب؟

رحلة الغرب مع فكرة الدولة

هي رحلة كاملة من الأفكار والرؤى والتجارب... خاضها الغرب وانعكست على العالم أجمع، سنسرد أهم الأفكار والأحداث الكبرى فيها لتعطينا تصوراً حول حجم المهمة التي تنتظرنا.

لقد اختزن الغرب في ذاكرته فكرة الديمقراطية اليونانية الأثينية (نسبة إلى أثينا عاصمة اليونان).

روح الغرب كما رآها عمرو بن العاص

كلمة ديمقراطية مشتقة من كلمتين يونانيتين (ديموس كراتوس) تعنيان حكم الشعب. وكانت كلمة ديمقراطية في اليونان القديمة تفهم ككلمة مناقضة للملكية، حيث يحكم شخص واحد، ولحكومات النخبة، حيث تحكم قلة من الناس. ومع أن الديمقراطية لم تصبح القاعدة في الأيام الغابرة لليونان، فإن أول براعمها الحقيقية ظهرت في مدينة أثينا اليونانية القديمة، واستمرت الديمقراطية هناك من العام ٥٠٨ حتى العام ٢٦٧ قبل الميلاد، وكانت نموذجاً قاصراً بدائياً، ولكن فكرة حضور الشعب المباشر في الحياة السياسية وحرية التعبير والتداول في الشأن العام تركت بصمتها على الرومان وأفكار الرومان، فقد هيأ اليونان الخميرة النظرية والتطبيق الجنيني على عيوبه، وتطورت التجربة في روما بمخاض طويل وولدت الجمهورية الرومانية.

وفي الجمهورية الرومانية تعدُّد مناصب الحكام من ناحية، وبروز سلطة مجلس الشيوخ من ناحية ثانية، وظهور العامة على

سطح الحياة السياسية نتيجة نضالهم المستمر في مواجهة الأشراف من ناحية ثالثة، على أن أهم سمات الدولة الرومانية في العصر الجمهوري تتمثل في اتساع هذه الدولة إقليمياً نتيجة الفتح والغزو لتشمل إيطاليا ثم أغلبية حوض البحر الأبيض المتوسط.

لقد لاحظ عمرو بن العاص شيئاً في بيئة الروم المحيطة بهم، وكتمه حتى سمع خبراً يقول: «لا تقوم الساعة إلا والروم أكثر أهل الأرض»، ونصه: حدثنا عبد الملك بن شعيب بن الليث حدثني عبد الله بن وهب أخبرني الليث بن سعد حدثني موسى بن علي عن أبيه قال، قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**» فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله (ﷺ)، قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك.

يبدو أن هذه الخصال ستفعل فعلها في القرون اللاحقة.

لقد مضى الزمن والدنيا بين كر وفر على هؤلاء القوم حتى القرن الرابع عشر الميلادي ينتصفون من نظام ليقوم نظام، تجارب وحروب ولم يتوقف القول في السياسة نظرياً وعملياً حتى ولدت أفكار العصور الحديثة أو أمهاتها مع مفكري الغرب الكبار، وكانت تغييراً شاملاً مسّ كل شيء وأعاد تنظيم العالم مرة أخرى.

سؤال العلم هو البداية

بدأ وصول الأفكار الإسلامية إلى أوروبا مع الحملات الصليبية في الفترة ما بين (١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) وأنتجت تغييرات في فضاء الفكر لدى بعض شباب النخبة، نتيجة قراءات ابن الهيثم وابن سينا والبيروني، تبعتها الدعوة إلى التحول إلى المنهج التجريبي واليقين الرياضي على يد روجر بيكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤م) وهو خط سيتصاعد وستسرع المطبعة المتحركة التي طورها غوتنبرغ في انتشار كل الأفكار (١٤٤٧م)، واستمر نمو الأفكار بشكل متصاعد... مارتن لوثر يغير مسار الفكر الديني الكنسي بوثيقته (١٥١٧م) فيطالب بأن يكون الكتاب المقدس وحده مسطرة الإيمان، وبأن المؤمنين كلهم قادرون على تفسيره وليس حكراً على أحد وأنه يجب أن يكون متاحاً بكل اللغات ولعموم الناس، وأن المؤمنين متساوون، وأن القساوسة من حقهم الزواج... لقد تمّ تحرير الدين من الكهنوت وأُعيد ملكاً للإنسان. لم يكن فكر مارتن نقياً ولكنه فجّر أسوار الكنيسة المهيمنة على حياة المسيحي الأوروبي، وتزامن مع ذلك هدم أسوار السطوة الأرسطية على العقل الأوروبي التي تعتمد المنطق الجدلي لإثبات الحقائق ليقوم صرح المنهج التجريبي، ليأتي عالم شامل وهو كوبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م) بثورته على تصور أرسطو للكون ويقدم بديلاً مبنياً على التحليل الرياضي يزيل الأرض من مركز الكون، ثم يتبعه عالم شامل آخر وهو غاليليو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م) فيدافع عن نظرية كوبرنيكوس ويصنع منظاره الشهير الذي هدم اليقين الكنسي المستقر ومعه المنظور الأرسطي المستقر سنة (١٦٠٩م) وتزامن ذلك مع ظهور ديكارت الذي أطلق العقلانية الأوروبية بكتابه **التأملات** ليعلن أن لا شيء

يجب أن يمر إلى العصور الجديدة إلا بعد عرضه على الدليل والبرهان، وجاء فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٦٢م) ليعمل على تدقيق المنهج العلمي، ثم جاء وقت التحولات الأعمق فتقدم ديفيد هيوم برؤية بديلة شاملة للكون عن المنظور الكنسي، ستنحت عميقاً في الفكر الأوروبي (١٧١١ ـ ١٧٧٦م) وزامنه نيوتن بتفسير فيزيائي للكون ليتوّج عصراً جديداً (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧م)... **كل شيء تعرض للانفجارات المعرفية، عالم النشر، عالم اليقين الديني، عالم اليقين المعرفي الأرسطي، تصوّر العالم وبنيته، أدوات الاقتراب من الظواهر الكونية، فكان لا بد من تغير عالم العلاقات الإنسانية والاجتماع الإنساني، عالم السياسة والاقتصاد.**

حراك الفكر السياسي والاجتماعي فلسفياً

استمرت الحداثة السياسية تسير بخطى حثيثة إلى جانب موضوعات حيوية أخذت تُرسّخ في الأذهان، كالحرية، والتشريعات السياسية، وسلطة الدولة، والتسامح الديني على الأقل بين أهل البلد الواحد عملياً ونظرياً على نطاق أوسع؛ فكان جون لوك (J. Lock) (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م) من أبرز رواد الحداثة السياسية.

لقد تمحورت أفكار لوك حول ضرورة الفصل بين مهام الدولة والمعتقدات الدينية، وكان الجديد في أطروحاته هو تقديمه لمفاهيم تتعلق بالمجتمع الطبيعي، والعقد الاجتماعي، والفصل الذي أقامه بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، وهو بهذا يعدّ من أبرز المؤسسين للفكر الليبرالي الحر. السلطة التشريعية

عند لوك، سلطة مقدسة بوصفها أسمى تعبير عن الحرية. في هذا السياق جعل لوك من الإكراه العمومي إحدى نتائج السلطة السياسية وليس أصلاً لها؛ لأن هذه السلطة ليست سليلة السلطة الأبوية أو تطويراً لها؛ وما إن تنتهي هذه الأخيرة التي تقتصر مهمتها على التربية، حتى يبدأ مجال السلطة السياسية، أي عندما يصبح الإنسان حراً ومنفصلاً عن طوره التربوي. وهنا نكون بصدد تلاحم كل من الحرية الطبيعية والحرية السياسية، من حيث تشكّل الأولى أصلاً للثانية.

إعادة تأسيس العلاقات السياسية

وقد سار بهذا الاتجاه كل من مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٧٤م) وروسّو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م)، وتكشّفت لاعقلانية الاستبداد التي تتعارض مع قوانين السياسة اللازمة للعقل والطبيعة معاً. وغدت الحرية قاعدة أساسية تبنى عليها السلطة السياسية، والتنظيمات المدنية كواجبات للدولة؛ فالحرية هي الحق الطبيعي والمدني لكل إنسان؛ وهي الفعل الأصيل والأسمى للمجتمع السياسي. وبناءً على ذلك جاء معنى السلطة السياسية عند لوك بوصفه الحق في صنع القوانين من أجل تقنين الملكية والحفاظ عليها، والحق في استعمال القوة العمومية لكي يتم تنفيذها وترسيخها، لتمارس واجبها بالدفاع عن الدولة ضد الأخطار الخارجية، كل ذلك من أجل خدمة الخير العمومي فقط. من هنا كان التركيز على الحرية وعلى الحقوق المدنية للأفراد، التي سهّلت وقطفت في آن معاً ثماراً جديدة أذنت باستيعاب الحدث الفكري والفلسفي الذي قاده أمثال هؤلاء الرواد.

إعادة تأسيس المعرفة عموماً

مع ديكارت (Descartes) (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) يسمو العقل على أساس فلسفي، وتسود قوّة التفكير والشّك النقدي. وغدت فلسفة ديكارت بمثابة تحول كبير في صرح المعرفة، فوضعت الفواصل بين الوهم والحقيقة، وأرست قواعد إمكان التصوّر العلمي للعالم؛ كما يُعدّ فكره إرهاصاً للفلسفة النقديّة التي أنضجها كانط (I. Kant) (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م) لاحقاً. لقد تبين لديكارت أن كل ما تعلّمه عن رجال الدين محض هراء، وهذا ما حفّزه على وضع كتاب **التأملات** (*Meditations*) عام ١٦٤١م، الذي يعد من أكثر الكتب أهمية في الحقبة الحديثة.

وقد أجمع عدد من الباحثين على أن الفلسفة الحديثة بدأت مع نشر كتابه؛ فكان هدف التأملات هو أن لا تتكرر مثل تلك الأغلاط التي فضحها العِلم الجديد مرة أخرى. ومن أبرز ما كتب أيضاً: **مقالة في المنهج** (*Discourse on Method*) عام ١٦٣٧م، وهو الكتاب الذي قدم فلسفة ديكارت ليتم الاعتراف به كأعظم فيلسوف في عصره؛ فقد وضع فيه ديكارت الخطوات الأساسية الممنهجة في مجال البرهان الاستنتاجي الصحيح، وأوضح القواعد التي يستند إليها التفكير الصحيح.

وترك الكوجيتو الديكارتي لاحقاً تأثيراً كبيراً في السياقين الاجتماعي والتاريخي، وبصورة خاصة في عصر الأنوار. يقول الفيلسوف الألماني إرنست كاسيرر (Ernst Cassirer) (١٨٧٤ ـ ١٩٤٥م): إنه بَعد القطيعة التي أحدثتها ذاتية ديكارت العقلانية مع العواطف والانفعالات، تحقّقت خطوة إضافية باتجاه العقل عندما عهدت إليه فلسفة الأنوار بمهمة القيادة، ليدير جملة شؤون

الحياة. فأمسك بكل الأفكار، محدثاً ثورة شاملة في المعرفة والسلوك، من خلال مفاهيم الإنسان وتصوراته وقيمه وعلاقاته... إلخ، على أساس عدّ الفرد غاية كل مبدأ أساس، فبدت هذه الفلسفة ثورية قبل نشوء الثورة الواقعية.

إعادة تأهيل العلاقة بين الديني والسياسي

جاء سبينوزا (Spinoza) (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م) وطبّق منهج الشك الديكارتي على الأخلاق والسياسة... ونشر كتاباً بعنوان **رسالة في اللاهوت والسياسة** من دون أن ينسبه إلى نفسه، بسبب صرامة القيود والضغوط التي كانت تواجه الفكر الحر. ويعدّ هذا الكتاب مَعْلماً ريادياً في الفكر الإنساني التنويري، ويبين أن حرية التفلسف لا تمثل خطراً على التقوى أو على سلامة الدولة، بل إن في القضاء عليها قضاء على سلامة الدولة وعلى التقوى نفسها في آن واحد. قال سبينوزا بضرورة فصل الدين عن السياسة، والاهتمام بكل ما يقود إلى الديمقراطية. وجنّد نفسه من أجل تحرير العقل من الخرافات والأوهام، وإطلاق حرية الفكر والتعبير والممارسة. وفي كتابه الفلسفي **الأخلاق**، نظر سبينوزا إلى الطبيعة بوصفها المحور الأنطولوجي للكون، ومنطق فاعليته؛ ففيها تتجسد القوانين التي تحكم هذا الوجود.

ويقول فولتير (Voltaire) (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م): الفلسفة هي المشعل الذي ينبغي أن يضيء الطريق للبشر، وهي لم تستخدم أبداً هذا المشعل لحرق المفكرين كما فعلت محاكم التفتيش، ولا طائل من الفلسفة إذا لم يتمكّن الفيلسوف من التأثير في أعراف الحيّ الذي يعيش وسطه. وقد هاجم فولتير المسيحية،

ووقف ضد التعصب الديني، واهتم بالحرية وبالعدالة، ووجد أن دواء كل ذلك هو الفكر الفلسفي الذي أخذت الروح الأوروبية تنبض بحيويته وقدرته على الإنجاز والتقدم.

قرن النقد

أما كانط فيقول: «قرننا الحالي هو بالخصوص قرن النقد الذي ينبغي أن يخضع له كل شيء، العقل وحده القادر على تشخيص إشكاليات الواقع الراهن، نحن في عصر يسير نحو الأنوار، عصر النظرة إلى الدين في حدود مجرد العقل، إنه عصر نقد العقل للعقل»[٦].

من دولة المساكنة إلى دولة المواطنة

وهكذا بدأ الانتقال التدريجي من دولة المساكنة إلى دولة المواطنة. إن العالم وهو يحاورنا ويشير إلينا يجب أن لا يشغلنا عن توقف الرحلة عندنا منذ قرون، وأن مياهاً كثيرة جرت تحت جسور فكرة الدولة منذ ذلك الحين، يجب أن نضعها في الاعتبار، فهذه الأفكار أصبحت تصوراً عالمياً تجاوز حدود من أنتجه.

إننا كي ننجز مشروعاً مغايراً نحتاج إلى جهد نظري عملاق وانتشار ثقافي مكافئ لاحتياجات الفكرة، ولذلك يجب أن نعرف بعمق الفارق بين ما طرحته العصور السابقة وهو فكرة المساكنة

---

(٦) المصدر بتصرف.

<http://hadatha4syria.de/2010-12-03-15-58-13/1028-2011-01-18-02-10-57.htm>.

أو الدولة الأمبراطورية، وما تطرحه العصور الحديثة وهو دولة المواطنة.

طبيعة دولة المساكنة

دولة المساكنة هي تصور ما قبل العصور الحديثة، تصور الدولة الإمبراطورية، دولة حدودها حيث يقف جيشها، دولة سكانها رعايا، ففي عصر الإقطاع الأوروبي لم يكن هناك إلا طبقتان: النبلاء تساندهم الكنيسة وهم القلة، وطبقة الفلاحين، ملايين من البشر المحرومين... لم يحدث الأمر فجأة، بل كانت حركة الإنسان على الأرض وتدافعه، وتغيّرات الاقتصاد وتحوّلاته، وتغيّرات الفكر وثوراته تنحت عالماً جديداً.

فطاولة القرون القديمة والوسطى لم تكن تعرف في الغالب إلا مائدة سياسية مستطيلة يجلس على طرفها الإمبراطور، تسنده قوة السلاح، ورعايا عليهم أن يقبلوا بالوضع الذي يقرره. كل الثقافة كانت تدعم هذا التصور... القانون... التعليم... الأديان... كل شيء يجعل الإنسان يتقبّل وضعه في هذا التنظيم أحادي التعاقد... حيث لا خيار أمام الجموع إلا القبول... ولذلك لم يكن غريباً أن يكون «الناس على دين ملوكهم» فحين يعتنق هؤلاء ديناً فالكل يعتنقه، وحين يقررون الصواب يكون صواباً، وحين يقررون الخطأ يكون خطأ... لم يكن هذا خاصاً بأوروبا، ففي الجزيرة العربية مهد الإسلام اتجه الرسول إلى سادة قريش الذين عبّر عنهم القرآن: ﴿سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وعبّر عن موقف الأتباع: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]... كانت قريش وسائر العرب ينظرون إلى كبرائهم

باعتبارهم معيار القبول والرفض... بل إن إسلام المدينة على نطاق واسع تم بسبب إسلام قادتها ومن دون نقاش مطول...

لم تكن دولة المساكنة إلا نظاماً ثقافياً كامل الأركان أسسته ثقافة معرفية متجذرة وعليها تقف أبنية من التعاضد القبلي على الخير والشر عنوانها: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»... **كان هذا نظاماً عالمياً ولم يكن له أن ينهار إلا بانهيار أسسه الثقافية ومحدداته الاجتماعية ومبرراته الأخلاقية.**

هذا ما فعلته تلك الرحلة الأوروبية الكبرى، ليس في العقل الأوروبي منفرداً ولكن في الفضاء الكوني قاطبة، لقد غيرت أسس التفكر السياسي ووعي الإنسان، وجاءت الثورات الحقوقية الحديثة وانتشار التعليم لتدعم ذلك، لقد تغيّر شكل المائدة السياسية في كل المجتمعات... فكيف أصبحت بعدها؟

الانتقال إلى دولة المواطنة

إن الوعي الاجتماعي والسياسي والحقوقي اليوم أوجد فكرة دولة المواطنة؛ حيث يجلس أطراف العقد الوطني على طاولة مستديرة لصياغة تعاقد يكفل الحرية والعدالة والمساواة على تراب الوطن للجميع، وهو ما لم يبلغه أغلب الوعي الإسلامي المعاصر حتى الآن... إن الحديث يتم عن الطاولة الإمبراطورية ذاتها مع بعض التعديلات... هي فكرة الإمبراطور المتسامح مع رعيته... هي شكل من الامتنان... تتبعه مقولات: «لقد تنازلنا كثيراً»، وعقد المواطنة لا يفترض أن طرفاً ما يمتلك الأوراق ليتنازل، بل هو وعي ثقافي حقوقي أصيل بتطورات البشرية وما يسمح به الزمان والمكان كشرط وجودي لمجتمع معاصر يضمن

له الاستقرار والتنمية... لم يعد هناك مجال للتحايل على هذا العقد أو تجاوزه تحت أي حجة... فهو إما أن يوجد أو لا يوجد... الدولة إما أن تستقر أو لا تستقر!

والفقه الإسلامي اليوم بسبب مناهجه لا بسبب فضاء النص المؤسس... وبسبب الثقافة التي لم تتغير في البيئات الدينية الناشئة عنه عاجز عن أن يعبر بنا تلك المسافة الهائلة من تشكّلات الوعي الإنساني التي غيرت من كيمياء المجتمع البشري قاطبة فلم تعد معدته تهضم مقولات العصور الوسطى ومقرراتها.

وربما قدرنا أن ندفع ثمناً غالياً في مقابل تعلم تلك الحقيقة الموضوعية فكما أن الارض لم تعد مسطحة وليست مركز الكون، فالحقيقة الموضوعية الأخرى أنه من دون دولة المواطنة لا يوجد استقرار.

وقد يقول قائل بعد كل هذا الحديث: أي نصيب للحركات الإسلامية عموماً من ممارسة السياسة وهي تحتاج إلى هذا الكم من المراجعات والتصحيح؟

إن ممارسة السياسة تتطلب شروطاً تتجاوز الإشكاليات المتعقلة بتصور الدين تجاه السياسة، فالموضوع له أبعاد أخرى، متعلقة بمتطلبات الدولة، أي دولة، في هذا العصر.

إن الدولة المعاصرة تحتاج إلى ثلاثة متطلبات

الأول: متطلب الوجود، وفيه أمران: الوجود الواقعي، والاعتراف القانوني الدولي.

الثاني: متطلّب الاستقرار، وهو عقد اجتماعي جامع لكل مكونات المجتمع، وحد أدنى من متطلبات العيش الكريم للمواطن وقدرة على الوفاء بالخدمات والوظائف الطبيعية للدولة.

الثالث: متطلب التنمية، وفيه الحاجة إلى خطة واضحة لاستثمار موارد المجتمع بأقصى قدر، وتحجيم تيار الفساد، ومتطلب توفير التمويل لتغذية خطة التنمية.

فمتطلب الوجود للدولة المعاصرة ليس مجرد وجود سكان وأرض وحكومة ولكن ما لم تحصل هذه الدولة على الاعتراف الدولي ككيان فإن حركتها ستصبح صعبة إن لم تكن مستحيلة، والأمثلة على مثل هذه الكيانات اليوم يمكن أن تتضمن كوريا الشمالية التي وصلت إلى حدّ المجاعة وإيران التي أنهكت بالعقوبات الاقتصادية، وربما يضاف إليها الكيانان الفلسطينيان في الضفة وغزة... كل هذه الكيانات تعاني وبدرجات مختلفة نتيجة الحصار الذي يضربه عليها جزء من العالم فكيف بالعالم كله؟!

وحين يتم ضمان الوجود ولا يتحقّق الاستقرار فالدولة مهدّدة ليس بعدم القدرة على التنمية ولكن قد يصبح وجودها ذاته مهدداً، فمثلاً السودان وكثير من مناطق العالم الثالث تعاني عدم الاستقرار نتيجة انعدام التوافق الوطني، ومن هنا يلوح أفق التقسيم والتشرذم والقلاقل المستمرة وهناك دول لا تستطيع توفير متطلبات العيش الأدنى لسكانها وهي أيضاً معرّضة للقلاقل.

ولو تم الاستقرار وانعدمت الخطة والتصور عن متطلبات الإقلاع تخطيطاً وتنفيذاً، أو لم تتوفر رافعة التمويل محلياً أو

كقروض خارجية للوفاء بمتطلبات الخطة، فعندها تسير عجلة النمو السكاني بوتيرة متسارعة ولا تتوفر فرص العمل واحتياجات البشر مما يعود على الأوضاع بالقلق والتدهور.

إن مهمة الانتقال إلى عصر جديد في موضوع الدولة لم يعد أمراً ممكن التأجيل، وهو يحتاج إلى تغيرات كبرى في فضاء الفكر الإسلامي:

- الإيمان أن وظيفة الدولة حماية حق التدين للجميع.
- تحديد الحدود الدنيا التي يتطلبها الدين من الدولة.
- تسكين هذه المطالب في العقد الاجتماعي التوافقي الذي يراعي مطالب مختلف المكونات.

وكلها متطلبات غير متوفرة حتى اللحظة عند الفقيه المسلم، وبالتالي عند الناشط الإسلامي في الغالب.

٩ ـ هويتنا/ هيمنتنا

حين يدور الحديث عن الدولة المدنية والمساواة غير المشروطة بين المواطنين كاستحقاق إنساني أكدته ثقافة العصر التي ولدتها رحلة الإنسان وارتقاؤه عبر العصور... تثور قضية الهوية... أين نحن... أين ديننا... أين عروبتنا... أين شريعتنا... سؤال الهويات الخاصة واحد، ففي أي تعاقد بين مكونات مختلفة لمجتمع ما يبرز سؤال الهويات الخاصة... إنه ليس سؤالاً خاصاً بالمسلمين؛ فكل مكوّن من مكوّنات الوطن يبحث عن الاحتفاظ بخصوصيته... إنها قضايا، الأصل فيها أن توضع على طاولة الحوار المستديرة بكل شفافية...

إن المبرر الذي يسوقه المسلم المعاصر الخائف من دولة المواطنة لا يقوم في عمقه على فكرة المطالبة بمراعاة خصوصيته الثقافية والدينية وإيجاد آلية تحفظ له تلك الخصوصية كما هو متوقع من بقية الهويات ولكنه وضع مختلف ابتداء... هو لا يدخل التعاقد من مبدأ المساواة بل نقطة التميز... وتلك هي المشكلة... هو يدخل بعقلية طاولة الإمبراطورية المستطيلة وبالتالي يعجز عن التواصل مع الآخر لأنه حينها لا يتكلم عن المحافظة على الهوية بل عن هيمنة الهوية، وتلك هي عقدة الموقف... لا شك في أن البشرية كلها تعاني فكرة الهيمنة المسيطرة على عقول الأكثريات العددية، ولكننا لم نتحرك ثقافياً فيها بل ربما تراجعنا في ضوء انتشار الأفكار الإسلامية الأكثر تطرفاً بين الشباب.

إن المسلم المواطن في كندا بالقطع لا يشعر أنه غير عربي، ولا يشعر أنه غير مسلم، ولا يشعر أنه منتقص الحقوق، ولا يشعر أنه يجب أن يفرض هويته على الآخرين، ولا يريد أن يفرض أحد هويته عليه وهو في البرازيل كذلك... لأنه في ثقافة مختلفة ويستشعر قيمة الوجود المتساوي وجدواه للنمو النفسي له ولأبنائه، ولا يستشعر تضاؤل فرصته في دخول الجنة أيضاً.

ولكن ما الذي منع الثقافة الإسلامية من أن تنمو وترتقي إلى العمق الإنساني... سؤال كبير فكل عناصر الخلطة الحضارية الأرقى موجودة في القرآن... قطعاً ليس هو النص القرآني... هو شيء آخر في المنتج البشري لإنسان الدين الذي أنتجناه... هو تفاعل سالب نتج من مؤثّرات أخرى أنتجت

مناهج باعدت بين الدين والواقع ومكنت العقل البشري من أن ينتج بيئات أكثر استقامة واستقراراً ونمواً من البيئات الإسلامية.

بالقطع لن يعجز الفقيه المسلم لو تحرر من المناهج القديمة وأنتج مناهجه التي تضع في اعتبارها متغيرات العصر ومآلات الأفعال عن أن ينتج مواءمة بين الشريعة والواقع..؛ لأن الواقع لم يعد يتحمل كل حمولة هيمنة الهويات حين تقود إلى انتقاص إنسان المجتمع المغاير هوية.

فأن يتحاكم الإنسان إلى شريعته مقرر قرآني: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وكذلك أمر أصحاب الديانات الأخرى بالتحاكم إلى كتبهم: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

أما كيف ينظم ذلك في إطار الدولة المدنية فهو خاضع للاجتهاد والنظر ما آمن الناس بالإنسانية المتساوية... تلك هي القضية.

وذلك يعني ببساطة فكّ الارتباط بين فكرة الدولة كمؤسسة

عليا وبين ترتيبات الشأن الإسلامي في رغبته في تطبيق الأحكام التي جاء بها القرآن. . . فربما كان بالإمكان أن يكون هناك فضاءات تحت الدولة المعاصرة لمناطق الاختلاف بين مكوناتها.

وتبرز هنا مشكلة الهوية بشكلها التقليدي... فهناك هوية إسلامية في مقابل هوية علمانية ناهيك بالهويات العرقية والدينية والمذهبية والجهوية... وفكاك هذا الأمر أن المجتمع بأطيافه المتنوعة والدولة يتوافقان على أن يُؤسس للهوية الجامعة التي تضم كل أطياف المجتمع وترضي طموحه، فلا تُبنى تقسيمات على أساس أقلية وأكثرية، بل على أساس أن هوية المجتمع هي عبارة عن مجموعة من الهويات المتعددة، حتى وإن كانت مختلفة في ما بينها لكنها منسجمة ضمن إطار الهوية الجامعة التي تقرها الحقوق الأساسية لأي إنسان، والتي من ضمنها اختيار معتقده وثقافته.

وبذلك يتم تذويب المشكل الحاصل من خلال أحقية كل فئة من فئات المجتمع، بالحفاظ على هويتها الخاصة إلى جانب مراعاة هويات فئات المجتمع الأخرى، فلا تطغى هوية الأكثرية على الأقلية بحجة العدد، ولا تهدد الأقلية الأكثرية بحجة الخوف من الذوبان في المجموع. . . إنها معادلة حساسة، تجنبنا الدخول في صراع مجتمعي داخلي يقسم المجتمع انقسامات حادة وبالتالي ندخل في مشاكل على حساب الوحدة الوطنية والهوية الجامعة وتعطيل التنمية، وتقطع الطريق لأي تدخل خارجي يهدف إلى المساس بخصوصية الوطن، ومكوناته قد تدخله في مشاكل هو في غنى عنها.

ولا أدلّ من هذه الأزمة ومحاولة حلّها من التجربة الكردية

في تركيا، فقد سمحت الحكومة التركية بقيادة أردوغان بأحقية الأكراد في الحفاظ على لغتهم، والتدريس بها، والحفاظ على نشيدهم الخاص، وفتح قنواتهم الإعلامية الخاصة والمعبرة عن ثقافتهم... وتنمية مناطقهم، وبذلك أصبح النسيج الخاص الكردي منسجماً مع النسيج العام التركي، فافتراض التعارض بينهم كلّف الدولة التركية عبر عقود طويلة صراعاً مريراً، يعدّ من أعقد الصراعات في العالم، وكان سبباً في ضغط دول معادية لتركيا عليها من خلال دعم مسلّحي حزب العمال الكردستاني في الجبال... ونشهد منذ فترة تصالحاً من خلال الحوار والاتفاق على المكون الوطني العام والجامع وبين المكون الكردي الخاص، وكل ذلك تحت مفهوم تعدد الهويات تحت سقف الهوية الجامعة. وبغض النظر عن حداثته وهشاشته الحالية لكنه مسار مهم في طريق تقدم أي مجتمع، وبديله كارثي بطبيعة الحال.

ولننظر كيف تمّ التعبير عن الهوية الجامعة من خلال كلام أردوغان في الحديث عن الإصلاحات الديمقراطية الأخيرة:

«إن جميع المواطنين البالغ عددهم ٧٦ مليون نسمة، هم أصحاب الجمهورية التركية وبشكل متساوٍ».

كيف عبّر أردوغان عن الوحدة الوطنية وأثرها في صناعات الدولة الثقيلة

«مشروعنا» السفينة الوطنية «الذي انطلق عام ٢٠٠٢م نجح في تصنيع أول سفينة حربية محلية عام ٢٠٠٤م، وأنجز الثانية، والعمل جارٍ لبناء سفينتين أخريين».

تأكيد مبدأ الحرية الذي يعدّ المبدأ الأساس في انسجام الهوية الوطنية الجامعة مع بقية الهويات الخاصة

«أؤكد لكم أنه لا مساومة في ما يخص الحريات العامة والحريات الشخصية وفي كل ما يتعلق بالحقوق الأساسية للشعب التركي».

كيف عبّر عن نظام الحماية للهوية الجامعة

«إننا لن نسمح بعد اليوم لأحد على الإطلاق بممارسة العنصرية والتفرقة ضد أبناء الشعب التركي».

دور الدولة في الهوية الجامعة

«نحن نؤمن بأن الدولة يجب أن تقف على مسافة واحدة من جميع المعتقدات، وأن جميع الجماعات بمختلف عقائدها تحت حماية وضمان الدولة».

نفي التعارض بين الهويات الخاصة والهوية الوطنية الجامعة

«اللغة التركية هي اللغة الرسمية للبلاد، السماح بالتعليم الخاص بلغات غير التركية لا يتعارض مع هذا الأمر، بل يعزز مبدأ حرية التعليم بالبلاد».

«حرية ارتداء الحجاب في المؤسسات الحكومية الذي أقررناه في حزمة الإصلاحات الديمقراطية هي خطوة هامة نحو تعزيز الحريات بالبلاد».

«تركيا الجديدة تضمن حقوق المحجبات وغير المحجبات، فالجميع متساوون في الحقوق والواجبات، وحكومتنا لا تسمح لأي طرف باغتصاب حق الطرف الآخر».

ها نحن نرى لغة العصر الجديد في مقابل لغات العصور السابقة، فغياب تصوّر دورة الفكر الإنساني وما أفرزته من شروط لا يمكن إحداث تقدّم في هذا العصر.

١٠ ـ الخوف من الحرية

الحرية مفهوم فلسفي مراوغ يدخل الناس للكلام عنه من زوايا مختلفة؛ فهو في أصل وضعه ربما كان يعني حسياً الخلوّ من القيد ولكنّه حين ينتقل من فضاء الحسي والمادّي من الأشياء إلى فضاء المجرد العقلي يكتسب اتساعاً وجودياً... فحين نتساءل عن خلق الإنسان، وعن لحظة وجوده ومعناه، وعن وضعه في الكون، وعن حريته في الاختيار والاعتقاد والعمل تتعقد الصورة وتتداخل المساحات بين قائل بالحتمية والجبر، وبين قائل بالحرية والاختيار، وبين مفصّل يدمج بين مسار الجبر والاختيار ويبحث عن الرابط بينهما... كل ذلك ليس موضوع حديثنا هنا... في الواقع العملي القانوني والعرفي، أي مساحة من الحرية يجب أن تعطى الإنسان؟.. هل هي حريته في التفكير والتعبير والفعل في فضائه الخاص وفي الفضاء العام؟.. لأنه قطعاً ليس هناك حرية مطلقة، فالحرية المطلقة هي فوضى مطلقة ولكن القيود المطلقة هي قتل للإنسان وروحه وجسده وطاقاته.

والسؤال العملي هنا: ما هي المساحة التي يتركها المجتمع للإنسان ليمارس اختياره الحر والإرادي على خلاف السائد؟

سؤال المعتقدات والمسلمات

الفضاء الديني مشحون ضدّ الحرية وله مبرراته، وهي ثلاثة في جوهرها وإن كانت تزيد عند التفصيل:

• هل نترك الناس يناقشون الاعتقاد ومسلمات الدين: «نحن لا نقبل أن يمس أحد ديننا ومسلماتنا». . . هكذا يلخصها الحس الديني!

• هل نترك الناس ينشرون الإلحاد والكفر باسم الحرية «أعوذ بالله»!

• الحرية انحلال وفساد أخلاقي «هل نرضى بالعري والجنس والانحلال؟»

هو خوف منهجي واعتقادي وخوف أخلاقي. . . تلك كانت حال الكنيسة في العصور الوسطى وتلك مشكلة المتدين عموماً مع الحرية. . . ولننظر إلى فكرة المسلمات. . . وفكرة الإلحاد ونشره. . . وهي منطقة القلق عند المتدين ونسأل أنفسنا: ما هو أصل الدين إن لم يكن هو عرض اعتقاد على البشر في المقام الأول؟

الدين في جوهره وأساسه هو نقاش حول موضوع الاعتقاد وهو موضوع الموضوعات في الدين. . . والدين حين عرض نفسه على الإنسان لم يفترض فيه الإيمان وإلا لما خاطبه ولكنه افترض فيه الكفر. . . افترض أنه مسكون بعقائد مخالفة وأنه لن يستسلم للخطاب لو وصله في جملة أو جملتين. . . فلو كان الأمر متعلقاً بقسر الناس على الاعتقاد لما أرسل الخالق الرسل أو أنزل الكتب؛ فالبشر والكون بين يديه ولكنه شاء أن يختبرهم ويختبر عقولهم وإرادتهم. . . لقد عرض عليهم الإيمان وناقشهم؛ فكفر من كفر وآمن من آمن، ولم يجعل نقاشه معهم سراً لا يعلمه أحد ولكنه جعله شائعاً يحفظه الناس ويتفكرون فيه، إن

الرسالة لم تطلب من قريش إلا فضاء الحرية: «خلّوا بيني وبين الناس».

إن التفكر في القرآن وتدبّره لا يعني إلا إدارة السؤال في ما يطرحه من قضايا، فهل طالب القرآن الناس في التفكر وطرح السؤال بكل تعقيداته أم طالبهم بالقراءة الصماء؟

... لم يخف القرآن من نقاش قضايا الإيمان فما بالك بالنقاش حول ما دونها من قضايا... لم يشترط القرآن ليعرض نفسه على البشر أن يكونوا علماء أو مثقفين... تعامل معهم من حيث هم، ووثق في قدرتهم على النقاش وعلى التفكر... اليوم كما بالأمس يعرض الدين نفسه للنقاش والحوار وهي مهمة لا تنتهي... سواء كان النقاش مع أمة الدعوة أم مع أمة الإجابة... ففي كل الأحوال هو حوار مع سؤال... تلك حقيقة بسيطة... لكن لم عرض الدين نفسه على البشر... ولم خاف المتدين من النقاش... فقرر مصادرته؟

سباق العقول سباق لا يتوقّف، وقدرة الإنسان على الجدل والأخذ والرد لا تنتهي، والحوار يحتاج إلى ثقافة واسعة ومعرفة بالعصر وبطرق الحجاج المنتج، ويحتاج إلى دربة وسعة أفق وتقبل لاختيارات الناس والتعايش معها... إن الحل في مثل هذه الحالات إما الارتقاء بالمتدين أو إغلاق فضاء السؤال!

لقد كان الحلّ الأسهل عند النظر السطحي هو إغلاق باب السؤال... وقمع المتفكرين... ولكن هل يجدي ذلك في هذا العصر؟

يبدو أنه مع ثورة الاتصالات والمواصلات والفضاء المفتوح

لم يعد ذلك ممكناً. . . فكل فرد اليوم بإمكانه أن يتواصل مع هذا الفضاء المفتوح، وبالتالي يناقش ما يشاء من أفكار. . . إن الأفضل الاستعداد بالارتقاء بدل فكرة القمع التي لم يعد العصر يطيقها.

ها نحن نرى بوضوح أن جوهر الدين هو عرض القضايا على الإنسان ليختار، وأن الأصل فيه النقاش والجدل بسبب طبيعته البشرية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وأن قضايا القرآن من الاعتقاد إلى خصوصيات بيت النبوة إلى دواخل النفس النبوية الشريفة إلى أحوال المؤمنين. . . كلها عرضت بمنتهى الشفافية على جموع البشر وجعلت في نطاق ما يعرض عليهم وما هم مطالبون بالتفكر فيه والتدبر.

ولكن ماذا عن سؤال الأخلاق والحشمة، وهو الأمر الذي يبدو أن المعضلة فيه أكبر. . . هل نترك الناس فيه وما يشاؤون. . . والسؤال هنا كبير؛ لأن وعي الإنسان المسلم تشكّل على دائرة الحظر لا دائرة الإباحة، وهو مسكون بهاجس المنع لا بهاجس السماح فالأصل أن المحرمات محددة ومنصوص عليها، وأن ما عداها داخل في دائرة الإباحة، ولكن مع استخدام قاعدة سدّ الذرائع أصبح بالإمكان وفق قانون المنحدر الزلق هو مغالطة منطقية؛ حيث يكون أمام المآلات سيناريوهات متعددة، فيختار الشخص أسوأ هذه السيناريوهات ويبني على أساسه القرار، سدّ كل شيء مخافة أن يقوده إلى ما هو أسوأ. . . ولكن أليس العقد شريعة المتعاقدين. . . إن تضمين التعاقد بنوداً يرسم الحدود المعقولة للفضاء العام ويحدّد ملامح المجتمع الكبرى.

لقد أوجدت ماليزيا حلاً باعتماد منظومة أطلقت عليها القيم الآسيوية... ويمكن نحت واحدة خاصة بمجتمعاتنا المحافظة، فالأمر يحتاج فقط إلى تفكّر... ولكن يجب أن نتنبه اليوم إلى أن الفضاءين العام والخاص ليسا محليين، فمن يستطيع أن يحيط بالسماوات المفتوحة وتدفق القنوات وثورة الاتصالات وثورة المواصلات..؟ تبدو أي إجراءات احترازية اليوم نوعاً من الكتابة على ماء البحر... هذا المعطى يستدعي النظر فالناس تستطيع أن ترى ما تشاء ساعة تشاء وتسافر إلى أي منطقة تشاء في دقائق... وهو ما يلقي على مشروع المنع والحصار أسئلة كثيرة... ويعود بالسؤال إلى منطقة تحصين الذات من الشيطان، لا محاولة منع الشيطان من أن يقوم بعمله لو صح التشبيه. وهذا بالضرورة يعني مقاربة جديدة لتصوراتنا عن إدارة الحياة الفاضلة، فالعصر وتطوّراته من العمق بمكان بحيث تستدعي تصورات جذرية لا تصورات سطحية تتظاهر بأنها تحلّ المشكلة ولكنها تفاقمها.

فمشكلة المتدين مع الفنون مشكلة عميقة؛ فمن الموسيقى إلى المسرح إلى السينما إلى أدوات التواصل كالكاميرا والنت... كلها قضايا عالقة لم نخلق لها تصوراً فلسفياً وعاملناها بمسطرة قانونية فقهية بينما الأصل أن نضع لها تصوراً فلسفياً سابقاً لإدانتها أو احتضانها... فمنع كلّ ذلك في هذا العصر مُحال عملياً... ومنع الناس من التواصل مع كل هذه المنتجات مُحال، ومنع استخدام الأدوات مُحال، والساعي إلى المحال أخرق... ولكن الممكن هو ترشيد عقل المستقبل ووعيه فينتقي ويختار... والإبداع في المنتجات المنافسة...

وقبول المنافسة والتحدي واليقين أن البشر على الرغم من الحرص فهم قابلون للغواية: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وجاء في الآية هذا التحدي من قبل الشيطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]، فالعدد الكبير قابل للغواية ولكن بعض البشر محصنون بالإيمان، فحصن الإيمان هو مكان العدد الأقل بنص القرآن... إن تطورات البشرية تلقي على الداعين إلى الفضيلة في العالم عبئاً كبيراً ولكنه قدرهم ولا يمكن الهروب من استحقاقات التقدم البشري بمجرد منعها.

> إن الدعوة إلى تصحيح عقائد الناس وأخلاقهم وتصوراتهم هي الدور المنوط بأولئك الذين يسعَون إلى أن يكون المجتمع أكثر أخلاقاً وتديناً، وهذه هي معركتهم، معركة دعوة لا معركة إجبار وإكراه، معركة إقناع لا معركة خوف وهروب من الأسئلة التي يطرحها الواقع وتحدياتها.

١١ ـ الخلافة بين المخيال والواقع

الاسم والمسمى

لفظ خليفة... يستخلف... خلائف... خلفاء... يستخلفكم... يستخلفنهم... ورد في القرآن بمعنى يعقب... فرد يعقب آخر... وجيل يعقب جيل... وصالح يعقب صالح... وليس أمراً بإقامة أي نوع من أنظمة الحكم... ولا هو حديث عن نطاق جغرافي محدد.

والمتبادر إلى الذهن اليوم أن معنى المطالبة بالخلافة هو إنشاء نظام سياسي موحّد للمسلمين؛ بحيث يكون لهم رأس للسلطة تتبعه ديار الإسلام، وبالتالي، يعود الأمر إلى ما كان

عليه على الأقل في المخيال، أو هكذا يتصور الداعون إليها أو إلى ما ينبغي أن يكون عليه الوضع.

فنحن نستدعي فكرة مؤدّاها أن هناك بشراً يسمّون مسلمين، ويلزمهم قيادة سياسية توحّد شأنهم وتقوم على أمرهم... وهي بهذا المعنى تستمد حجاجها من الحجاج ذاته الذي يتكلم عن الدولة الإسلامية وتندمج فيها، ولكن بشكل أكبر ينتظم أمماً وأعراقاً ولغات شتى، ومصالح اقتصادية وسياسية شتى ومكونات ثقافية وبيئية شتى... وتركُّزَ مواردٍ وبشرٍ متباين في نطاق جغرافي يمتد من الأطلنطي إلى الصين ويخترق كل القارات.

استدعاء الفكرة

الناس تستدعي الفكرة وفي مخيالها تصوّرات مختلفة، فبعض يريد لحظة الخلافة الراشدة بحذافيرها، خليفة يُبايع ولو حتى في خيمة في أفغانستان ويتسمّى بالخليفة وتُطلَب له بيعة الأمصار فيعيّن ولاته على الأقطار، هكذا يرون المشروع في شكله الخام، وهناك من أعدّ له دستوراً كحزب التحرير معتمداً على النصوص التراثية وينتظر جيشاً يعطي قيادته صفقة اليد لتقوم دولة الخلافة وتنطلق لتضم الأقطار إليها، ومنهم كما نسمع في سوريا اليوم من يريد للناس في بلاد الشام والعراق أن يبايعوا أميراً وهم يجهلون حتى اسمه، ولا يعرفون من هو، وليس لبقية مكونات المجتمع أي رأي في الموضوع، بل هو يفرض عليهم فرضاً كخطوة أولى في طريق تحقيق الخلافة المنشودة.

ومنهم من يرى أنها أشبه بالوحدة الأوروبية تتمّ بنظام

حديث تداولي، المهم هو عودة الوحدة بمضمونها لا بشكلها هذا عند بعض.

تاريخ الخلافة

لم تكن الوحدة الترابية موجودة بالمعنى المعاصر، ولم تكن الدولة حاضرة بجيشها النظامي وشرطتها في كل الأقاليم، وكانت حركات التمرد باستمرار تسيطر على مساحات من الأرض وتنطلق منها... لم يكن في معظم التاريخ عصر استقرار، فعصر أبي بكر (رضي الله عنه) كان عصر حروب الردة (سنتين) لتأمين الجزيرة في وجه أناس يفترض أنهم مسلمون... وتلاه عصر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وهو عصر التوسع الاستراتيجي «وعصر سيطرة للقلب أي المدينة على الأطراف المفتوحة بشكل صلب»... وفي عصر عثمان وبعد ست سنوات منه بدأت سلطة المركز تتزعزع... وانتهت خلافته بمقتله، وازداد تزعزعها في فترة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وظهرت فرقة الشام بقيادة معاوية وفرقة الخوارج، وجاء العصر الأموي واندلعت الثورات من كل مكان، وهي التي أدت في النهاية إلى انهيار الدولة الأموية التي استمرت من سنة ٤٠هـ وحتى ١٣٢هـ وإليك قائمة الثورات:

الثورة	العام الهجري
ثورة الحسين	٦١
ثورة ومبايعة عبد الله بن الزبير خليفة في الحجاز	٦١
معركة الحرة ضد الخوارج	٦٣
حركة التوابين	٦٥
ثورة المختار الثقفي	٦٧

معركة الجاثليق ضد مصعب بن الزبير	٧٢
حصار عبد الله بن الزبير ستة أشهر على يد الحجاج	٧٣
ثورة الخوارج	٧٧
ثورة الخوارج	٧٨
ثورة ابن الأشعث	٨٢ ـ ٨٥
ثورة يزيد بن المهلب	١٠١ ـ ١٠٢
ثورة الخوارج	١٢٢ ـ ١٢٤
التحضير للثورة العباسية	٩٧ ـ ١٢٧
الإعلان عن الثورة وإسقاط الأمويين	١٢٨ ـ ١٣٢

ها نحن نكتشف أن العصر الأموي على كثرة فتوحاته إلا أن قلب الدولة لم يكن مستقراً على الرغم من وحدة العرق العربي وسيطرته على القلب، وأن الصراع لم يكن فقط لمن هم من خارج قريش بل من العصبة القرشية ذاتها.

وليس الحال في الدولة العباسية بأفضل منه في الدولة الأموية فقد قامت عام ١٣٢هـ:

الحدث	السنة الهجرية
ثورة النفس الزكية (ثورة علوية)	١٤٥
إبراهيم بن عبد الله (ثورة علوية)	١٤٥
ثورة علوية	١٦٩
ثورة علوية	٢٠٠
ثورة علوية	٢٠٢
ثورة علوية	٢١٩

واستمرت ثورات الخوارج في الجزيرة وفي المغرب العربي حتى بلغت المعارك في المغرب فقط في عهد المنصور ٣٧٥ معركة لحسم التمرد.

ولم يكن العصر العباسي الثاني سعيداً، فقد سيطر الأتراك على قلب الدولة فأصبح تعيين الخلفاء وعزلهم وقتلهم وإذلالهم وسمل أعينهم ونهب قصورهم أموراً عادية، ويمكن الرجوع إليه في قصص العصر الثاني والثالث للدولة العباسية. وجاء عصر السلاجقة (تأمل قائمة الدول المنشقة على الخليفة واقرأ وضعيتها في علاقتها بالخليفة لتعرف الفارق بين الواقع والمخيال) (**التاريخ الإسلامي الوجيز**). وتبعه عصر المماليك والخلافة شيء رمزي لا يعني شيئاً في ميزان الواقع، ومع سقوط مصر تحت يد العثمانيين انتهت دولة المماليك عام ١٥١٧م في الريدانية وأرادوا أن ينقلوا الخليفة كحامل أختام إلى إسطنبول فاعتذر وسلّمهم الأختام وتنازل عن الخلافة، وأصبح سلاطين بني عثمان يلقبون بالخلفاء. وتاريخ الأندلس لم يشهد هو الآخر أي وحدة سياسية بل انتهى إلى دويلات الطوائف المتحاربة في تاريخ الإندلس.

إن التاريخ يخبرنا كثيراً عن فكرة الخلافة في واقعها العملي في عصرها الأول، ولكن العقل المسلم لا يستدعيها كما هي في الواقع كتجربة إمبراطورية بكل تعقيداتها والصعوبات التي واجهتها، وبكل الفشل والنجاح الممكن في التجارب البشرية، ولكن يستدعيها كـ «يوتوبيا» وهي تصور مثالي يمكن أن نراه في فكرة الحياة الكاملة في السياق الديني، ويمكن أن نراه في فكرة، مثل: الماركسية بدولة المشاع التي يتساوى فيها الناس تساوياً كاملاً، وكل أيديولوجيا لها عالم تطلع كامل تدعو الناس

إليه، يسبغ عليها كل أوصاف الكمال على الرغم من أن كتاب التاريخ لا يقول ذلك، ولكن الاستدعاءات المنتقاة تقوم بالمهمة التسطيحية للعقل.

فليس هناك يوتوبيا في الماضي ولن تحدث في المستقبل، ولنعد إلى الواقع إذاً.

والواقع اليوم أشد تعقيداً من الماضي، وإنشاء إمبراطورية ممتدة من المحيط الأطلسي إلى الصين يعني امتلاك موارد وعلم ومعرفة قادرة على مواجهة التحديات التي تفرضها هذه المساحة الجغرافية من داخلها وخارجها، ولننظر أولاً إلى مدى نجاحاتنا في إدارة الكيانات الصغيرة لدول ما بعد الاستقلال؛ لنعرف مخزوننا الثقافي ووحدتنا الفكرية وقدرتها على تكوين خميرة وحدة محلية.

كيف يمكن أن ننجح في اختبار اليمن أو الصومال أو لبنان أو حتى في حالة أي كيان يبدو ملتئماً الآن في حالة تعرضه لما تعرض له العراق أو الشام؟ إن الاختبارات الصغيرة كاشفة عن تعقيد الموقف الذي أمامنا فلو نظرنا في أي دولة من دولنا القائمة لوجدنا معضلات الوحدة مصغرة... وهي تبدأ من معضلة التنظيم السياسي المتوافق عليه... إلى مسألة الاقتصاد والعدالة الاجتماعية، وإلى القضايا الاجتماعية والفوارق العرقية والنفسية... وتمتد إلى مسائل التطور العلمي والتكنولوجي... إلى قضايا الحقوق والقانون... إلى قضايا البيئة والموارد... إلى قضايا البيئة الإقليمية والبيئة الدولية وتدخلاتها... قائمة كبيرة تحدد شروط الإمكان، ولا يبدو أننا على المستوى المطلوب الصغير والمايكروسكوبي قادرون

عليها، فما بالك بالمستوى الكبير وما فوق الكبير أي الإمبراطوري.

إن فكرة الخلافة أو الإمبراطورية هي حلم الأحلام بالنسبة إلى أمم الأرض أو أغلبها عبر التاريخ، ولكن التاريخ يقول: إن الإمبراطوريات كما تظهر تختفي وكما تقوم تنهار.

الاستدعاءات الدينية

حين يصل الحوار إلى هذه النقطة يخرج لك شخص مستدعياً حديثاً نصه في **مسند** أحمد: «حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، حَدَّثَنِي دَاوُدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنِي حَبِيبُ بْنُ سَالِمٍ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كُنَّا قُعُوداً فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ)، وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً يَكُفُّ حَدِيثَهُ، فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ فَقَالَ: يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ، أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) فِي الأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ، فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): «**تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكاً عَاضّاً، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ**». ثُمَّ سَكَتَ. قَالَ حَبِيبٌ: فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ فِي صَحَابَتِهِ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ أُذَكِّرُهُ إِيَّاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَمِيرُ

الْمُؤْمِنِينَ - يَعْنِي عُمَرَ - بَعْدَ الْمُلْكِ الْعَاضِّ وَالْجَبْرِيَّةِ، فَأُدْخِلَ كِتَابِي عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَسُرَّ بِهِ وَأَعْجَبَهُ».

هذا الطريق انفرد به دواد بن إبراهيم الواسطي عن حبيب بن سالم.

قال الدكتور أبو صهيب خالد بن محمود الحايك في موقعه[٧] معلقاً على الحديث بعد استقصاء سنده. . . : «إن داود بن إبراهيم الواسطي الذي روى عنه أبو داود الطيالسي هو العقيلي وهو قاضي قزوين **وهو متروك متهم بالكذب**».

وقبل أن يحكم عليه الدكتور الحايك تضاربت الروايات في معناه فمن شرحه من الأقدمين اعتبر أن موضوعه انتهى بخلافة عمر بن عبد العزيز والغالب أن الحديث صيغ للتقرب من الخليفة عمر بن عبد العزيز.

إن الخلافة بمعنى الوحدة السياسية، وإن كانت مطلباً مشروعاً لأي مجموعة بشرية تريد أن تزيد قوتها إلا أن متطلبات مثل هذا المشروع ليس بالقطع حماسة لغوية، ولكن التشمير لخلق نماذج ناجحة لأوطان فيها لحمة وطنية وبنى مستقرة تستطيع أن تتقدّم في أي مشروع وحدة مع آخرين بخطى واثقة وبالتزام تستطيع أن تفي به.

(٧) <http://www.addyaiya.com>.

خلاصة:

ما أعتقده في هذه اللحظة أن النجاح يجب أن يتم في إقامة الدولة القطرية الناجحة التي تعطي نموذجاً للنجاح الخلقي والقيمي والمادي، وأن يقدم نموذجاً لإمكانية بناء وحدة سياسية على أساس الاتفاق في المبادئ والقيم بين بعض هذه الوحدات، وأن الحديث عن أي شيء مثل فكرة الخلافة الشاملة في هذا الوضع هو كلام لا أرضية له ولا يدل عليه شيء من الواقع، فمن أفغانستان إلى اليمن إلى السودان إلى الصومال إلى الجزائر إلى ليبيا إلى مصر، عجز التصوّر القائم عن إيجاد استقرار بين الفصائل الإسلامية ناهيك بمجموع المكون الوطني، وبالتالي الحديث عن ما هو أكبر من ذلك هو نوع من الخبط في الظلام، بينما نجاح واحد على مستوى دولة واحدة سيغني عن أطنان من الكلام، ووحدة بين دولتين صغيرتين وفق هذا النموذج ستغني عن أطنان من الكتابات والاشتباكات اللفظية، والتكليف مرهون بوضوح المعنى والمحتوى فأركان الإيمان وأركان الإسلام والمعلوم من الدين بالضرورة استمر العمل به عبر العصور، أما هذا النوع من الأسئلة فسيبقى عالقاً كجزء من آلام العقل المسلم التي مجالها الظن والاجتهاد والتي تفوق الحصر.

الفصل الثاني

التنظيمات الإسلامية وأفكارها

الإخوان نموذجاً

مقدمة

١ ـ صعوبة الحوار مع أفراد التنظيمات

الشاب العربي سواء كان في بلده أم سافر للدراسة سيجد نفسه في عالم يدعوه إلى الانضمام إلى المجموعات الإسلامية المنتشرة... وحين كنا طلبة في القاهرة عام ١٩٧٣م، كان اليسار نشطاً وخاصة الشيوعيين، وكانوا حينها يستقبلون الطلبة من مطار القاهرة، والأمر يبدأ بعرض توصيلة من المطار مجانية ثم إلى السكنى معهم ريثما يجد الإنسان شقة، وبعد حين يكتشف أنه في بيئة تنظيمية، وعليه أن يختار الاستمرار مع الرفاق أو الخروج من تلك البيئة الدافئة والصديقة. ولكن مع الوقت تقلصت الجماعات اليسارية وبرزت الأنشطة الإسلامية واستقطبت الشباب من شتى الطبقات.

لقد أجّلت الحديث عن فكرة التنظيم الإسلامي وبدأت الكتاب بالأفكار المعيقة لأنها نتاج الفكر التنظيمي في الغالب وهي أدواته لعمليات الاستقطاب والبحث عن الأنصار، والآن حان الأوان للحديث عن التنظيمات الإسلامية التي تنافح عن

الأفكار السابقة لنرى علاقتها بتقدم الأمة أو تخلّفها، وهل هي الحل أم هي جزء من المشكل؟

في البداية أقول: إن التنظيمات يسارية كانت أم إسلامية أو غير ذلك، تنطلق من إيمانها بمشروعية أفكارها وما تعتقد أنها أهداف نبيلة تستحق التضحية، وهي في الواقع العملي إمّا أن تجد شرعية قانونية صريحة أو ضمنية أو تجد نفسها مُجرّمة مُطاردة...

فبعض الدول تختار أن تمنح تصريحاً قانونياً يجعل هذه الجماعات ظاهرة على الأرض بقدر ما... في شكل جمعيات أو أحزاب، وبعض الدول تتجاهل وجودها رسمياً وتتابعها لتضمن أنها تعمل في دائرة المقبول، وبعض يُجّرمها ويصادر حقها في الوجود... هذا كله قائم مشهود.

أما الموقف الشرعي من الجماعات بشتى أشكالها فهي تدخل في دائرة أعمال المُكلّفين، فيصبح حكمها إما الوجوب أو الندب أو الإباحة أو الكراهة أو الحرمة؛ بحسب ما تشكّله من خير أو وبال... ولكن كل ذلك ليس غرض البحث... بل غرضه بحث الأفكار العميقة التي لا ينتبه إليها العاملون في التنظيمات وتضر بمجمل مشروع الأمة في التقدم والنهوض، والممارسات الخاطئة التي يتربون عليها، أحياناً، وتسيء إلى الإسلام ووحدة المسلمين، بل أحياناً إلى الإنسانية وإلى صورة الإسلام كدين.

والحديث للمتدين المنتمي إلى تنظيم صعب بل في غاية الصعوبة، لأنه يتلقى كمّاً من الشحن ضدّ أي فكرة للمراجعة، وكم

من التبريرات لكل أنواع الأخطاء، وكم من الشك والعدائية للمختلف... بل بترسانة تُهَم جاهزة، وآلية توليدها متعلقة بالمؤامرة الكونية على الدين... إن معّادلة الانسداد على السطح بسيطة:

كمٌ من الشحن ضد أي فكرة للمراجعة

+

ترسانة مبررات للواقع والتاريخ

+

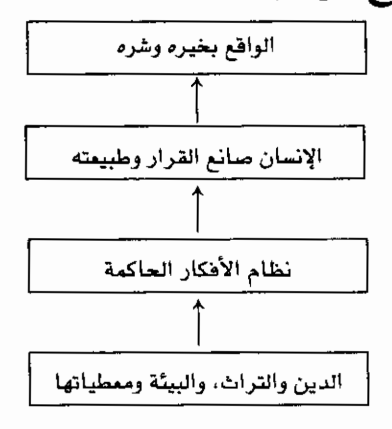
كم من الشك والعدائية لكل مخالف

=

انسداد أفق الإصلاح

ومن هنا تكمن صعوبة الحوار مع أفراد هذه البنى التنظيمية وقياداتها سواء من داخل التنظيمات أو من خارجها، ولكن في عصر التواصل المفتوح لا بأس من المحاولة.

٢ ـ الواقع ناتج من قرارات



لا يختلف اثنان على أن الواقع الذي نعيشه في العالم العربي والإسلامي في المجمل العام ليس على ما يرام، فالفقر والجهل والمرض والحروب وانعدام الحريات باستثناء إشراقات في بقع ما، وفي جوانب بعينها هو السائد العام في المنطقة.

فالجمهور العربي بشكل عام يختلف في كل شيء إلا أنه يتفق على عدم الرضى بواقعه... والحقيقة أن البشر في كل مكان في العالم عندهم ما يشتكون منه، ولكن المسألة نسبية فمن لا يجد قوت يومه أو بيت يأويه أو مدرسة تعلمه أو مستشفى تطببه أو دولة تحميه من جور الداخل والخارج، غير من يشتكي من غياب الكماليات: كالمنزل الفاخر والمركب الهني ورفاهية قضاء العطلة في الخارج مثلاً.

وحين ننظر إلى ما هو أعمق من السطح سنجد أنفسنا أمام الإنسان صانع القرار مدججاً بمناهج عقلية قويمة أو مختلة، فالمجتمعات التي وجدت لها مناهج عقلية قويمة طوّرت واقعها، والمجتمعات التي اختلت منظوماتها الفكرية وقعت في أسر التخلّف وساهمت في بناء أقفاصها أيضاً.

ولو نظرنا إلى أعمق من ذلك سنجد منظومات الأفكار التي يتغذى منها المنهج على نوعين: أفكار مصنّعة في أحيان كثيرة تتمتع بالصلابة الحقيقية، أو مزيفة لا حقيقة لها، فما هو حقيقي يمكن الدفاع عنه بالدليل والبرهان، وما ليس بحقيقي تغذّيه العاطفة ويسيَّج بنطاق من القداسة يمنع مساءلته.

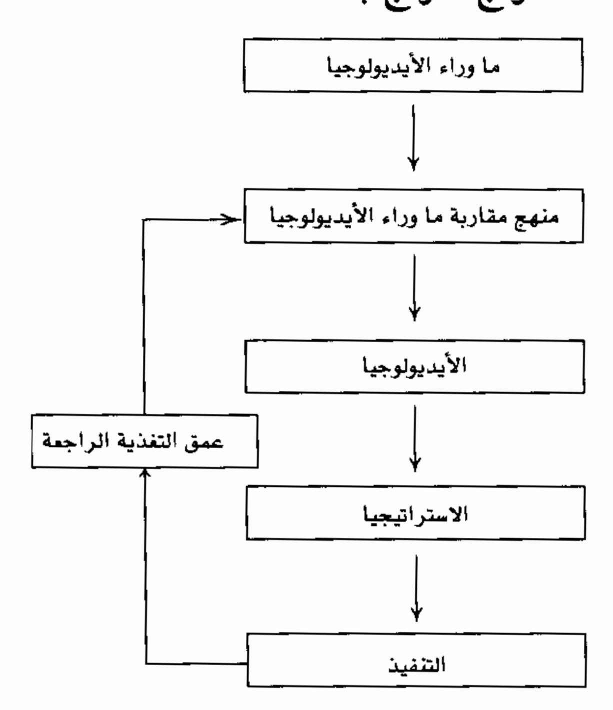
وتحت ذلك كله نجد الدين كنص، والتراث كاجتهاد بشري، والبيئة التي يعيش فيها المرء وأنماطها العقلية وما تُغذّي به الإنسان من تفسيرات وحكم وأمثال ومخاوف.

وإصلاح الواقع السيّئ إن وجد هو ابن المراجعات الجادة والإصلاحات التي تخترق كل هذه الأبنية... وأي أمة لا تفلح في رؤية كل هذا النظام وهو يعمل في واقعها لا تحقق نهضة حقيقية.

ولكن ما الذي يمنع من المراجعة الجادة في الجماعات الإسلامية والأيديولوجية عامة؟

٣ ـ كيف تُصنع الأيديولوجيا؟

سنسمي هذا النموذج نموذج بسط القداسة



كل المجتمعات يوجد عندها تراث فكري بشري ونص ديني بمعنى ما، والأمة الإسلامية لديها الكتاب والسنة واجتهادات أهل العلم في شتى المجالات... وحين يدخل النص البشري المضاف لدائرة الدين يدخل في دائرة الهالة التاريخية يُحصّنه الناس بالقداسة... فالنص غير المنزل وغير الوحي أو بعبارة مباشرة النص البشري الاجتهادي يكتسب بسبب القدم هالة من الاحترام الذي يمنع مساءلته فيصبح حال القائل وكأنه يتصرف باعتبار أن التراث صحيح لأنه قديم وليس لأن الدليل قام على صحته، فتلك دائرة القداسة الأولى.

وفي الحالة الإسلامية وعند المؤمنين، النص القرآني وما صح من السنة يدخل بحكم الدين في دائرة المقدس، وهو الأمر الطبيعي عند المؤمنين.

فالبشر ينحتون طرقاً للتواصل مع المقدس الحقيقي

عبر منهج يضمن التحقق من الورود أولاً... كمناهج المحدثين مثلاً في العلوم المتعلّقة بالتحقيق في علوم الحديث والأخبار مثلاً، أو **مناهج استنباط واستقراء كمناهج المفسرين في** الاقتراب من النص القرآني عبر أصول التفسير، أو **مناهج الفقهاء في** الاقتراب من النصوص الجزئية المتعلقة بأعمال المُكلّفين عبر مناهج نحتها علماء أصول الفقه.

وهذه المناهج التي نُحتت تفاوتت في دقتها ودرجة علميتها بحسب واضعيها ومنهجياتهم. وكلها تدور حول معنيين: معنى التحقق من الورود وسلامة النقل، ومعنى الاستنباط والاشتقاق من النص وإنزاله على الواقع التداولي والعملي. ولأنها وضع

بشري تفاوتت واختلفت المنهجيات واختلفت مخرجاتها سلامة ودقة.

ثم يأتي في الحركات الإسلامية دور المُنّظر أو رجل الأيديولوجيا، وهو عادة شخصية واسعة الاطلاع، متصل بالتراث، ينحت منهجاً للاقتراب من التراث، ويواجه واقعاً ما؛ فيبحث له عن تفسير مقبول، فإن وجده عاد إلى الحادثة التاريخية وإلى النص المقدّس لإثباته، ثمّ رسم صورة للمستقبل المطلوب، ثم اقترح طريقة للوصول إلى هذا المستقبل المطلوب. وهو بعدها إمّا أن يُكمل الطريق في مسيرة وضع الاستراتيجية المحددة لتغيير الواقع، أو يأتي من يقوم بذلك مستعيناً بأفكار المُنظِّر الأساس.

لنضرب مثلين حيّين لفهم ذلك: واحد من البيئة العربية وآخر من البيئة الغربية:

المنظِّر الأيديولوجي	حسن البنا
سعة الاطلاع	موسوعي شامل
التراث	الإسلامي
الدين	الإسلامي
المنهج	الحجاج من داخل المنظومة الفقهية التفسيرية الإسلامية، ضمن اختيارات منها
الواقع	سقوط الخلافة + الاحتلال البريطاني + نظرية رشيد رضا
التفسير للواقع	العقدة في غياب الالتزام بالإسلام كمنهج حياة كامل

الحلّ	العودة إلى الإسلام بشموله
العودة إلى التاريخ لتدعيم التفسير	تمثل رسالة بين الأمس واليوم والإشارات للحركات التغييرية في العالم، التدعيم التاريخي للنظرية (التجربة العباسية + تجربة الحزب النازي في ألمانيا)
رسم صورة للمستقبل (يوتوبيا)	المستقبل عودة الخلافة وقيام دولة الإسلام العالمية التي ستخلصنا من الضعف ويسعد العالم بها
وضع سبيل مقدس للحل (الاستراتيجية)	التعريف والتكوين والتنفيذ (مع دعوى أنه هو السبيل الذي اختطته كل الدعوات الناجحة)
الأداة	جماعة الإخوان المسلمين وأشكال العمل والتطبيق
المنظر كمنفذ	وضع النظرية، وأنشأ آلية التنفيذ وقادها

المنظر الأيديولوجي	كارل مركس
سعة الاطلاع	موسوعي
التراث	الغربي بشقيه الديني واللاديني
الدين	لاديني
المنهج	التحليل الفلسفي السائد في أوروبا واختار منهج الجدلية المادية أو العلمية بحسب رأيه
الواقع	الثورة الصناعية وسوء أحوال العمال
التفسير للواقع	من يمتلك وسائل الإنتاج يستغل البشر

الحل	انتزاع وسيلة الإنتاج من الرأسمالية
العودة إلى التاريخ لتدعيم التفسير	عصر المشاع، عصر العبودية، عصر الإقطاع، عصر الرأسمالية المتوحشة (العصور الأربعة الأخيرة كلها تشترك في احتكار ملكية وسائل الإنتاج)
رسم صورة للمستقبل (يوتوبيا)	العودة إلى عصر المشاع أو الملكية العامة لوسائل الإنتاج من دون أي احتكار
وضع سبيل مقدس للحل (الاستراتيجية)	الحزب الشيوعي يعيد الوعي إلى العمال بحقوقهم، ويحرضهم على استخلاص أدوات الإنتاج من أيدي الرأسماليين، ثم تقوم الدولة الاشتراكية كمرحلة للوصول إلى دولة المشاع المفقودة
الأداة	الحزب الشيوعي
المنظر كمنفذ	وجدت نواتها التنفيذية في روسيا على يد لينين، لا في الغرب الرأسمالي

في كل الأحوال، هناك المنظّر الذي يُفسّر الطريق ويقترحها، وهو حين يقترحه يضعه في صياغة جازمة لا تحتمل لبساً، مثل حال المنظّر المسلم حين يقول: «هكذا سارت الدعوات الناجحة ودعوة الرسول عليه الصلاة والسلام»، وفي حالة المنظّر الماركسي حين يقول: «هذه هي النظرية العلمية التي سار بها التاريخ»، كما في حال ماركس مثلاً.

والأيديولوجيا بهذا المعنى المتسامي على الاجتهاد والمتساوي بطريقة ما مع الدين أو مع العلم تجعل استراتيجية

الحل ذاتها مقدسة، لأنها إما طريق الأنبياء أو طريق العلم الحق.

وتجعل الأداة المقترحة تدخل النطاق ذاته... فهي الحل الوحيد المحتمل لمشكل الواقع المتغير، فهي تتمتع بالثبات والديمومة سواء تحقق الهدف أم لم يتحقق.

بل تجعل الأسماء والمسميات داخلة في القداسة تضميناً باسم الثوابت وما لا يجب الاقتراب منه.

وعندها يصبح الخطأ باستمرار لا ينتج من أي شيء مما سبق... بل هو باستمرار ناتج من عدم فهم الناس للفكرة، أو صعوبات الواقع أو المؤامرات الكونية، أو سوء التنفيذ، ولكنه بالمطلق لا يمكن أن يكون بسبب:

- ✓ الاشتقاق والتأويل الذي اختطه المنظّر؛
- ✓ أو الاستراتجية التي اقترحها؛
- ✓ أو الشكل التنفيذي الذي بلوره؛
- ✓ أو تغير الواقع.

هكذا تنسحب القداسات من المقدس الحقيقي إلى المقدس الموهوم، وتستحيل بعدها المراجعات الجادة، وتتوالد الاعتذارات الساذجة، فالمطلوب باستمرار حماية المقدس الموهوم لا مساءلته.

فجوهر أي نظرية هو محاولة تفسير ظاهرة أو ظواهر والربط بينها ومحاولة إثباتها. ومنظّر الأيديولوجيا السياسية باستمرار هو شخص يواجه واقعاً يقترح له تفسيراً معيناً، ثم

يعود إلى التاريخ وما وراء الأيديولوجيا لإثباته، ثمّ يرحل إلى المستقبل ليرسم لحظة وردية قادمة لا محالة ويضع طريقاً أو برنامجاً لاستخلاص نظام القوة القائم... وباستمرار يكون العرض على أن هذا الحلّ كان، وهو اليوم، وسيبقى في المستقبل هو الحل الوحيد للمعضلات... فتكتسب الأيديولوجيا باستمرار قابلية عبور الزمان والمكان.

٤ ـ كيف تسوّق المنظّمات نفسها؟

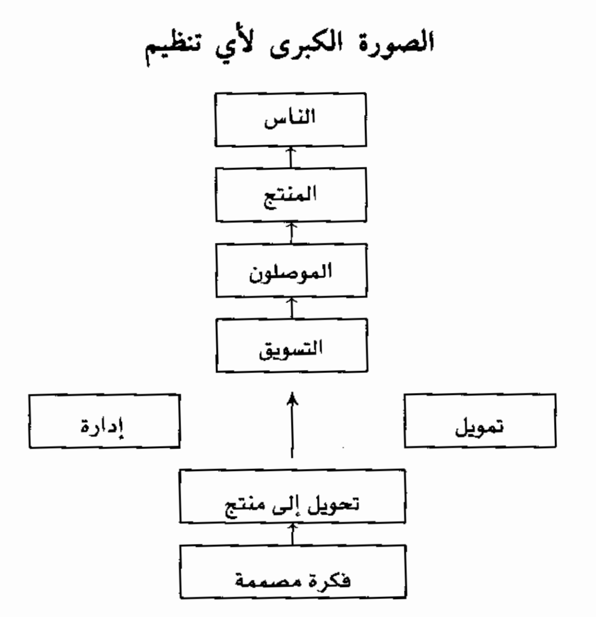
الاجتماع البشري

لا ينكر عاقل أن الاجتماع على الخير وللخير واجب شرعاً وعقلاً، وأن العمل المنظم غير العمل الذي يخضع للفوضى والارتجال... تلك مسلّمة بسيطة لا يقول بغيرها عاقل، وذلك ليس موضوع الحديث هنا.

إن السؤال الحقيقي ليس عن التنظيم كمسلّمة فكرية، ولكن عن فكرة التنظيم وبيئته وأهدافه وطريقة عمله، ومنظومته الفكرية التي يقف على أساسها، ذلك هو السؤال.

نحن نتحدث عن المضمون والمحتوى والممارسات والمآلات للتنظيمات القائمة في عصرنا بمنظوماتها الفكرية، وسنبدأ بفكرة عامة:

الصورة الكبرى لأي تنظيم



لنبدأ من نموذج أي شكل للعمل المنظم، فهو يبدأ من فكرة يتم تصميمها أو أيديولوجيا يتم نحتها، وتحمل معها وعداً للجماهير بأنها لو ناصرتها فستقدم إليها شيئاً ما تراه أفضل وأنضج من الوضع القائم، يكون غالباً مُحمّلاً بكثير من الطموحات والأحلام، فمثلاً في نهاية المطاف للشعوب العربية والإسلامية، ستقدم دولة الإسلام العدل والحرية والوحدة الإسلامية، وسيجد كل عاطل عملاً، وكل راغب في الزواج بغيته، وكل محروم من السكن منزلاً، بل تمتد لاستعادة الأندلس ولفتح روما. إنها يوتوبيا كاملة فيها كل ما يتمناه أي شعب له ذاكرة إمبراطورية من نوع ما، وتراوده أمنية أن يحكم ويسود.

وداخل هذا الوعد تأتي فكرة المنتج الذي سيجعل كل ذلك ممكناً، وهو وجود النظم الإسلامية التي تجيب عن أسئلة الواقع

السياسي والاقتصادي والاجتماعي والمحلي والدولي والأخلاقي، التي يمنع من ظهورها نظام الاستبداد ومن يناصره.

هذه النظم حين تظهر للناس ويرونها ويرون نتائجها ستكون هي إجابة عن كل تساؤل وحلّ لكل معضل... هذا ما يقوله المنظِّرون... هذا ما تقوله المنابر... هذا ما يردّده الأفراد: «الإسلام هو الحل»... وتصل الجماعات إلى الحكم فتفشل في إيجاد تعاقد يصون وحدة الوطن، وتفشل في التنمية، وتفشل في الحريات، ولا يرى الناس نظماً جاهزة ولا قدرة على نحتها، بل يرون تخبطاً يُحال على نقص الخبرة لا على خطأ الفكرة. فيأتي غيرهم ويقيم الدعوى نفسها ليقول للجماهير: هؤلاء لم يطبقوا الفكرة بطريقة صحيحة «نحن مختلفون» وتصدّق الجماهير ثم تُعاد الكرّة بالمنوال ذاته... لست هنا في معرض ذكر الدول والتمثيل... ولكن هذا هو واقع الحال.

ولقائل أن يقول في كل مرة: لم يمضِ علينا سوى أيام في السلطة، وهل سنستطيع حل تراكمات ضخمة كالتي تركها الاستبداد عبر زمن طويل في زمن وجيز كالذي أتيح لنا؟ والسؤال صواب لو صورحت به الجماهير مسبقاً وقيل لها: إننا لا نمتلك سوى الإخلاص والنوايا الحسنة وسنحاول إصلاح ما كان... وعمل ما هو ممكن في حدود ما تسمح به الظروف المحلية والدولية... لو قيل صراحة إننا نمتلك مبادئ وتصورات عامة عما ينبغي أن يكون لا أننا نمتلك تصورات واضحة وخططاً محكمة لبلوغ المطلوب... ناهيك بأن يقال: إن هذا الحل مصدره الدين!

ولكن السؤال المنطقي: لماذا الاستعجال على الوصول إلى الحكم ما دامت الخبرة قليلة والمنتج غير جاهز؟ ويسارع رجل التنظيم ليقول لك: ومن أين لنا أن نكتسب الخبرة إن لم نكن في قيادة المركب؟

والسؤال المقابل: لم لا يتم مصارحة الجماهير حقيقة بأن المرحلة هدفها هو اكتساب الخبرة، وليس الانطلاق والتقدم بالمجتمع؟

تلك هي معضلة الحالة الإسلامية، ففي قمتها عند القيادات:

✓ علم بعدم وجود المنتج أو النظم ورغبة في التجربة؛

✓ وعند الأفراد في القواعد وهم وجود النظم وحضورها كما تروج القيادات.

الخلاصة هنا: إن الحلول الموجودة عند الفصيل الإسلامي أياً كان في التعاطي مع الواقع هي الحلول ذاتها الموجودة عند كل البشر، لا شيء سماوياً مقدس، فحلّ الاقتصاد في مشاريع التنمية، وحل السياسة في التعاقد الوطني الصحيح، وحل العلاقات الدولية في احترام العهود والمواثيق، وفي هذا قد تصيب فتنجح وقد تخطئ فتفشل. والذي ينجح أو يفشل في كلّ الأحوال هو البشر، أما المبادئ والقيم الدينية تبقى نبراساً للجميع تنير دروب الإنسان، والخلط بين المساحتين هو ما يسبب الإرباك.

٥ ـ المنظمات والأيديولوجيا

حين ننظر إلى المنظمات ونحاول أن نسبر عالمها، نحتاج إلى أن ننظر إلى مكوناتها الكبرى قبل النظر إلى ما علق بها مع الزمن:

١ ـ الأفكار المرجعية التي تعطي مبرر الوجود.

٢ ـ الاستراتيجية وموجهاتها.

٣ ـ الشكل التنظيمي والثقافة المحددة.

٤ ـ الأفراد.

٥ ـ النظم.

٦ ـ المهارات.

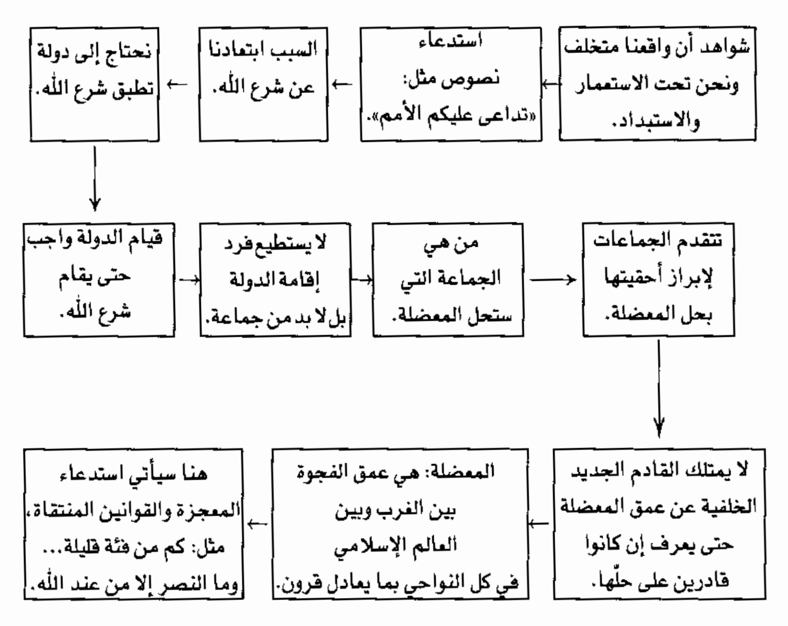
٧ ـ نمط القيادة.

وسنكتفي هنا بالنظر إلى هذه المنظّمات من حيث مبرر الوجود وطرق عملها وأثره.

مبرر الوجود: ما له وما عليه

تجد المنظمات الإسلامية مبررات وجودها من مزدوج: أزمة الواقع المتخلّف من ناحية، وبنية النص المستدعى من ناحية أخرى، وبينهما قواعد رابطة من أصول الفقه الإسلامي.

نموذج التدرج في الاستقطاب



ملاحظات

• العقل التنظيمي دائماً يستدعي القوانين بشكل مُجتَزأ، فمثلاً: حين يذكر قانون القلّة المنتصرة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، لا يذكر القوانين الموازنة مثل: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فالنسبة هنا منضبطة وهي ١٠:١ أو ٢:١ بحسب القوة أو الضعف ولا يستدعيها في سياق التاريخ ونوعية التسلّح الذي كان يعتمد على الكم البشري وليس على نوعية السلاح ولا على العناصر الأخرى، مثل: المعلوماتية وعنصر المفاجأة والتقنية وغيرها... وبالتالي، يسطح المفهوم باستدعاء

المعجزة. ومجرد ذكر الأرقام في النص القرآني كافٍ في استعادة التوازن العقلي لأنه مع المعجزة فلا معنى لذكر الأرقام.

• عند مواجهة حقائق الواقع بكثافتها يدخل هذا العقل في الشعور بالإحباط بدلاً من أن يشعر بضرورة الانتقال إلى التفكير الموضوعي، وانظر مثال الصين التي كانت تعاني الفقر والجهل والمرض والاحتلال والحرب الأهلية والإدمان والفيضانات والأوبئة، وكيف خرجت من ذلك من دون التفكير في الخوارق ومن دون إلقاء اللوم على الآخرين؛ فنحن نحتاج إلى أن نفهم طريقة التفكير عندما يكون الواقع كثيفاً وصعباً.

إن المنتسب إلى الحركات الإسلامية يتم استنفار طاقته العقلية ومشاعره من خلال التذكير بواقع المهانة الحضارية: «أمة اقرأ لا تقرأ»، «أمة سورة الحديد لا تصنع سلاحها»، «أمة النخيل والأعناب تستورد طعامها»، «أمة خير أمة أخرجت للناس في ذيل قائمة دول العالم»، «أمة ترهبون به عدو الله وعدوكم... أصبحت خائفة من عدوها»، «وأمة...»، ومنها يتم الانتقال بالعقل إلى رؤية الواقع السياسي والاقتصادي الفعلي الذي يعانيه الناس على أرض الواقع... وهنا تأتي نصوص المظلومية لتشكل فضاء آخر تصورياً: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت». ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ

﴿الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، إنها مؤامرة كبرى تتم على الإسلام كل حركة في العالم مقصود بها المسلمون أولاً وأخيراً، فالكشوف العلمية كلها تمت بهدف صرف المسلمين عن دينهم، وكل التاريخ صنعته مؤامرة كونية هدفها إخراج المسلمين من دينهم، كل شيء تم ويتم هو حالة تم التخطيط لها عبر قوى ظلامية في التاريخ... لا تصدق شيئاً مما حولك ولا تثق بحواسك... فالضعف القائم سببه الجوهري هو الخوف من الموت والحلّ هو في استعادة تلك الروح... إنه الجهاد... بطبيعة الحال هذا الجهاد يجب أن يقوم لوقف المؤامرة وكسر شوكة القائمين عليها وهذا يحتاج إلى قوة وإعداد... ومواجهة هكذا مؤامرة تحتاج إلى دولة مسلمة تحمل على عاتقها تلك المسؤولية فأين هي؟ وأين من يقيمها؟

وهكذا ينتقل الحوار إلى مرحلة أخرى... هل يستطيع الفرد أن يقوم بهذه المهمة؟ أليس أهل الكفر منظّمين؟ أليس واجب المسلمين أن ينظموا أنفسهم؟

والسند الشرعي هنا واضح! فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب... فالواجب نشر الإسلام، والواجب سيادة الإسلام، والواجب أن تكون للمسلمين دولة تحميهم، والواجب إقامة شرع الله، وهذا الواجب لا يتم إلا بوجود الجماعة المؤمنة التي تقوم بهذه المهام، والجماعة المؤمنة هي المؤتمنة على ميراث النبوة.

ويصبح السؤال المنطقي: إلى أي جماعة يجب أن تنتمي أيها الشاب؟ والمعروض لا حصر له!

هنا تأتي قضية الأرجحية، ويخرج كل تنظيم مساوئ مناوئيه ويقدم نفسه على أنه الحل:

- من المتمسكون بهدي الرسول ويقومون بدعوة العالمين إلى الخير..؟
- من المتمسكون بسنة الرسول والمنافحون عنها والمتمسكون باعتقاد السلف؟
- من الداعون إلى الخلافة والمتمسكون بطريق الرسول في إقامة دولته؟
- من الداعون إلى الفريضة الغائبة الحاملون أرواحهم على أكفهم؟
- من الأرقّ قلوباً والألين عريكة وأهل الله؟
- من يدعون إلى الإسلام الشامل والممثلون له؟

سوق كبير... تبليغ... سلف... تحرير... جهاد... صوفية... إخوان... تحت كل فكرة ربما فرق وألوان... الكل يقدم بضاعته باعتبارها التمثيل الحق للإسلام، ومع التنافس على الأفراد تظهر كل الصراعات كما بين الكفر والإسلام وأحياناً أشد... فالكافر يُرجى إيمانه، والمبتدع لا يرجى تراجعه لاعتقاده بأن ما يفعله هو الدين...

٦ ـ الأسئلة الكبرى

هكذا يقدم الجميع نفسه باعتباره الحل لمعضلة الواقع... لكن ما هو الواقع؟ وكيف تشكّل؟ وهل بإمكان جماعة من هذه

الجماعات أن تعالجه لو انضم إليها بعض الشباب؟ وما هي فرصة أية جماعة قائمة بمستواها الفكري وسلوكها الظاهر على إقناع الناس بالسير معها في الطريق؟ هل بإمكان أي منها المحافظة على النسيج الوطني لأي مجتمع بمقولاتها الحالية واشتراطاتها؟ وإن لم تستطع أن تحافظ على النسيج الوطني فكيف ستبني الاستقرار اللازم للتنمية والنهوض؟ وهل ستبني الاستقرار بالقوة أم بالتراضي؟ وهل تمتلك القوة لفرض الاستقرار؟ وكم التكلفة وكم يدوم الاستقرار المفروض بالقوة؟

الواقع وتشكلاته

إن واقع الهيمنة الدولية الغربية الذي يعطيها السبق في كل المجالات اليوم واقع لا يستهان به... فعلى السطح الصناعة الحربية والصناعة العادية والزراعة والتجارة والاتصالات والمواصلات والفنون ووسائل الاتصال العام ووسائل النقل العام، وكلمة الفصل فيها للغرب أو للدول غير المسلمة اليوم... وتحت ذلك تأتي النزاعات المحلية والإقليمية والدولية التي تستفيد منها هذه القوى وتحرّكها وتغذّيها وبالتالي تضمن بها ضعف الآخر واستمرار حاجته إلى وجودها... وتحت هذا وجود في البحار وأعماقه، وفي طبقات السماء... تحت هذا مراكز أبحاث لا تكل ولا تمل لإيجاد فرص لمزيد من التقدم والسيطرة... وخلف ذلك مسيرة تاريخية بدأت بالرأسمالية التجارية ومنجزاتها وبالثورة الدينية وبالثورة في عالم المناهج البحثية وبالثورات الاجتماعية والسياسية، وبالثورة الصناعية وتلتها ثورة الاتصالات ثم ثورة الحواسيب... وكل تلك خلفت نتائجها في صناعة تلك البيئات.

إن العبور من هذا الواقع والتقدم فيه يحتاج إلى ما هو أكبر من وجود هذه الجماعة أو تلك. . .

✓ يحتاج إلى تصورات متفوّقة ابتداء في مجال السياسة والاجتماع إلى صناعة مجتمعات مستقرة سياسياً واجتماعياً وقادرة على مباشرة التنمية والعبور في سلّم التطور مستفيدة من الحكمة والتعلّم من الآخرين.

✓ وتحتاج إلى انتشار هذا الوعي بين طبقات المجتمع بما يجعل المجتمع واعياً بمصالحه وحريصاً على وحدته.

✓ ويحتاج إلى التركيز على الضروريات وأسس التقدّم لا على المظاهر والشكليات مهما كانت أهميتها.

✓ ويحتاج إلى خطاب تصالحي مع الذات ومع المحيط الإقليمي والعالمي، يقلّل العداوات ويزيد من فرص النجاح. . . فهل تمتلك هذه الجماعات أي رؤية من هذا النوع؟. . . هل بنيتها الفكرية مبنية على المشترك بين الطيف الاجتماعي أم على عوامل الفرقة والاختلاف؟ كيف تستطيع أن تجد خطاً ناظماً مع غير المسلم وهي لا تستطيع أن تجد خطاً ناظماً مع بعضها أو مع عموم المسلمين. . .

العقل التنظيمي عندها يفر إلى المعجزة ليقول لك: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة». . «وما النصر إلا من عند الله». . . «علينا العمل وليس علينا النتائج». . . وهو يتناسى أن كم من فئة قليلة منضبطة في القرآن بأرقام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ ٱلْـَٔـٰنَ

﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥ ـ ٦٦]، فالنسبة القرآنية ١٠ : ١ أو ٢ : ١، وهو لا يضبطها بقول الله ﷻ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فالأمة التي قصرت في السياسة والاقتصاد والاجتماع والصناعة والزراعة والعلم والتكنولوجيا... ستجازى بقدر تقصيرها!

ويسارع بعض إلى القول: «علينا العمل وليس علينا النتائج»، وهو قول غريب، يختزل الصورة ويزيح المسؤولية، فالانسان قد يعذر أمام الله لأنه يعمل ما في وسعه وأنه قام بكل ما يجب عليه، أما في دنيا الناس فالحياة تقوم على المحاسبة والسؤال... فالناس تحاسب الحكومات على أدائها وتحاسب الشركات على أدائها وتحاسب الأفراد على أدائهم، هذا هو ما تستقيم به الحياة، والجماعات ليست استثناء من ذلك.

ولنعد إلى مسألة القلة والكثرة في الآيات السابقة هل المقصود بها قلة المقاتلين وطالبي الشهادة ٢ : ١ أو ١٠ : ١ ـ وهي النسبة القرآنية الواردة في الآية ـ أم أن المشهد اليوم مختلف، فالهند مثلاً تستطيع أن تحشد أضعاف الأمريكان من البشر والصين كذلك، ويبقى السؤال: هل الكم هنا انتقل إلى نوع؟.. فالصين والهند في هذه الحالة ستسألان نفسيهما عن مستوى وطبيعة التسلح والقوة التدميرية ووسائط نقلها إلى أرض العدو وعن قدرتهما على تحمل تكاليف تلك الحرب اقتصادياً... وعن حسابات ما بعد الحرب وكيف سيكون حال البلاد والعباد.

إن موضوع الأرقام اليوم غير ذي بال، فليس عدد الجنود هو المهم، فالمعارك لا تكسب اليوم في ساحات الوغى بل في الخطوط الخلفية من سلامة الجبهة الداخلية وتنظيم الاقتصاد والسياسة وثقافة المجتمع وبنية الحضانة والروضة والمدرسة والجامعة ومراكز البحث والمصانع والمزارع... إنها متعلقة بسلسلة متصلة الحلقات تجعل للجبهة قوة أو ضعفاً... ولذلك حين يصل أي من الإسلاميين إلى السلطة يتوقف عن النفخ في كير الحروب؛ لأنه يعلم من قياداته العسكرية ماذا يعني خوضها... ويعلم أن مهمته الأولى حينها إيجاد نقطة البداية... وأن مهمة عمل تعاقد فعال مع أبناء الوطن مهمة صعبة قبل التفكير في غيرها... يبدأ في التفكير من حيث هو... تتوقّف الشعارات ليبدأ العالم الحقيقي الذي ربما لا يعجبنا، ولكنه العالم الذي يجب أن نتعامل معه!

من هنا نرى بوضوح أن القلة والكثرة في هذا العصر تتعلق بالنوع أكثر بكثير من الكم... وهي متعلقة بجملة شروط لا تحابي أحداً... فقانون القلة والكثرة خاضع ومرتبط بقانون آخر لا يستدعيه العقل المسلم وهو: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، ولنحاول أن نبسط أوجه السوء المحتملة في بنيتنا كمجتمعات ونعطي علامة من عشرة لكل فضاء من الفضاءات الآتية؛ حيث نقارن أوضاعنا نحن كدول وعلى المستوى الداخلي، وهم كدول وعلى مستواهم الداخلي... وبالإمكان اختيار من أوروبا وأمريكا من يقفون في مواجهتنا أو في آسيا من يشكلون أقطابها، ونضعهم في مقابل الدولة التي نعيش فيها:

المجال	نحن	الآخر المقابل
التوحيد		
أعداد المصلين		
العلم والتكنولوجيا		
النظام العام		
النظافة العامة		
عمران المدن		
استقرار البناء السياسي		
متوسط الرفاه الاقتصادي		
الصناعة		
الزراعة		
التعليم		
الإعلام		
الصحة		
حقوق الانسان		
المجموع		

حين تختار البلد الذي تعيش فيه وتقابله بالدول التي تعتقد أنها هي المقابل أو النقيض وترى كلمة «سوءاً» المنكرة في النص القرآني ينكشف لك المشهد، كم يحتاج المجتمع من جهد لردم الفجوة أو تقريب الفجوة؟. . إن المشكلة الأكبر التي لا ينظر إليها من يسبح على قشرة الأشياء هو الطابع المعرفي لكل هذه المجالات «know how»، ففي أغلبية هذه المجالات ما

زالت المعرفة لم تصلنا وما زلنا نعتمد على الدول ذاتها التي نريد أن (ننافسها) لتزويدنا بها.

عندها يصرخ بك صاحبك ضجراً أين الله في هذه المعادلة؟ نحن مؤمنون؟ ما النصر إلا من عند الله؟ نحن المؤمنين نختلف عن الكافرين فهم يعتمدون على أسباب المادة ونحن نعتمد على مدد السماء؟ أليس الله بكاف عبده؟.. ويهلّل لهذه القولة صاحبه... لقد فرجت، فالموضوع مرة أخرى متعلق بمعجزة لا بعمل الإنسان ومرة أخرى أساء صاحبنا الترتيب.

استدعاء القوانين بصورة متوازية

من المؤكد أن علاقة المؤمن بالله تعطيه الأمل، ولكنها أيضاً وبشكل موازٍ ترشد العمل... وتنظّم له فضاءه الفكري حتى يحسن العمل... وقوانين الله تعمل متحدة.

• قانون للسوء وما يكافئه من نتائج: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

• قانون السبب الداخلي للهزيمة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

• قانون الإعداد الأقصى صحيح: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

• قانون درجة الإعداد الأقصى صحيح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

• قانون التخفيف صحيح: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

• قانون إتقان فن العمل الصالح صحيح: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

• قانون التدبير صحيح، فكل نظام معقد يحتاج إلى تدبير: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [السجدة: ٥].

• قانون سلامة الجبهة الداخلية صحيح: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

• قانون العلم المتراكم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]... ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

• قانون الخبرة البشرية: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

• قانون الأمل في نصر الله صحيح: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

• قانون أن سنن الله لا تحابي أحداً: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

• قانون الإمداد والإمهال صحيح: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

- قانون المحاسبة الداخلية الدقيقة: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.
- قانون العدل صحيح: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠].
- قانون عدم العدوان: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].
- قانون عدم التحجج بدور الخارج صحيح: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

ولكن هذه القوانين تعمل متضافرة يسند بعضها بعضاً، وما سوء الواقع إلا بسبب ذلك التفكير الأحادي العقيم الذي يستدعي قانوناً ويهمل عشرة، وينتظر أن تحابيه قوانين الكون فقط لأنه يعتقد أنه أخلص النية لله ولو كان مسيئاً في كل شروط النجاح، ولو أخلص النية لتدبر في آيات الله وفَقِه قوانينه.

إن واقع البشرية اليوم واقع علم ومعرفة، والتنافس معها ليس ابن الأحلام والأوهام والظنون بل في جوهره هو سباق تطور لا مكان فيه للكسالى والمتراخين... طلاب المخدرات الكلامية والقصائد والأماني... أولئك الذين يحسنون تقريض أنفسهم على الرغم من أن مصاديق الواقع الخارجي تكذبهم.

عندها يقول لك قائل: ولكن المسافة بيننا وبين غيرنا كبيرة، فمتى سنلحق بهم؟ متى سنستطيع منافستهم ناهيك بالفوز عليهم؟ وسيختم: لقد أحبطتنا..!

هكذا تنتقل بعض العقول التي كانت تعتقد أن المعجزة ستردم الفجوة من آمال بالنصر والتمكين المطلق بأقل العمل... وبين الإحباط فلا أمل ولا عمل؟

إما مخدرات لفظية... أو هروب من المسؤولية... لكن هل فكرت البشرية مثلنا وبطريقتنا وهي تواجه تحدياتها... هل فكرت بطريقة: «إما الصدر وإما القبر»... اليوم ننظر إلى الصين ونرى نجاحاتها وسرعة تقدمها ونعجب بها ولا نسأل أنفسنا ما هي التحديات التي كانت تعيشها في لحظة التفكير في صناعة مستقبلها، وإليك القائمة:

الصين وتحدياتها قبل الثورة ١٩٤٩م	
العرقيات	٥٥ عرقية.
تعداد السكان	أكثر من ٤٠٠ مليون وبتصاعد مستمر قادر على أن يأكل ثمار أي تنمية.
الاستقلال	فرضت عليها أوروبا المعاهدات غير المتكافئة وعلى أرضها احتلال ياباني مباشر.
الوحدة الداخلية	هناك حرب أهلية بجيوش بين الشيوعيين والوطنيين الكيومنتانغ.
نسبة الأمية	٨٠ في المئة.
نسبة إدمان المخدرات	١٠٠ مليون مدمن.
الريف	٨٠ في المئة من السكان.
التقنية	ضعيفة إلى معدومة.
الأمراض	انتشار العمى بين الشباب في الريف أحياناً ويصل إلى نسبة ٥٠ في المئة في بعض المناطق.
العقائد	تحترم فقط الزراعة.
الفيضانات	كثيرة ويهلك بها الملايين.
الأوبئة	منتشرة ويهلك بها الملايين.

لم يفكر الصينيون بأن المعضلة الكبيرة تعني إحباطاً كبيراً، ولا أن العالم سبقهم ولا سبيل للحاق به... حلوا مشكلة الوحدة الداخلية على الأرض الأم بالدرجة التي هيّأت قدراً من الاستقرار يسمح بإطلاق ممكنات الصين... نظّموا المجتمع... خططوا وطوّروا الاقتصاد عبر سلسلة تجارب فاشلة حتى أدركوا النتيجة... حلّوا مشكلة الأمية... حلوا مشكلة العامل الصنم... طوروا منظوماتهم العلمية والصناعية والزراعية... كل شيء قبلوه كتحدٍّ وعالجوه كبشر وفق سنن مزروعة في الكون... فنجحوا في مساحات وفشلوا في أخرى وما زالوا يواصلون تقدمهم بخطى ثابتة... وقل ذلك عن الهند... وسائر دول العالم... **العالم لا يتحرك بنظرية الصدر أو القبر بل بنظرية التحسن المستمر**... نحن بخير ما دمنا نخطط ونجرب ونتقدم باستمرار... ننطلق من وضع إلى آخر أرقى منه... نعرف كيف نعبر في فضاءات التقدم بأقل قدر من الخسائر... ذلك هو شأن البشر غير المغيبين بالأوهام!

فهل الجماعات الإسلامية التي تعرض نفسها على الأمة اليوم قادرة على مواجهة متطلبات الحراك بالمجتمعات من هذا الواقع والعبور بها إلى بر الأمان... وهل هي أفضل الرواحل لهذه المهمة؟

هل بنيتها الثقافية ومناهجها تعالج هذا المستوى من تعقيد الواقع وتعدّ أفرادها للتعاطي معه؟

إن البنية الفكرية للجماعات الإسلامية يمكن دراستها على ما تنتجه هذه الجماعات من أفكار وبحوث، وما يظهر منها في برامجها المعلنة وأنشطتها ـ وهو كثير ـ إن ما تحتاجه أطروحة

أي جماعة أن يكون معياراً لها في هذا العصر قد يشمل:

١ ـ بنية عقدية تبني أكبر قدر من الوفاق والسلام الاجتماعي.

٢ ـ بنية شعائرية تشذب علاقة الإنسان بالسماء إن كان مؤمناً وتزيد فاعليته في الأرض.

٣ ـ بنية سلوكية أخلاقية تجعل المجتمع أكثر فاعلية ورحابة لساكنيه.

٤ ـ بنية سياسية متصالحة مع فكرة المواطنة المتساوية توفر الاستقرار.

٥ ـ بنية اقتصادية توفر الرفاه لأبناء الوطن والكرامة الاجتماعية.

٦ ـ بنية علمية تعترف بالعلم وأهميته لتطور المجتمعات وتخلق له البيئة لحرية البحث والنظر.

٧ ـ بنية متصالحة مع الفن والثقافة تسمح للإبداع الإنساني بأن يصل إلى أقصى مستوياته.

٨ ـ بنية متصالحة مع الرياضة تسمح للمجتمع بالوصول إلى أقصى طاقاته.

٩ ـ بنية تقدر معايير الجودة لبناء وطن قدوة.

١٠ ـ بنية حقوقية توفر الأمن والأمان لكل أبناء الوطن من دون استثناء.

١١ ـ بنية إعلامية تزيد الوحدة الوطنية ولا تفتتها.

١٢ ـ بنية تتفهم المصالح الإقليمية والعالمية والعلاقات الدولية وتعرف انعكاساتها على الداخل.

والسؤال كم هو حضور هذه القضايا في الثقافة التنظيمية التي تقدمها هذه الجماعات... وكم جاهزيتها لتفهم متطلبات إنشاء أوطان مستقرة؟

لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بدراسة المناهج الداخلية التي تقدمها هذه الجماعات... ـ ولكن مما يظهر على الساحة في الخطاب وحتى الآن أن الغالب هو وجود فجوة خطيرة بين هذه التجمعات وإمكانية صناعة أوطان مستقرة ونامية ـ وإلا بعد إصلاحات فكرية كبرى ربما ليست مستعدة لها الآن.

٧ ـ عمل الأحزاب

يسأل بعضهم أليس قبول هذه التنظيمات بإنشاء أحزاب هو قبول في الانخراط في الدولة المدنية... وأن الزمن كفيل بأن يصلحوا تلك المفاهيم أو يعيدوا النظر فيها؟

الحقيقة الموضوعية أن هذه المنظمات على اختلاف درجات تشدّدها أو تراخيها وإخلاص كثير من قياداتها... فهي لم تؤمن في أغلبيتها بالدولة المدنية ودولة المواطنة حتى الآن إلا باعتبارها وسيلة للوصول إلى النموذج النقيض لدولة المواطنة ذاته، ولا ينفي هذا وجود أفراد صادقين في إيمانهم بدولة المواطنة... بل هناك من يؤمن بها ويكتم إيمانه خوف النبذ والإقصاء... ولكن من الحق أيضاً أن قيادات كثيرة لا تؤمن بها وقواعد كثيرة لا تؤمن بها... بل إن الثقافة المنتشرة السائدة تسير عكس اتجاهها حتى الساعة.

إن إنشاء الأحزاب في فضاء الحرية شيء وقناعات بعض قيادات الأحزاب بما تفعله في المآلات شيء آخر... فإن كانت المنظومات الفكرية التأسيسية تقوم على نقيض التعاقد الظاهر حتى الآن، فالانقضاض على هذا التعاقد وارد بالقدر نفسه... مع كل مخاطره وتبعاته.

الحل بطبيعة الحال ليس سهلاً، فتلك الأفكار التأسيسية منعكسة على الاستراتيجية والتنظيم والثقافة التنظيمية والبنية المهارية وأسلوب القيادة... ولكننا حين نقول: إنه صعب فنحن لا نقول: إنه مستحيل والفارق كبير... ولكن كل شيء يبدأ من نقطة الوعي بنقص المنظومات الفكرية التي تحملها هذه البنى الاجتماعية والصدق في معالجتها. لقد قدم إلينا السودان وإيران نموذجين متغايرين في أقصى درجات التمكين أي بوصول واستقرار أحزاب إسلامية ذات مرجعية أيديولوجية للسلطة **إحداهما**: عام ١٩٧٩م، **والثانية**: ١٩٨٩م وبالتالي فقد مضى على وجود الأولى في الحكم أكثر من ثلاثة عقود والثانية عقدين ونيف، وهما تجربتان كاشفتان عن عدد من الجوانب:

- قدرة النموذج على إحداث الوفاق الوطني.
- قدرة النموذج على النجاح في الرفاه الاقتصادي.
- قدرة النموذج على تحقيق أشواق الإنسان للحرية والعدالة.
- قدرة النموذج على التقدم العلمي والصناعي.
- قدرة النموذج على إحداث الوفاق الإقليمي.

• قدرة النموذج على إحداث توافق عالمي.

إن الالتزام بحمل عبء المجتمعات ليس بالأمر اليسير... وأمام القادمين الجدد تجارب حية للمآلات في السودان وإيران. والتطوير ممكن ولكنه مخاض صعب والزمن المتاح قليل... تلك هي المعضلة التي تواجه الحالة الإسلامية التنظيمية في فهمها للواقع.

٨ ـ التنظيم والمجتمع (الأخويات الضيقة)

العقل التنظيمي باستمرار يتأرجح بين واقع لا يستجيب له وبين أفكار قد أسبغ عليها القداسة... وسيكون الحل باستمرار في اتهام الواقع لا الأفكار التي يحملها التنظيم عن الواقع، ولننظر إلى علاقة التنظيم بالمجتمع وكيف يمكن تحليلها:

✓ الدعوة إلى الله أم التجنيد

حين تبنى العلاقة مع المجتمع على أساس التنظيم نكون قد قلبنا الآية وحورنا الفكرة الأساس بالكامل، فالأساس أن الانتماء إلى التنظيمات جاء لأننا نريد أن نخدم المجتمعات بأقصى طاقة، ولكن الموضوع ينقلب بعد حين، فيصبح أساس العلاقة بالمجتمع توظيفه لخدمة التنظيم... فالصداقات تبنى بغرض ضم أفراد إلى دائرة التنظيم، فالشخص يجد العناية والود والسؤال ما دام هناك أمل في ضمه إلى الصفوف، ولكن ما أن يستشعر الفرد التنظيمي لسبب ما بأن هذا الشخص غير راغب في العمل التنظيمي بل جل ما يريده علاقة طبيعية إنسانية تنقطع العلاقة، وتتحوّل في أحيان كثيرة إلى قطيعة وجفوة، وقد تتحول إلى خصام وتشنيع، ففكرة الدعوة إلى الله تنتقل إلى فكرة الدعوة بغرض التجنيد ولا يعود الفرق مهماً.

عندها يكتشف هذا الانسان أنه أمام فريق عمل متخصص في التجنيد وليس أمام إنسان يدعو إلى الله، ولا صديق حنون بعاطفة بشرية عادية... ومودة خالصة... كل شيء غير حقيقي فحين لا يتحقق الغرض وتنتفي المصلحة تتبخر العلاقة.

✓ عمل خيري أم واجهات

والعلاقات الخيرية تبنى للغرض ذاته؛ فكل عمل خيري لا يتم إلا بمقياس تنظيمي. وأذكر شخصاً مشرفاً على أيتام، وكان يحصل على مبلغ من المال سنوي لرعايتهم وفوجئ في ذات رمضان بأن المبلغ لن يعطى له وكان التعليل أنك منتمٍ إلى جماعة إسلامية مناوئة، وقيل له: «اذهب إلى فصيلك ليعطيك»... تلك الروح التي تتخلق من دون تفكر نتيجة الانعزال في بيئة مغلقة تعرف الداخل والخارج بطريقة حادة مبنية على أن الخير يجب أن يوظف لا للمجتمع ولكن لما يخدم التنظيم... كل شيء ينحرف من دون أن يشعر الإنسان، بل قد يستشعر الغرابة في غيره، هكذا تبنى المؤسسات الخيرية والاجتماعية، فلا تستطيع أن تتعاون في ما بينها ولا يحصل المجتمع على نفعها إلا عندما يتطابق مع مفاهيمها أو يرجى منه أمر متعلق بنفع مستقبلي سواء بالمال أو الجهد أو التصويت.

✓ العلاقة بمن خرج من التنظيم

ثم تأتي العلاقة مع من قرر الخروج من دائرة التنظيم ربما لافتقاد القناعات اللازمة للاستمرار أو بسبب زعل طارئ أو خصام مع مسؤول وكل ذلك يحدث... هنا تتحوّل العلاقة إلى حرب وإن كان رفيق درب طويل وتصبح الخصومة معه أشد

وأقسى ويصل التجريح إلى مداه، فكل شيء يصبح مستباحاً فيه... من فكرة أن الدعوة تنفي خبثها إلى شتى التهم بالعمالة والخيانة... وكل ذلك يتم بدعوى حماية الدعوة... فالعلاقة السابقة لم تكن علاقة في الله خالصة إنما هي علاقة بسبب الاتحاد في التنظيم لا أكثر ولا أقل...

✓ العلاقة بالأقارب والجيران

لكن ماذا عن العلاقة بالأقارب والجيران وبقية البشر... شيئاً فشيئاً تصبح عبئاً غير مرغوب... ففكرة الصحبة التنظيمية والأخوة الخاصة والاجتماعات الخاصة والحلقات المغلقة تريد قدراً من السرية، وكل علاقة قد تشوش عليها هي أمر غير مرغوب فيه، فتتولد شخصية ترى العالم بمنظار شك وريبة، فهو مجتمع موبوء وعليها أن تحتاط منه.

✓ علاقات الزواج

ماذا عن علاقات الزواج... هي ذاتها تتحول إلى أمر تنظيمي صرف فالتنظيم يبحث لك عن زوجة، فالأخوات للإخوة... بما أن الأمر يحتاج إلى تكتم وإلى من يفهم أسرار التنظيم ويحافظ عليها... فأفضل زواج هو الزواج الداخلي...

✓ علاقات السكن

ماذا عن السكن؟ هو أيضاً تصبح فلسفته مرتبطة بالتنظيم وبالأسر التنظيمية... فالعمارات تشترى بهذا الاعتبار والأحياء تختار بهذا الاعتبار.

✓ من التنظيم إلى الطائفة

شيئاً فشيئاً تتحوّل التنظيمات إلى روابط عشائرية عائلية متشابكة ويصبح كل فرد معتمد على هذه البيئة... وفي ظروف الصراع السياسي ربما قبل أحداث الربيع العربي تحولت التنظيمات إلى مجتمعات مغلقة داخل البنية الاجتماعية، فالناس بالنسبة إلى العقل التنظيمي إخوة أو غير إخوة... والأخوة هنا تخص كل فصيل على حدة... فتتولد أخويات متشاكسة تتصارع على الأفراد وعلى الأحياء وعلى المساجد وعلى السيطرة على مؤسسات الدولة... كل شيء خاضع لمنطق الأخويات... تسمع من يقول لك... إخواننا يمسكون بزمام الأمور هناك... والفصيل الفلاني يمسك بزمام الأمور هناك... وبطبيعة الحال الضحية هو المجتمع، فماذا عن الأكثرية التي لم تدخل هذه الأخويات... عندها يتم إقصاؤها وتهميشها أينما حلّت تلك الأخويات.

كلمة المسلمين ناهيك بكلمة المواطنين الأرحب كلها تفقد معناها، فأنت لا يكفي أن تكون مواطناً أو مسلماً بحسب العقل التنظيمي، ولكن يلزم أن تكون من ضمن الأخوية حتى تحصل على حقوقك في المجتمع... كل شيء يتم ويخلق له مبرره؛ فالسيطرة على المؤسسات العامة تتم باسم مصلحة الدعوة، وباستخدام الأصلح والأتقى وحتى لإظهار قوة ونفوذ التنظيم وتقديم الأخوة يتم بسبب تسهيل مهام الدعوة.

إن أي تحول حقيقي لتصحيح هذه المسارات يبدأ من نقطة الإقرار بخطورة مثل هذه المسالك على أي مجتمع تسكنه... وأول العلاج هو المصارحة... ثم تبدأ أعمال الاندماج المجتمعي... وهي بطبيعة الحال ليست يسيرة.

إن هذا السلوك يعني في أجواء التحوّلات الجارية من انفراج أجواء الحرية وتصدّر بعض هذه التنظيمات سدة الحكم، مساراً قد ينتهي بإنشاء دولة عمق جديدة أشد خطورة من الأولى؛ لأنها تستمد مشروعيتها من تأويل ديني وهي ضيقة بحيث لا يمر منها إلا بعض أفراد الأخوية الخاصة، وهم أهل الثقة. وبطبيعة الحال، لن تتسع لبقية الأخويات المنافسة ولا لبقية المجتمع... هي بالضرورة حالة نقيضة لمجتمع المساواة والمواطنة...

حين نقول ذلك نأمل أن يصل هذا النداء إلى القلوب، فهو مسار ظهر في إيران وظهر في غيرها بسبب الطبيعة التي سار عليها الفكر التنظيمي في فترات القهر والمطاردة، وما لم تتم معالجته فالمستقبل الذي ينشئه شديد الخطورة.

إن التخلص من هذه المسارات ابن مراجعات كبرى لبنية العقل التنظيمي وأثر الزمن فيه وهذا سيعني إحلال أفكار مكان أفكار مثل:

- وظيفة التنظيم تمكين المجتمع وليس التمكن من المجتمع.
- المجتمع الذي نخدمه هو كل البشر.
- العلاقة بالناس سببها الود الحقيقي لا الود التنظيمي.
- تقديم الخير سببه حب الخير للناس وليس لغرض آخر.
- من خرج من التنظيم لم يخرج من الإسلام أو من الجماعة المسلمة.

• لا تتحدد أفضليات البشر بسبب تنظيماتهم بل بسبب علاقتهم بالله وعلاقتهم بخلقه.

وقد يقول قائل: لماذا أنتظر أن تقوم هذه الجماعات بالمراجعات؟ ثم ألم تصطدم تجربتهم في عدة بلدان بالواقع لتكتشف الخلل؟ ألا يكفي عقود وعقود للإصلاح والمراجعة مرت بها وكانت لديها فرصة لعمل ذلك؟

إن الهدف الأسمى للمراجعات هي الخروج من نظام الأفكار المعيقة، ولكن ليس على المجتمع أن ينتظر مراجعاتها فالحياة يجب أن تسير في طريقها.

إننا حين ندعو إلى المراجعات لا نجعل الأمر يبدو وكأن الحل بيد التنظيمات إن هي أصلحت منظومتها الفكرية، بل الجهد الأساس المطلوب هو في إيجاد تيار فكري قائم على منظومة من التصوّرات التي تؤسس لمسار جديد، مسار لا يحمل في ذاكرته التاريخية كل أشكال التأزّمات التي حصلت، تيار يمتلك رؤية لذاته ولمجتمعه، لإقليمه وللعالم من حوله.

إن هذا التيار وأهميته اليوم هما أكثر إلحاحاً من المراجعات والإصلاحات في الأجسام التنظيمية القديمة ذاتها التي على الرغم من أهميتها فهي ليست المستقبل، فالأمل الحقيقي هو في هذه التيارات الناشئة التي تمتلك روحاً منسجمة مع طبيعة المرحلة الحالية وتحدياتها، وليس بروح مرحلة تاريخية قديمة مليئة بصراعات تجاوزها الزمن، وهي غير مُحمّلة بلغة أيديولوجية مكثفة تعيق المنتمين إلى هذا التيار من فهم الواقع

ومواجهة تحدياته وفق المنهج العقلي المنطلق من فهم متجدّد للدين وأدواته.

إنها روح تسري لتخدم المجتمع، وتبشر بتطلعاته وأحلامه هو... لا بتطلعات وأحلام تكتلات خاصة، إنها أدوات قوة للداخل قبل أن تكون استعراضاً كلامياً موجهاً إلى الخارج، إنها منظومة بناء وتجديد نحو الذات، وفهم وإدراك للآخر، إنها مسيرة عطاء عنوانها إصلاح كل منظومات المجتمع والمساهمة في تحسين ما هو قائم والبناء عليه.



مشكلة الأطروحة الإسلامية
مزيد من التعمق مع المؤسّسَيْـن (البنا، قطب)

لقد سئلت ذات يوم في القاهرة ـ (قبل الانقلاب العسكري على مرسي بحسب الفريق المطالب بالشرعية أو الثورة بحسب مؤيدي الجيش) في حفل إطلاق كتاب **الجيوبوليتك ومستقبل الوطن العربي** ـ سؤالاً يقول: هل سينجح الإسلاميون في امتحان السلطة؟ واستغرب الحضور من إجابتي بالنفي، فسألني أحد الحضور عن السبب، فقلت له إن نظام الأفكار الذي تتشكل منه التصوّرات عند الفريق الإسلامي لا يمكن أن يسمح بالعبور إلى المستقبل. لم يكن هناك متسع للحديث عن نظام الأفكار هذا حينها، ولكن هنا سنحاول أن نغوص في نظام الأفكار المؤسسة في المشهد عبر قراءة شخصيتين كبيرتين هما: الأستاذ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، والأستاذ سيد قطب المؤثّر الأكبر في الفكر الإسلامي المعاصر، وكلا الفكرين لم تتم مراجعتهما بشكل صريح بعد.

وهذا العرض يهدف في أساسه إلى بيان حجم الإشكالات التي تواجه التيار الإسلامي ليس من خارجه، ولكن من واقع

نظم الأفكار التي تحملها... فمن السهل رؤية ما يفعله الآخر ولكن من الصعب رؤية وتحليل ما نقول وما نفكر فيه... وخير طريقة هي الاستماع إلى المؤسسين وطرح الأسئلة على مقولاتهم فربما رأينا ما يستحق المراجعة والنظر... فما طرحه البشر باستمرار هو ابن الزمان والمكان والظرف والعوائد وأفهامهم للدين ليست الدين ذاته.

لقد كان يكفي عقد واحد أو كارثة واحدة للمراجعة والتساؤل؛ فمنذ نشأة الحركة الإسلامية على يد الأستاذ البنا والنكبات تتواصل على يد الأنظمة المختلفة، من باكستان إلى سوريا إلى أفغانستان إلى الجزائر إلى الصومال إلى السودان إلى مصر... كارثة تتلوها كارثة ولكن قبل الكارثة يقال نحن نتوسع ولا نحتاج إلى المراجعة. وفي أثناء الكارثة يقال نحن في محنة وليس هذا وقت المراجعة، وبعد المحنة يقال كان الأمر اختباراً من الله وحان أوان النجاح فلا داعيَ إلى المراجعة، وعند النجاح يقال ألا ترون النجاح فما الحاجة إلى المراجعة!

لقد اخترت أهم الشخصيات المؤثرة في الفكر الإسلامي المعاصر مع إجلالي لهما؛ فقد سحرت كما سحر الآخرون بخطابيهما، وعشت معه زمناً من البحث والنظر وهذه المقاربة هي ثمرة تلك المراجعة.

مع المؤسسين

لا يمكن معرفة البنية التكوينية الصلبة التي تتفرع منها كل التصوّرات السابقة إلا بمعرفة أفكار المؤسسين وفحصها، وخاصة إن كانت ما زالت في حيّز التداول والمرجعية، فكل الكتابات

اللاحقة للمؤسس في معظم التنظيمات كانت غَزْلاً حول المغزل الذي بناه ابتداءً... فَتَحْتَ كل الكتابات توجد الأفكار المؤسِّسة، وتحت أفكار المؤسسين سنجد باستمرار قراءة معينة للنص الديني واستناداً إليه. ومن هنا يأخذ الموضوع في ذهن المتربين مسلّمات الدين، ولا يعود بالإمكان فكّ التشابك بين ما هو فهم للدين والدين ذاته عند غالب المنتمين. وأهم الشخصيات ربما في كل الحقل الإسلامي تأثيراً في الواقع المعاش هو الشيخ حسن البنا أو كما كان يُلقّب في عصره الأستاذ حسن البنا... والأستاذ حسن البنا علم من أعلام القرن المنصرف أنشأ حركة الإخوان المسلمين وهو ابن الثالثة والعشرين من العمر أو حولها، ووضع أفكارها التأسيسية وسطت عليه يد الغدر فاغتيل وهو ابن ٤٣ أو حولها، وأثّر فيمن حوله تأثيراً عميقاً أهّله ليكون أحد أبرز قادة الحركات الإسلامية. ولا يمكن فهم نجاحات كبرى الحركات الإسلامية؛ أي: الإخوان، أو فشلها إلا بفهم الأفكار الكبرى التي طرحها البنا عليه رحمة الله... فأغلب ما ذكرناه سابقاً هو صدى لما طرحه الأستاذ البنا وحتى لا تضيع خارطة الموضوع لنبدأ بملخّص تلك الأفكار.

أولاً: الإمام حسن البنا عليه رحمة الله

ملخص الأفكار
غرض البحث: التعريف بأهم الأفكار التي طرحها البنا ـ وقفة تأمل لمعرفة مناسبتها للعصر ـ الرؤية الشاملة للمقولات.
النظر إلى الأفكار ونقدها لا يعني المساس بمكانة قائليها، ولكن جوهر النظر هو مراجعة تأثيرها في أزمة الواقع المعاش.

معايير إقامة الدول في هذا العصر:

الوجود يحتاج إلى أمرين:

١ ـ وجود أرض وشعب وحكومة ممثلة.

٢ ـ وجود اعتراف دولي قانوني وعلاقات دولية تبادلية.

الاستقرار يحتاج إلى أمرين:

١ ـ تعاقد مُرضٍ لأطراف المجتمع.

٢ ـ تأمين حدودِ الكفاية للمجتمع.

التنمية تحتاج إلى أمرين:

١ ـ خطة شاملة.

٢ ـ تمويل للخطة.

متطلب إضافي:

معرفة السقف الفكري الذي وصلت إليه البشرية وتوقعات إنسان العصر، وتطوّرات العلم والمعرفة وأثرها في توازن القوى.

ملاحظات:

١ ـ فرضيات مختفية تحت الأطروحة يجب إظهارها: تفترض النظرية أن المجتمع بأغلبيته سيوافق على هذه الرؤية إلى المجتمع، والأقليات غير المسلمة ستوافق على الأطروحة وإن لم توافق فبالإمكان قهرها، والدولة القطرية ستوافق على الخطة وإن لم تفعل فيمكن قهرها، والعالم سيوافق على أبعاد المشروع ويسمح له بالمرور أو بالإمكان قسره.

٢ ـ من المؤكد أن حركة الواقع في كثير من الأقطار تجاوزت هذه الأفكار، والتجاوز العملي ليس هو التجاوز الفكري ذاته.

٣ ـ هناك مفكرون إسلاميون أصدروا كتابات مخالفة لهذه الأفكار.

٤ ـ هناك أقطار لا تعتبر هذه الأفكار بالنسبة إليها أدبيات يتم تدريسها وتكتفي برمزيتها.

٥ ـ لم تتم مراجعة علنية لهذه الافكار وبيان أوجه الخلل فيها من قبل حركة الإخوان ولم تطرح بديلاً لها.

مقولات البنا			
العنوان	**النص**	**المصدر**	**الملاحظة**
البنا يطلب النصيحة	«ولا بأس أن يتقدّم إلينا من وصلته هذه الدعوة، ومن سمع وقرأ هذا البيان برأيه في غايتنا ووسيلتنا وخطواتنا، فنأخذ الصالح من رأيه وننزل على الحق من مشورته فإن الدين النصيحة...»	المؤتمر الخامس	هذه المقاربة هي استجابة لذلك الطلب... فننقد الفكرة مقدِّمة لتطويرها.
البنا يطلب تطوير العرض	«إن لكل عصر طريقاً في الكتابة تتناسب مع أسلوب أهله في الفهم وطريقهم في الدراسة، ولا بد من هذا التجديد تبعاً لتجدد عقول الناس»	**دعوتنا في طور جديد**	هذا مطلب ما زال عالقاً.
منهج عام	باستمرار يتم التعامل مع قضية تحتاج لتفصيل باستدعاء نص شرعي عام قريب أو بعيد.	مطرد في كل الرسائل	وهذه المنهجية تعطي وهماً بوجود التفصيلات في مكان ما وهو الأمر الذي يعوز الحالة الإسلامية اليوم!

التحليل التاريخي	١ ـ الخلافات السياسية. ٢ ـ انتقال السلطة إلى غير العرب. ٣ ـ إهمال العلوم والمعارف الكونية. ٤ ـ الانغماس في الملذّات. ٥ ـ إهمال النظر في تطور المجتمعات الأخرى. ٦ ـ الانخداع والتقليد.	**بين الأمس واليوم**	التشخيص صحيح ولكن لم يتم التعمق في الأسباب الكامنة وراءه أو تمّ تسطيحها بمقولات المؤامرة من دون فتح السؤال ليصل إلى غايته المعرفية.
النماذج المعيارية	راجع تاريخ الهيئات والشعوب ترى هذا القول واضحاً بيِّناً... ذلك واضح جليّ في الخطوات التي سلكتها دعوة الإسلام الأولى... دعوة في السر... ثمّ إعلان لهذه الدعوة ونضال في سبيلها لا يمل... ثم هجرة... فإخاء... ثمّ نضال جدي وانتصاف من الباطل... وأنت إذا رجعت بذاكرتك إلى تاريخ الفرق الإسلامية وإلى الأدوار التي سبقت وقارنت قيام الدولة العباسية في الشرق ثم نهضة الدول الحديثة الأوربية من فرنسا وإيطاليا وروسيا وتركيا.	**هل نحن قوم عمليون**	لقد تم استخدام نماذج متعددة كمعيار للقول بنظرية... السرية ـ العلنية ـ الهجرة ـ الإخاء ثم الانتصار... وهو تصوُّر مع إسقاط السياقات التي عملت بها هذه الدعوات ودرجة الفوارق بينها... التي لم تحضر مآلات النماذج الغربية بتوجهاتها الشمولية ونزعتها التوسعية وما نتج منها.

النظرة إلى الذات	١ ـ «نحن أيها الناس ـ ولا فخر ـ أصحاب رسول الله، وحملة رايته من بعده، ورافعو لواءه كما رفعوه، وناشرو لواءه كما نشروه وحافظو قرآنه كما حفظوه، والمبشرون بدعوته كما بشروا بها، ورحمة الله للعالمين: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]». (فهم الجماعة التي وقع عليها اختيار القدر لإنقاذ العالمين). ٢ ـ (الواجب الذي ينتظرهم كجماعة تعد نفسها لقيادة أمة بل لهداية العالمين).	١ ـ من رسالة **الإخوان تحت راية القرآن**. ٢ ـ المؤتمر الخامس.	كلما زاد وهم التطابق كلما تم استشعار الاستعلاء عن بقية الأمة، كلما زادت العزلة واتجه الموضوع إلى التشكيل الطائفي بدلاً من التشكيل الخادم للأمة. وكلما تم طلب القيادة كلما زاد إقصاء الآخرين عنها، وبالتالي تخلّقت الفرقة.

أزمة الشكل	«أيها الإخوان: أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزباً سياسياً ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة».	المؤتمر الخامس	هذه الفكرة ولدت فكرة الدولة داخل الدولة ومنها نشأ الصراع الصفري بين الدولتين... فالمنظمة غير قابلة للتكييف القانوني.
الموقف من الدولة	«ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام».	من **رسالة إلى الشباب**	درجة الإسلامية المطلوبة سيشرحها البنا بعدها ولكن من المهم رؤية مآل كيان في الدولة لا يعترف بشرعيتها ويرى أن وجودها ومؤسساتها وجود مصطنع.

تصوّر مكانة الحكم	والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ.	المؤتمر الخامس	بالقطع هذا ليس منظور أهل السنة لقضية الإمامة والحكم.
العلاقة بالحكم	(فالحكم من منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله). (واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف).	المؤتمر الخامس	من حق أي لاعب سياسي أن يفكر بالتقدم في العملية السياسية القانونية ولكن أن يعلن أنه يريد تغيير النظام وتحويلها إلى نظريته الخاصة فكيف يتصور مآله؟

العلاقة بالعالم	«ونحن لهذا لا نعترف بهذه التقسيمات السياسية ولا نسلم بهذه الاتفاقيات الدولية». «ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حيناً من الدهر ودوّى فيها صوت المؤذن بالتكبير والتهليل، ثم أراد لها نكد الطالع أن ينحسر عنها ضياؤه فتعود إلى الكفر بعد الإسلام. فالأندلس وصقلية والبلقان وجنوب إيطاليا وجزائر بحر الروم، كلها مستعمرات إسلامية يجب أن تعود إلى أحضان الإسلام، ويجب أن يعود البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين إسلاميتين كما كانتا من قبل، ولئن كان السنيور موسوليني يرى من حقه أن يعيد الإمبراطورية الرومانية، وما تكونت هذه الإمبراطورية المزعومة قديماً إلا على أساس المطامع والأهواء، فإن من حقنا أن نعيد مجد الإمبراطورية الإسلامية التي قامت على العدالة والإنصاف ونشر النور والهداية بين الناس».	**رسالة إلى الشباب**	لقد فكر موسوليني وفكر هتلر في مشروع العودة إلى السيطرة التاريخية وتغيير خريطة العالم فما هو المآل... لو قام كيان جديد يريد أن يفتح حروباً في كل هذه الأماكن؟

الأهداف	«اذكروا دائماً أن لكم هدفين أساسيين: ١ ـ أن يتحرر الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي وذلك حق طبيعي لكل إنسان، لا ينكره إلا ظالم جائر أو مستبد قاهر. ٢ ـ أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام وتطبق نظامه الاجتماعي وتعلن مبادئه القويمة وتبلغ دعوته الحكيمة الناس، وما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعاً آثمون مسؤولون بين يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم عن إيجادهم».		حركة التحرير حركة عالمية وهي حركة الإنسان للتخلص من هيمنة غيره عليه، ومن حق أي مجتمع أن يصنع نظامه السياسي التوافقي ولكن المطلقات تجعل الخيار منصباً على تصور ربما لا توجد فرضياته إلا في مخيال قائله ومن دون بحث الفرضيات التي تقوم عليها هذه المقولة لا يمكن محاكمة عمليتها وإن كان الواقع كاشفاً وخاصة اليوم.

الخطة	«التدرج في الخطوات وأما التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين، فذلك أنهم اعتقدوا أن كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث: مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب، ثم مرحلة التكوين وتخيّر الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين، ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج، وكثيراً ما تسير هذه المراحل الثلاث جنباً إلى جنب نظراً إلى وحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعاً، فالداعي يدعو، وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك. ولكن لا شك في أن الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار، ومتانة التكوين».		إن وضع أي خطة وإعلانها ابن ادراك البيئة المحلية، شعب وحكومة وقوى اجتماعية ومؤسسات وابن معرفة الإقليم وابن معرفة القوى العالمية... وفكرة تكوين جيش من ١٢ ألفاً داخل الدولة القطرية بأجهزتها والإعلان عن خطة عمله والإعلان أن المؤسسات العلنية هي جزء من المخطط، وتصوُّر أن الدولة ستصمت وتنتظر، أمر محير في النظرية؟

التنفيذ	متى تكون خطوتنا التنفيذية؟ أيها الإخوان المسلمون: نحن هنا في مؤتمر أعتبره مؤتمراً عائلياً يضم أسرة الإخوان المسلمين، وأريد أن أكون معكم صريحاً للغاية فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة... في الوقت الذي يكون فيه منكم ـ معشر الإخوان المسلمين ـ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسياً وروحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لحج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل إن شاء الله.		على فرضية تشكل الجيش فما هو السناريو المحتمل للتنفيذ؟؟ لا يوجد تصور لما هو دور الجيش في تحقيق إقامة الدولة الإسلامية عند البنا! فهو بدا كأنه تحضير أداة من دون معرفة أوجه استخدامها.
العدد	«ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة».	المؤتمر الخامس	

التوقيت	إني أقدر لذلك وقتاً ليس طويلاً بعد توفيق الله واستمداد معونته وتقديم إذنه ومشيئته.	المؤتمر الخامس	البنا يتكلم عن شيء قريب والآن مضت أكثر من ثمانية عقود من دون مراجعة هذه العبارة أو التحدث عنها!
استخدام القوة	إن الإخوان سيستخدمون القوة العملية حين لا يجدي غيرها.	المؤتمر الخامس	استخدام القوة العملية أي قوة الساعد والسلاح مسألة خطيرة والأخطر منها تجميعه وتأهيل حامليه من دون تصور لتصريف تلك الطاقة من الحماس والشعور بامتلاك الأداة وهي المعضلة التي شكّلها التنظيم الخاص بعدها.

غير المسلم في دولة البنا سياسياً	والحكومة إسلامية ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام غير متجاهرين بعصيان، وكانت منفِّذة لأحكام الإسلام وتعاليمه. **ولا بأس أن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة** ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه ولا بالنوع، ما دام موافقاً للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي.	**رسالة التعاليم**	إذا كان غير المسلم في بلد مثل مصر هو القبطي المسيحي وهو لن يكون في مناصب الولاية العامة إلا عند الضرورة فما هي درجة المواطنة المعطاة إياه؟ والأمر لا يقف عند غير المسلم بل المسلم نفسه الذي لا يقع تحت هذه الشروط أين موقعه من الدولة؟ وهل الدولة اليوم هي دولة الفرد التاريخية التي حدثنا عنها الفقيه التاريخي أم هي دولة المؤسسات؟

غير المسلم في دولة البنا اقتصادياً	**وأن تحرص على القرش فلا يقع في يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال.**	**رسالة التعاليم**	إذا كان واجب الأخ مقاطعة غير المسلم اقتصادياً وقبلها قلنا إنه مواطن من الدرجة الثانية سياسياً فماذا بقي من المواطنة؟
تصوّر الخلافة	والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس منهاجهم وهم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لا بد منها.	المؤتمر الخامس	باستثناء حديث البنا عن الخليفة واسطة العقد وظل الله في الأرض وهي مفردات الإمبراطورية فحديثه في التمهيدات مقبول وجيد.

الأحزاب	«والإسلام لا يقر الحزبية وبعد هذا كله أعتقد أيها السادة أن الإسلام وهو دين الوحدة في كل شيء، وهو دين سلامة الصدور، ونقاء القلوب، والإخاء الصحيح، والتعاون الصادق بين بني الإنسان جميعاً فضلاً عن الأمة الواحدة والشعب الواحد، لا يقرّ نظام الحزبية ولا يرضاه ولا يوافق عليه، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول رسول الله (ﷺ): «**هل أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصوم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**». وكل ما يستتبعه هذا النظام الحزبي من تنابز وتقاطع وتدابر وبغضاء يمقته الإسلام أشد المقت، ويحذر منه في كثير من الأحاديث والآيات، وتفصيل ذلك يطول وكل حضراتكم به عليم».	مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين	تحدّث البنا عن الحزبية في أكثر من موضع في رسائله فمرة بيّن عيوبها ومرة قال إن لي فيها رأياً خاصاً وأخيراً طرح أنها تسير في تناقض مع الإسلام بل اقترح نظام الحزب الواحد باعتباره الطريق أمام الأمم الناشئة وعلى الرغم من تجاوز الحركة الإسلامية لهذا الاجتهاد عملياً ولكن فكرة الحزب الواحد والقوة الوحيدة ربما لم يتم التخلص منها بعد.

إشراقات	«لقد ردد الساسة جميعاً كلمة «النظام الجديد»... فهتلر يريد أن يتقدم للناس بنظام جديد، وتشرشل يقول إن إنجلترا المنتصرة ستحمل الناس على نظام جديد، وروزفلت يتنبأ ويشيد بهذا النظام الجديد، والجميع يشيرون إلى أن هذا النظام الجديد سينظم أوروبا ويعيد إليها الأمن والطمأنينة والسلام، فأين حظ الشرق والمسلمين من هذا النظام المنشود؟ نريد هنا أن نلفت أنظار الساسة الغربيين إلى أن الفكرة الاستعمارية إن كانت قد أفلست في الماضي مرة، فهي في المستقبل أشد فشلاً لا محالة، وقد تنبهت المشاعر وتيقظت حواس الشعوب، وإن سياسة القهر والضغط والجبروت لم تأت في الماضي إلا بعكس المقصود منه، وقد عجزت عن قيادة القلوب والشعوب، وهي في المستقبل أشد عجزاً.	المؤتمر السادس **ورسالة اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد**	يرى البنا هنا أن الفكرة الإمبراطورية (الفكرة الاستعمارية) أفلست وهذا أمر مهم في هذا السياق فمجمل الفكر الإسلامي اليوم يحلم بتلك العودة إلى الإمبراطورية... وبعضهم يوجه هذا الكلام إلى الغرب ويستثني الأمة الإسلامية التي لها الحق في أن تفعل ذلك متى استطاعت...

وأن سياسة الخداع والدهاء والمرونة السياسية إن هدأ بها الجو حيناً فلا تلبث أن تهب العاصفة قوية عنيفة. وقد تكشفت هذه السياسة عن كثير من الأخطاء والمشكلات والمنازعات، وهي في المستقبل أضعف من أن توصل إلى المقصود.

وإذاً فلا بد من سياسة جديدة، وهي سياسة التعاون والتحالف الصادق البريء، المبني على التآخي والتقدير، وتبادل المنافع والمصالح المادية والأدبية بين أفراد الأسرة الإنسانية في الشرق والغرب، لا بين دول أوروبا فقط، وبهذه السياسة وحدها يستقر النظام الجديد وينتشر في ظله الأمن والسلام. إن حكم الجبروت والقهر قد فات، ولن تستطيع أوروبا بعد اليوم أن تحكم الشرق بالحديد والنار.

وإن هذه النظريات السياسية البالية لن تتفق مع تطور الحوادث ورقي الشعوب ونهضة الأمة الإسلامية، ولا مع المبادئ والمشاعر التي ستطلع بها هذه الحرب الضروس على الناس.

	ونحن لا نطمع في حق سوانا، ولا يستطيع أحد أن ينكر علينا حقنا. وإن خيراً لكل أمة أن تعيش متعاونة مع غيرها من أن تعيش متنافسة مع سواها حيناً من الدهر، يندلع بعده لهيب الثورة في البلاد المغصوبة، وجحيم الحرب بين الدول المتنافسة». «ونعتمد كذلك على التطور في التفكير العالمي وهذه اليقظة في الضمير الإنساني، ويا ويح الدنيا إذا كانت ستسودها وتصرفها من جديد الأفكار الرجعية، وتتحكم فيها المطامع الاستعمارية، وإذا كانت الدول المنتصرة تظن أن في استطاعتها أن تقود الدنيا من جديد بالحديد والنار، فما أبعد هذا الظن وأعرقه في الوهم والخيال، فإن موجة اليقظة التي أحدثتها هذه الهزات العنيفة لا يمكن أن يقف تيارها حتى يصل إلى غايته ويبلغ مداه، ولن يستقر بعد اليوم في الأرض السلام إلا إذا أدركت الدول الكبرى هذه الحقيقة واعترفت لغيرها من الأمم والشعوب بحقها في الحياة والحرية والاستقلال».		

ماذا لو لم تقتنع؟	«ليقل القاصرون الجبناء إن هذا خيال عريق ووهم استولى على نفوس هؤلاء الناس، وذلك هو الضعف الذي لا نعرفه ولا يعرفه الإسلام. ذلك هو الوهن الذي قذف في قلوب هذه الأمة فمكن لأعدائها فيها، وذلك هو خراب القلب من الإيمان وهو علة سقوط المسلمين. وإنما نعلن في وضوح وصراحة أن كل مسلم لا يؤمن بهذا المنهاج ولا يعمل لتحقيقه لا حظَّ له في الإسلام، فليبحث له عن فكرة أخرى يدين بها ويعمل لها».	رسالة إلى الشباب	والمنظور الإمبراطوري وفتح جبهات في كل مناطق العالم لاستعادة ممتلكات الإمبراطورية الإسلامية التاريخية وحلم القدرة على قهر البشرية على الرغم من فارق القوة، كلها قضايا تسمح بمناقشة البنى ولكن الخطاب هنا يأخذ منحى آخر... وهن... خراب القلوب... من لا يؤمن بهذا المنهاج فلا حظَّ له في الإسلام؟

- **مقدمات**

البنا، عليه رحمة الله من أوسع الشخصيات انتشاراً، وحركته التي أنشأها أدت أدواراً كبيرة في تاريخ المنطقة وما زالت جزءاً من المشهد السياسي ولها كثير من الفضل والخيرية... والبحث هنا ليس منصباً على الماضي والأفكار في حدّ ذاتها للوصول إلى استنتاجات لإدانة حركة الإخوان المسلمين أو الانتقاص من الإمام البنا عليه رحمة الله، فالبنا أدى دوراً مهماً في الإحياء الإسلامي المعاصر، كما أدى عبد الناصر دوراً مهماً في الوعي العروبي المعاصر، فدراسة الشخصيات التاريخية شيء ودراسة منتجها الفكري ومآلات اجتهادها شيء آخر، والعقل العربي مأزوم بتقديس الأشخاص ولا يميز بين التقديس والتقدير ولا بين ذات الشخص ومجمل أفكاره، والبحث هنا ينصب على رؤية أوجه التطور المحتملة لفكرة الأستاذ البنا الأساسية وهي تتقدم إلى العالم الإسلامي فهناك باستمرار:

- ✓ الغاية التي أرادها المصلح.
- ✓ وهناك الوسيلة الفكرية.
- ✓ والحامل البشري الذي أنشأه للوصول إلى النتيجة.
- ✓ وهناك النتائج والنجاحات والإخفاقات التي مرت بها التجربة.

وكل ذلك لا يقدح في صدق النوايا وحجم التضحيات؛ فالبحث يريد المستقبل وأوجه التطوير المحتملة التي تبنى على معرفة أوجه النقص في البنية الفكرية التأسيسية المتاحة بين أيدينا من فكر البنا.

دعوة منفتحة على النقد

طرق الكتابة

من الجوانب المضيئة في ما خلّفه حسن البنا من فكر في الرسائل ما ذكره في رسالته **دعوتنا في طور جديد؟؟** حين قال: «**إن لكل عصر طريقاً في الكتابة تتناسب مع أسلوب أهله في الفهم وطريقهم في الدراسة، ولا بد من هذا التجديد تبعاً لتجدد عقول الناس وتغير طرق البحث والتفكير والاستنباط**، ولم يعد يكفي في الجواب عن طبيعة أسلوب التجديد المطلوب: كلام مرتجل أو خطابة تثير المشاعر أو عبارات تؤثر في العواطف، بل صار واجباً على أهل الدعوة أن يصوّروها للناس تصويراً منطقياً دقيقاً واضحاً مبنياً على أدق قواعد البحث العلمي وأن يرسموا أمام الناس الطرق العملية المنتجة التي أعدّوها لتحقيق ما يريدون، ولتذليل ما سيصادفون من عقبات لا بد من وجودها في الطريق».

فإن كان البنا دعا إلى التجديد وفق علوم العصر وقواعد البحث العلمي، وبعيداً عن الخطابة واستثارة المشاعر، فإن ذلك يعطينا قدراً من الراحة والسعة في نقد أفكاره، ويفترض أن يقلل من تحفز الأنصار، وكيف يتحفزون والمؤسس دعاهم قبل أن يدعونا إلى جعل العلم معياراً وحكماً على الأطروحات.

نقد الفكرة ذاتها

والبنا بعدها هو أول من دعا في رسالة المؤتمر الخامس من له رأي في مشروع الدعوة أن يقوله ونقتبس منه دعوته الصريحة: «**ولا بأس أن يتقدم إلينا من وصلته هذه الدعوة ومن**

سمع وقرأ هذا البيان برأيه في غايتنا ووسيلتنا وخطواتنا فنأخذ الصالح من رأيه وننزل على الحق من مشورته فإن الدين النصيحة...».

المهم الأفكار المؤثرة لا الشخص

وأعرف من سيسارع من الإخوة ليقول: إن البنا قال في أماكن أخرى غير التي طرحناها في البحث... وإن الإخوان الحاليين لم يفهموا كلامه ولم يطبقوه وهذا ليس ذنبه... وسيعود الموضوع للدفاع عن الشيخ البنا عليه رحمة الله... والدراسة هنا لا تسعى إلى الإدانة ولا إلى التبرئة بل تتكلم عن الأفكار الفاعلة في العقل التنظيمي بغض النظر عن سوء الفهم وعن براءة البنا الأصلية... لأن الجهد في تبرئة الأشخاص يجب أن لا يصادر الغرض الرئيس وهو ما تحدثه الأفكار في الواقع.

والكتابة عن البنا اليوم وفي هذا الظرف قد تأخذ مسارين: المسار **الأول**: مسار تكسير العظام، **والثاني**: مسار التشفي، وليس هذا غرض البحث... بل جوهر الموضوع هو اختطاط طريق جديد للمستقبل عبر مراجعات كبرى وصريحة وفي الغالب مؤلمة، ولكنها الطريق الأسلم لجعل التضحيات تؤتي ثمارها... فلهذا المستقبل المأمول نكتب ونتحمل كل ما يترتب على هذه الصراحة من سوء الظن ومن التجريح وقد عانيناه في ما هو أخف من هذا... ولكنه طريق المستقبل المأمول.

النواة الجنينية تعمل عملها

لا يمكن فهم فكر أي حركة سياسية إلا بفهم أفكار مؤسسها وتصوّراته عن ذاته وعن الوطن وعن العالم فهناك في

العمق توجد كل الخلطة الجنينية التي يتشكل منها كائن التنظيم، وبما أن التنظيمات ليست بالضبط كائناً جنينياً، فهي تغيّر وتبدّل في أثناء مسيرة التنظيم بفعل تصوّرات قياداتها وضغوط الواقع، ولكن النواة الجنينية للأفكار تعمل عملها مع أول فرصة تتاح عبر تغيّر في المناخ الذي حولها... ولا عبرة هنا بالنوايا الطيبة ولكن المهم طبيعة العمل ومآلاته.

النقد

إن دراسة فكر الأستاذ البنا من خارج التنظيمات شيء مختلف عن دراسته من الداخل؛ فمن في الداخل عادة ما يبحث عن مبررات الفكرة ويغالط نفسه في إيجاد المعاذير لها، أما من هو خارج التنظيمات فإن صدّقنا سلامة النية، فهو باحث عن أوجه القصور لعلّه يصيبها فيضيف وعياً جديداً لمشهد مغلق داخلياً على نفسه.

- ✓ البحوث الدعائية عمل ممنهج للهدم أو البناء.
- ✓ البحوث العلمية عمل ممنهج لكشف التصورات.

فكر مؤثر فكر ينقد

والأفكار نوعان:

- ✓ فكر مجرد لا يؤثر في الواقع.
- ✓ فكر متبلور في شكل مشروع حركي مؤثّر في الواقع.

حين يكون الفكر فكراً مجرداً... شيء... وعندما يكون فكراً حركياً يضع وسائله في الواقع ويؤثر في مصير الأمم شيء

آخر، ومن هنا لزم بعد كل هذه الرحلة الطويلة من بداية القرن المنصرم وحتى اليوم، وقفة جادة مع التراث الفكري المتداول وتجلياته في الواقع لمعرفة قدرته على تحسين الواقع أو قدرته على إرباك الواقع. وبما أن فكر البنا تمحور حول فكرة الدولة فلنا أن نتساءل عن متطلبات إنشاء الدول اليوم؟

متطلبات إنشاء الدول اليوم

إن الناظر في الواقع الحي يعرف أن هناك ثلاثة متطلبات لإقامة الدول في عصرنا على الأقل:

الأول: هو متطلب الوجود، بمعنى حضور الكيان المسمى دولة من أرض وشعب وهو كي يتجسد سياسياً يحتاج إلى أمرين ضروريين، **أولهما**: الوجود المادي المتمثل في الأرض والشعب والحكومة، **وثانيهما**: وجود الاعتراف الدولي، حيث لا يستطيع أي مجتمع أن يعيش لمدة طويلة تحت الحصار والمقاطعة في هذا العصر.

الثاني: وهو متطلب الاستقرار، والاستقرار هو وجود الأمن والأمان الذي يسمح لعجلة الدولة الاقتصادية بالحركة وتنفيذ الخطط المقررة وهذا يعني أمرين أيضاً، **أولهما**: نجاح المجتمع في صياغة عقد تراضٍ بين شركاء الوطن يجعل كل القوى المؤثرة مشاركة في ضمان الاستقرار، **وثانيهما**: هو وجود القدرة على توفير شروط الكفاية للمجتمع في معيشته.

الثالث: هو متطلب التنمية، وجوهر التنمية هو القدرة على تحقيق الرفاه للمواطنين وملاحقة احتياجاتهم المتزايدة إلى فرص العمل وسبل العيش، وهذا يعني أمرين بالضرورة **أولهما**: توفر

التصوّر لخطة الإقلاع التي تضمن استغلال موارد الوطن بأمثل طريقة، ولصالح الجميع، **وثانيهما**: وجود رؤوس الأموال الكافية لتشغيل الخطة.

من هذه البسائط يمكن النظر إلى أي فكر سياسي لجماعة أو حزب بمعايير موضوعية تشير إلى إمكانية نجاحه في معالجة الواقع أو احتمالات فشله في كل ذلك.

فكرة الهيمنة على مجتمعات متعددة الهويات

ومن نافلة القول أن فكرة الهيمنة على مجتمعات متعددة الانتماءات والهويات والديانات عبر عنصر القوة، اليوم أصبح أكثر استحالة، بسبب تعقيدات المجتمع الدولي المعاصر وقدرته على التدخل في كل شؤون الدول من دون استثناء، فالهويات الخاصة اكتسبت أولاً وعياً كبيراً بذاتها لا يسمح بذوبانها وغياب هويتها واكتسبت قدرة على المقاومة بسبب ما أتاحه لها العصر من اتصالات ومواصلات وقوانين دولية تسمح لها بالحركة والفعل... هذا الأمر الذي جعل دولة القوة المطلقة وإن أمكن وجودها، ولكن استقرارها شبه مستحيل.

الفرد ووعيه بحقوقه

وفكرة الدولة التي تستبطن فكرة قهر الآخر أو فكرة الامتنان عليه بدرجة من التسامح، ليست بديلاً بأي حال عن دولة المواطنة التي طرحها العصر وأي محاولة للالتفاف عليها ستقود إلى مصير مظلم، فالفرد اليوم، من أي هوية كان، بات يعرف عن نفسه وحقوقه وهويته الخاصة ما يجعله لا يقبل عن المواطنة المتساوية بديلاً.

كم تستجيب أفكار البنا لهذه الشروط؟

ونحن سننظر في مقولات الإمام البنا من هذه الزاوية؛ لنعرف جوانب قد لا تظهر، حتى لمن في التنظيمات؛ بسبب طريقة العرض والتعتيم التي تتم غالباً عبر أساليب التنشئة والتكوين، وعبر الفكر الاعتذاري الذي يحرف الفكر عن مواطن الخلل ولا يواجه الخطأ بتصحيحه، وهي أساليب شائعة في فضاء معظم التنظيمات إن لم أقل كلها.

الإخوان ليسوا شيئاً واحداً

من المقطوع به أن بعض أطراف التنظيمات المؤمنة بفكر البنا أو التي تأسست تاريخياً تبعاً له، ليست على قدم سواء في اتباع تلك المقولات؛ فبعضها حسم في موضوع الديمقراطية كالنهضة في تونس، وبعضها تقدّم كثيراً في الشراكة الوطنية، وفي حكمة التعامل مع الفرقاء، كاليمن مثلاً، وبعضها قدّم نموذجاً مختلفاً، مثل السودان، وليس بالضرورة نموذجاً ناجحاً ولكنه فقط مغاير... فالحديث ليس لتعميم مقولات البنا على الجميع بالقدر ذاته، ولكن لرؤية الأفكار البنيوية التي أسست المخيال الجمعي الحاكم والانتباه إليها، فهي مكتوبة بالحبر السري في العقول نتيجة الاستدعاءات الجزئية ونتيجة الممارسات التربوية المتواترة، فالأفكار الكبرى تبقى تشغب على فضاء الفكر استراتيجياً وإن كان التكتيك أحياناً يسير بنجاح، وقديماً قيل: إن النجاح التكتيكي لا يساوي شيئاً أمام الفشل الاستراتيجي.

مقدمات

هناك أربع قضايا أو دعاوى تتكرر في كل الطيف الإسلامي وتحتاج إلى وقفة قصيرة:

القضية الأولى

يقارب الواقع بتعقيده باستمرار باستدعاء نص مقتضب؛ أي: بسوق آية أو حديث له صلة بالموضوع، ويعتبر القائل إنه قد وفّى الموضوع حقه، فمثلاً لو كان الحديث يتم عن نظام الحكم سيقول القائل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وسيعتبران مجرد الإشارة كافية في الدلالة على المراد... وفي المقابل في البيئات ذاتها لا يتوقع صاحبنا أن يطرح أحد عليه أسئلة حول كفاية الاستشهاد، فهي بيئة خطابية أحادية الاتجاه تكوينياً.

وخطورة المسألة تكمن في أن تلك المقتضبات يكتشف بعد حين أنها كل البضاعة، ففي بعض البلاد التي حكمتها الحركة الإسلامية بقي البحث عن معنى الدولة الإسلامية قائماً ولم يخرج أحد بحل... فيمر عقد وعقدان والأمور تسوء ويتساءل الناس أين النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي المبهر... لا شيء... ولكن بطريقة ما، يعتقد العقل الأيديولوجي أن بإمكانه إنتاجها إبداعاً بعد التمكين... ويأتي التمكين ولا يأتي الإبداع.

كانت تعرض للرسول عليه الصلاة والسلام وهو يقود

المجتمع الأول قضايا ذلك المجتمع الصغير، وكان القرآن يوجّهه إلى الحلول في تلك البيئة فيأتي نص في حادثة قضاء، ويأتي نص في حادثة بيع وشراء، ويأتي نص في حادثة زواج، ويأتي نص في حادثة طلاق، ويأتي نص في حالة حرب، وكل ذلك يتمّ في سياق اجتماعي وثقافي محدد المعالم، لا يحتاج بعدها إلى مزيد تفصيل بالنسبة إلى السامع والمنفذ... ولكن بعد غياب الرسول (ﷺ) واختفاء معالم تلك البيئة، كيف للفقيه أن يملأ تلك الفجوة ويتنزل بالنص في غير سياقاته، وفي غير بيئته، وفي مجتمعات مركبة وبالغة التعقيد، فهل كلمة «بيع» في الماضي لها الأبعاد نفسها لكلمة «بيع» اليوم، على سبيل المثال، في عصر اختفى فيه البائع والمشتري والسلعة والثمن أو غيبتهم تقنيات العصر.

والعقل الديني لا يرى ضرورة لفهم كل ذلك؛ فهو يعتقد أن النظام والحل موجودان ما دام النص المختزل قد ذكر شيئاً من ذلك، وهو يعتقد أنه سيتم إنتاجه في يوم ما، وليس عليه التأكد من وجوده قبل القفز إلى مقاعد التنفيذ... ولكن أزمته لا حدود لها حين يبتلى بتنفيذ ما يقول!

وهذا مطرد في الخطاب الديني ومنه خطاب البنا عليه رحمة الله.

ولنأخذ مثالاً صغيراً على ذلك من رسالة المؤتمر الخامس ص١٩: «نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنظم

شؤون الناس في الدنيا والآخرة... وإنك لتقرأ في القرآن... في العقيدة والعبادة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وإنك لتقرأ في الحكم والقضاء والسياسة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، وتقرأ في موضوع الدَّين والتجارة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]». هكذا ستحتل الاستدعاءات الجزئية المخيال ويتم تلقيها باعتبارها النظم ذاتها بسبب كثرة التكرار أو ينطبع في الذهن أنها ما دامت ذكرت فهناك ما يوازيها من تفصيلات عند شخص ما أو سيولدها شخص ما ولا ينتبه القائل إلى أن مجرد ذكر الأمور لا يعني تحوّلها إلى نظم وأن المسافة بين العنوان العام وبين التنفيذ هي الفارق بين الأمم؛ فالكل يؤمن بالعدل ولكن من يستطيع أن يوجِد نظاماً للعدل ناهيك بأن يكون الأجود.

القضية الثانية

دعوى وجود منتج أصيل غير ما أنتجته البشرية... منتج مستعلٍ ولو لم يوجد في الواقع العملي... فباستمرار هناك وعد بشيء مختلف... لم يظهر من قبل... وسيظهر عندما يتم التمكين... الحل المثالي لمشاكل الواقع... شيء فوق ما أنتجه الشرق والغرب... وتمر السنين ولا يظهر شيء من ذلك، ولكن المخيال دائماً يقول: دعونا نتمكن وسنريكم... كل ما

أنتجته البشرية عندنا خير منه... وأوضاعنا سببها أننا لم نطبق ما عندنا... سببها أننا مبهورون بما عند غيرنا... وينسى الجميع أن هناك مجتمعات ما زالت على ما هي عليه وهي من أتعس المجتمعات البشرية... فأفغانستان وقبائلها ما زالت تدرس بالطرق القديمة وتعيش بالطرق القديمة ولا سبيل أمامها للتقدم حتى الآن... ولكنها روح تعطي الشاب المسلم شعوراً خادعاً بالاكتفاء بينما سلاحه الذي يجاهد به عدوه ومدرسته التي يدرس بها وآلته التي يتنقل بها وثيابه التي يتغطى بها، كلها قادمة من غيره فما هي شؤونها التي ستقلد فيها، وما هي شؤونها التي ستتميز عن غيرها فيها؟

إننا نحتاج إلى العالم اليوم في معظم شؤوننا وليس من العيب أن نقول ذلك، ونحتاج إن أردنا التقدم إلى أن نتعلم منه أولاً، ونستوعب ما عنده ثم نضيف ما عندنا بعدها وليس قبلها، وانظر إلى قول البنا عليه رحمة الله: «هكذا اتصل الإخوان بكتاب الله واستلهموه واسترشدوه، فأيقنوا أن الإسلام هو هذا المعنى الكلي الشامل، وأنه يجب أن يهيمن على شؤون الحياة وأن تصطبغ به... ما دامت الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاماً صحيحاً، **أما إذا أسلمت في عبادتها وقلدت غير المسلمين في بقية شؤونها فهي أمة ناقصة الإسلام...**» (رسالة المؤتمر **الخامس** ـ حسن البنا).

وبهذا يبدو أننا لن نستعير من البشرية شيئاً أو أن المقصود سنأخذ منها شيئاً قليلاً في العلوم التطبيقية مثلاً، أو سنأخذ ما نسد به حاجتنا؟؟؟

ولكن هل نمتلك الحلول للواقع بعيداً عما أنتجته البشرية

وكم حجم الفجوة التي تحتاج إلى ردم... يجيب البنا في الرسالة ذاتها: «إن الإسلام كدين عام انتظم كل شؤون الحياة في كل الشعوب والأمم لكل الأعصار والأزمان، جاء أكمل وأسمى من يعرض لجزئيات هذه الحياة خصوصاً في الأمور الدنيوية البحتة، **فهو إنما يضع القواعد الكلية**».

ها نحن نكتشف أن شؤون الحياة البحتة لا توجد فيها إلا قواعد كلية، وأن الجهد البشري هو الذي سينتج النظم والسؤال بعدها عن كفاءة هذا الإنسان في صناعة النظم، فقيمة العدل مثلاً ستعني نظاماً حقوقياً راقياً، وإنتاجه هو شأن بشري بحت قد تتفوق فيه أمم الأرض، ويبقى المسلم عاجزاً عن إنتاجه... وهي عندها وإن أرادت الأفضل ستضطر إلى استعارته من غيرها، فكم مساحة ما يجب استعارته من العالم اليوم في شؤون الحياة في السياسة والاقتصاد والإدارة ناهيك بالعلوم والمعارف..؟

ولكن القائل والمتلقي لن يطرحا الأسئلة على مثل هذا القول!

وهو ما اصطدمت به الحالة الإسلامية اليوم، فهي تصل إلى الحكم ولكنها تعجز عن تحويل تلك المبادئ العامة، التي تحدّث عنها البنا، إلى نظم مقبولة وفاعلة، والسؤال لماذا؟

والإجابة بسيطة، فالنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها هي نتيجة رحلة طويلة للبشرية، ولم تكن إبداعاً في لحظة تولي الحكم وهي بنت صيرورة من الممارسات الطويلة، ولو أراد أحد أن يترك ما أنجزته البشرية ويبدأ من

جديد؛ لاحتاج إلى عقود بل إلى قرون ليتوصل إلى ما يقارب ما أنجزته البشرية اليوم!

القضية الثالثة

لفظ الأمة الإسلامية حين تقال مطلقة من أي قيد يبدو وكأن هناك كياناً خالصاً للمسلمين في بقعة ما، يجتمعون فيه تحت كيان واحد... كيان محدد وليس افتراضياً... وهذا الكيان هو المقصود بالفعل ولا يبين لنا المتحدث عندها أنه يتكلم عن كيان افتراضي غير متبلور مكوّن من:

- شعوب.
- لغات.
- مذاهب.
- مصالح.

وهي لم تتفق على الاجتماع وربما لا ترغب فيه بشاهد الحال... ففي حين لا يمكن جمع الصوماليين على وطن ولا الفلسطينيين على وطن ولا السودانيين على وطن، يسرح الخيال ويمتد للحديث باعتبار ذلك أمراً واقعاً وربما باعتبار التاريخ أو لحظات في التاريخ، فكل شيء متجاوز لحقائق الواقع المعاش... ولكن الصياغات التعميمية لا تلقى تساؤلاً أيضاً في بيئة الخطابة المطلقة...

فالواقع العملي فيه الدولة القطرية، والدولة القطرية فيها خليط من البشر يبحثون عن المساواة والعدل والرفاه... فالمسلمون ليسوا شيئاً واحداً ولا مذهباً واحداً ولا مصالح

واحدة، وغير المسلمين ليسوا مستضعفين سيستسلمون لمقررات لا تعطيهم حقوقهم في المواطنة المتساوية كاملة... والعالم محكوم بموازين القوى ولا يستطيع أحد أن يفرض نمط تفكيره على العالم... ولكن العقل الخطابي... والبلاغة الخطابية... واللغة الشاعرية تترك كل هذا الواقع القريب الذي لا تجد له حلاً وتحلّق في فضاءات الخيال لترسم عالمها.

ومن هنا يصبح الشاب المسلم العاجز عن أن يوجد مجتمعه الصغير وأن يلتقي ربما مع أخيه في البيت بسبب نظام الأفكار يتكلم عن ذلك الوضع الافتراضي باعتباره حقيقة قائمة... وهي تكتسب هذا المعنى بسبب تداولها المستمر ولكنها على أرض الواقع الصلب عاجزة عن الفعل ولو على مستوى مجتمع واحد... بل فصيل واحد.

القضية الرابعة

دعوى الأخذ من المعين الصافي من الكتاب والسنة من دون وسائط وهي مهمة كبرى دونها خرط القتاد، فكل اقتراب من النص هو ابن المنهج، والمنهج نحت بشري والنص القرآني في أغلبيته ظني الدلالة وكل مقترب منه هو مجتهد يحمل معه منهجاً، وتطويره للاقتراب من النص الحديثي أعقد، فآلية التحقق من الورود هي تحدٍ بحدّ ذاتها وآلية الاستنباط تعاني ما تعانيه كل العملية الاجتهادية، وللنظر إلى مثال من كلام البنا عليه رحمة الله: «يعتقد الإخوان المسلمون أن أساس التعاليم الإسلامية هو كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله (ﷺ) اللذان إن تمسكت بهما الأمة فلن تضل أبداً وإن كثيراً من الآراء

والعلوم التي اتصلت بالإسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجدتها والشعوب التي عاصرتها. ولهذا يجب أن تستقى النظم الإسلامية التي تحمل عليها الأمة من المعين الصافي، معين السهولة الأولى وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم..» **(رسالة المؤتمر الخامس** ـ حسن البنا).

وبالتالي بقدر ما يبدو الكلام منطقياً بقدر ما تعوزه الآليات الإجرائية، فكثير من أدوات التعامل مع النصوص هي أدوات مسكونة بالقصور، وقدرتها اليوم على ردم الفجوة بين حركة الواقع وبين النص قدرة ضعيفة، تظهر في كل مرحلة من مراحل التقدم البشري الذي تخافه ابتداء فتلجأ إلى التحريم ثم تقبل بشروط ثم تتحرك مع العصر لتعيد الدورة مع مستجد آخر، فالعلوم الإسلامية التي تنتج من النص ما زال أمامها رحلة طويلة لتصل إلى ما يكافئ احتياجات العصر ومتطلباته.

والوصول إلى مرحلة التعامل المباشر مع النصوص كما كان الصحابة قبل عصر التمدرس والتدوين قول حسن، ولكن الوصول إليه من دون مهامه وقفار وتحديات قد يستمر عقوداً إن لم يكن قروناً والزمن لا ينتظر مثل ذلك!

• فكر البنا: مراجعات فكرية لبعض الأفكار البنيوية عند البنا

لقد قلنا في المقدمة إن البنا طالب من يقرأ دعوة الإخوان أن يسارع بتقديم النصيحة وبيان أوجه القصور. ونحن هنا سنحاول أن نسلط الضوء على جانب من الصورة الذي ربما

يفسر، جزءاً من أزمة الواقع الراهن للحركة ومعها المجتمع الذي يحيط بها... وفي هذا السياق مرة أخرى ليس المقصود هنا أن المجتمع المحيط بالحركة هو مجتمع نموذجي أو أنه خالٍ من القصور والأخطاء والخطايا، فمشاكل الفكر الشمولي والإقصاء والظلم والبهتان واضحة لا تحتاج إلى دليل، فالكثير من الناس حين يتم الحديث عن برنامج جماعة محددة أو فكرة محددة يسارع ليقول: ماذا عن الآخرين؟ وهو مصيب من هذه الناحية، فالبيئة كلها مسكونة بمنظومة أفكار قاتلة وليس الجماعات الإسلامية وحدها... ولكن غرض البحث هنا بيان جانب من الصورة وحديثنا سينصب على فكر البنا هنا لأهميته وانتشاره وتأثيره، وإنه إن تمت مراجعته بجرأة وبتجرد سيقود إلى خير عظيم للمجتمعات العربية والإسلامية، نظراً إلى حجم التيارات التي تأثرت به في مختلف أصقاع العالم الإسلامي... وسنتناوله في ثلاث محطات مهمة:

١ ـ التحليل التاريخي الذي قدّمه البنا وجعل الحركة في سياقه.

٢ ـ نصوص تشكيل وعي الحركة.

٣ ـ الأفكار المدنية وما يشغب عليها.

١ ـ التحليل التاريخي الذي قدمه البنا: استنتاجات صحيحة من دون الدخول في الأسئلة العميقة

في تحليل البنى للتاريخ الإسلامي مقاربة صحيحة وجميلة لأهم أسباب شلل الحياة الإسلامية، وقد قدّمه في رسالة **بين الأمس واليوم** وهي رسالة قصيرة كتبها على عجل وتحت ضغط

معلومات أن هناك قراراً بنفيه، وسيحال بينه وبين أفراد التنظيم وأراد أن يرسم فكرته بوضوح، فبدأ بطرح تصوره لحركة التاريخ بغرض مركزة حركته في سياق ذلك التاريخ. والبنى في الأسباب التي ساقها صحيحة في المجمل، ولكن كانت تحتاج إلى الكثير من التفصيل لاستخلاص العبر التي كان ستعني تغييراً كبيراً في فهم التاريخ الإسلامي... فالتاريخ الإسلامي عرض عبر آليات تعتمد اقتناص اللحظات المشرقة فيه، وإهمال الأسباب التي قادت إلى الانكسار الكبير (آلية الحجب والتمرير).

وهي أسباب عميقة ومرة، ولكن دواعي البعث النفسي أَمْلت على رواة التاريخ، وخاصة من المعاصرين، أن يستجلبوا الصورة المشرقة بغرض رفع المعنويات، مما أفقد الشباب المسلم موضوعيته تجاه التاريخ، والبنا يطرحها في متوالية مهمة هنا...

- ✓ الخلافات السياسية...
- ✓ الخلافات الدينية...
- ✓ الانغماس في الترف...
- ✓ مشكلة من لا يفهم الإسلام...
- ✓ إهمال المعارف الكونية وعلومها...
- ✓ عدم متابعة تطور الأمم الأخرى...
- ✓ التقليد الأعمى للغير...

وكلها قضايا يمرّ عليها الفكر الإسلامي في الغالب:

✔ من خلال منظومة اعتذارات واسعة.

✔ بإرجاعها بقدر عال من التسطيح إلى فكرة المؤامرة.

من دون أدنى مسؤولية على أطرافها الداخليين سوى أنهم غير منتبهين إلى المؤامرة فلا مساءلة لنظام الأفكار ولا لنظام القرارات ولا لنظام العلاقات، كما تختفي التفاصيل للفترات الزمنية وحجمها، فلا نعرف من ومتى وأين وكم، فيتم اقتطاع فترات وعزلها عن ما سبقها ولحقها فلا يستبين القارئ إلا ما يراد له أن يصله... وعبر آليات المبالغة يتم توليد شعور متضخم بالذات من دون عمق معرفي لأسباب الانكسار.

في رسالة **بين الأمس واليوم** يشرح البنا مسار التاريخ الإسلامي وتطوراته ويقدم مجموعة أسباب لتخلف المسلمين:

أولها: الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه متى بدأت هذه النزاعات وكم كان حجمها، ومن أطرافها وهل سببها التنازع على الرياسة والجاه أم أن هناك أسباباً أخرى مضافة متعلقة بالتصورات والأفكار المغلوطة عن الدولة وما مصدر الخطأ وما تصورات الناس عن الدولة... إن العمق هنا مهم جداً لأن جملة الأسباب الماضية قد تكون هي ذاتها ما نعانيه الآن، وبالتالي تحرير الإنسان منها مقدمة لسلامة الإقلاع... وما هي حلول الدعوة الجديدة في هذا العصر للمشكلة ذاتها وتصورها عن طرق علاجها؟

ثانيها: انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب

إن المعروف أن الصراعات بدأت قبل دخول أي عنصر

غريب على العرب، فهي بدأت قرشية صرفة بين البيت الهاشمي والبيت الأموي ثم تطورت إلى صراع بين البيت العباسي والبيت العلوي وفي خلفية المشهد سنجد حركات الخوارج وهي حركة عربية صرفة فالمشهد المرتبك والصراعات وانعدام الثقة بين العرب وبعضهم، وهم نواة الإسلام الأولى... أدى إلى استجلاب العنصر الفارسي والعنصر التركي على المشهد... وتحميل غير العرب إشكاليات أحدثها الفكر. والتصور العربي فيه ظلم بيّن، ولو شئنا الإنصاف لقلنا إن كل الأعراق حينها كانت تعاني شرهاً في الحكم وتنافست على الملك تحت عناوين إسلامية.

ثالثها: إهمال العلوم والمعارف الكونية

وهنا يجب طرح أسئلة حول كيفية بدء نشاط العلاقة بالعلوم الكونية، ومتى وكم استمر وكيف تراجع وما أسباب تراجعه ودور العنصر الديني في تراجعه... فوحدها قراءة المشهد كما هو تعطينا الإجابات... ثم كم تخلصنا من مقولات القطيعة مع العلوم الكونية اليوم...

رابعها: الانغماس في ألوان الترف بحيث عرف عنهم ما لم يؤثر عن غيرهم من الانغماس في الملذات

إن الأسئلة هنا كبيرة لو كان البنا قد طرحها وتعمّق فيها لكان في ذلك خير كثير لمشروع الحاضر؛ ففي أمة مسلمة فيها كتاب الله وسنة رسوله ومع قرب العهد من النبوة ولم تمر حينها سوى أربعين سنة على الهجرة حتى بدأ كل شيء بالتغير، وبدأ الانغماس في الترف فكيف لم تنفع آلة الوعظ أو آلة الفقه في وقف تدفق الفساد... فما هي ضمانات الحاضر إذاً؟

خامسها: غرور الحكام بسلطانهم وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم الأخرى

ها نحن نعرف أن هناك تطورات اجتماعية في الأمم الأخرى في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة والتاريخ والعلوم الكونية وآلة الحرب... وأن أحد أسباب التخلف هو عدم متابعة تطور الأمم الأخرى، وبالتالي توقي تبعاته والعمل على دخول ذلك السباق في التطور الاجتماعي... فما هي الآلية التي ستجعلنا على اطلاع بما يدور حولنا من تطورات... وكيف سننشئ العقلية التي ترى وتعرف ما يدور حولها في العالم؟

سادسها: الانخداع بدسائس الأعداء... تقليدهم

ها نحن أمام تحليل صحيح للتاريخ ولكن الإبحار في طرح الأسئلة عليه كان ليقود إلى نتائج في غاية الأهمية في مستقبل الوطن العربي والفكر الإسلامي، ولكن الجهد لم يتواصل من بعد البنا لدراسة هذه المقولات، وطرح الأسئلة عليها وتعميق النظر ثم معرفة كيف سيفارق ما هو قادم ما هو متحقق في التاريخ، وكيف سينجو القادمون الجدد بالإسلام من الشِباك التي وقع فيها من هم أقرب زماناً وصلة بالمنابع الأولى... كل ذلك سيتم تجاوزه عبر سياسات الحجب والتمرير لإحداث التاريخ، فستعرض الصورة وكأن سقوط الأمة تم بالسكتة القلبية وبسبب مشاكل جانبية لا بنيوية في المركّب العقلي لصنّاع القرار، بينما الحقيقة البسيطة أن الأمراض المزمنة والمشاكل البنيوية كانت هي الأهم في سقوط الحضارة الإسلامية.

لقد أجمل البنا فأبدع في مقاربة الأمراض، وسنَّ سنة حسنة

في قضية مهمة تحتاج إلى استكمال، وقوامها كشف منظومة الأمراض الكبرى والتوسع في تشريحها واكتشاف آثارها الممتدة إلى اليوم... ولكن هذا المطلب السامي تمّ إجهاضه بسبب الحاجة المقابلة إلى استنهاض الهمم ووقف الانسحاق أمام نموذج الغرب، وهو عمل كان يقتضي كما بدا وإلى اليوم لأصحابه وقف البحث في جذور الأمراض التي أودت بالحضارة الإسلامية الواعدة حينها.

٢ ـ تحدي النموذج المعياري

تؤدي النماذج المعيارية دوراً كبيراً في اتخاذ القرارات. والنموذج المعياري هو عبارة عن تبسيط اختزالي لشيء ما، عادة ما نستخدمه للحكم على الوقائع التي تبدو متشابهة؛ فمثلاً حين يضع شخص تصوراً أو نموذجاً لتبسيط عملية الإعلام واختزالها، سيقول لنا هي عملية تتكون من خمس مفردات مترابطة: «مرسل، ورسالة، ووسط ناقل، ومستقبل، وتغذية راجعة»، وبعدها حين نثبت النموذج في الذهن سنستخدمه في التفسير حين نواجه عملية إعلامية تحتاج إلى تفسير، وسنسأل أنفسنا عن المرسِل وماذا يريد، وعن المستقبِل ماذا يريد، وعن الرسالة ومحتواها، وعن دور الوسط الناقل، وعن طريقة معرفة المرسِل لحدوث الأثر في المستقبل من عدمه... فمن النموذج تم توليد آلية تحليل... ومن النموذج يمكن توليد آلية تخطيط... فلو أراد شخص أن يقيم محطة فضائية سيسأل نفسه الأسئلة ذاتها: ماذا أريد كمرسِل؟ ومن هو الجمهور المستقبِل؟ وما مضمون الرسالة؟ وما أفضل وسيط لتوصيلها؟ وكيف أعرف ردة فعل الجمهور؟ فالنموذج المعياري هو نموذج حاكم تتم العودة إليه

عند تقدير أي أمر يعتقد أنه من جنسه سواء في التفسير أو تسهيل الاستدعاء.

وفي هذه المحطة سنحاول أن نسبر النموذج الحركي عند الأستاذ البنا من خلال التعرف إلى النموذج المعياري الذي استعان به ليصنع حركته. ولنقرأ ما يقول في رسالة **هل نحن قوم عمليون** ص٨٨:

«أنت إذا راجعت تاريخ النهضات في الأمم المختلفة، شرقية وغربية، قديماً وحديثاً، رأيت أن القائمين بكل نهضة موفقة نجحت وأثمرت، كان لهم منهاج محدد عليه يعملون... راجع تاريخ الهيئات والشعوب ترى هذا القول واضحاً بيّناً... ذلك واضح جلي في الخطوات التي سلكتها دعوة الإسلام الأولى... دعوة في السر... ثم إعلان بهذه الدعوة ونضال في سبيلها لا يمل... ثم هجرة... فإخاء... ثم نضال جدي وانتصاف من الباطل... وأنت إذا رجعت بذاكرتك إلى تاريخ الفرق الإسلامية، وإلى الأدوار التي سبقت وقارنت قيام الدولة العباسية في الشرق ثم نهضة الدول الحديثة الأوروبية من فرنسا وإيطاليا وروسيا وتركيا... لرأيت ذلك يخضع إلى مناهج معروفة الخطوات تؤدي إلى النتيجة الحتمية التي تعمل لها الأمة... أعتقد يا عزيزي أن كل انقلاب تاريخي وكل نهضة في أمة سارت طبق هذا القانون... حتى النهضات الدينية... هذا كلام أعتقد أن القرّاء فيه قسمان: قسم درس تاريخ الأمم وأطوار نهوضها؛ فهو مؤمن به معتقد له، وقسم لم تُتَح له هذه الفرصة؛ فإن شاء ليعلم أني لم أقل إلا الحق وإن شاء وثق...».

هكذا وكأي منظِّر أيديولوجي يبحث عن حل لواقع محدد، يشخّص البنّا المشكلة ثم يرسم خطة الحل ثم يعود إلى التاريخ ليستشهد به ويدلل على قضيته... ولكن لنقف أمام النماذج التي دمجها البنا مع بعضها وسنرى ثلاثة نماذج:

- ✓ النموذج النبوي.
- ✓ ثم النموذج العباسي.
- ✓ ثم النموذج الأوروبي في فترة ما بين الحربين.

... والنموذج النبوي بطبيعة الحال هو ابن أوضاع الجزيرة، ومع ذلك لم توجد خطة مرسومة كما نرى في المخططات الاستراتيجية مثلاً... بل هي إدارة بالرؤية... حيث وضع الحلم والغاية... ثم تركت عملية الحركة للتجربة والخطأ... ومنه نشأ منحنى تعلّم قاد في النهاية لمقاربة جديدة للوصول إلى المدينة المنورة، فهو نموذج ابن تكرار محاولة الحل وليس ابن مخطط مسبق.

فالرسول كان يطمع في إسلام دار الندوة؛ حيث تكون مكة قاعدة الانطلاق، وحين لم تُجدِ المحاولة معهم، انطلق إلى ثقيف ومن بعدها جرّب أكثر من أربع عشرة قبيلة لتقدم إليه العون وتمنحه سواعد أبنائها، وحين لاح أفق المدينة قام الرسول باختبار أفقها عبر إرسال مصعب، ولو نجح أي من الخطوط السابقة لتغيّر مجرى التاريخ...

ولكن لنعد إلى الدولة العباسية، فهي مخطط خدّاع كبير للدولة الأموية ولشركاء العباسيين من العلويين الذين كانوا حينها يعتقدون أن بني العباس يعملون معهم لإقامة الحكم العلوي،

فعملوا تحت عنوان «الدعوة إلى الرضا من آل محمد»؛ فاجتمع حولهم أنصار البيت العلوي معتقدين أن المقصود هم العلويون... ثم أبعدوا قيادتهم عن أنظار الدولة الأموية إلى منطقة الحميمة على الحدود الأردنية... ثم عملوا على اختيار المنطقة التي سيركزون فيها جهودهم فاختاروا خراسان بناء على تقدير موقف قدّمه قائد الحركة المؤسس ونشروا نقبائهم في سائر المناطق للتبشير بالفكرة وحشد الأنصار... وانتظروا لحظة ضعف الدولة الأموية بعودة جيوشها منهكة من الحروب، ولحظة انقسام البيت الأموي فانقضوا على الدولة وأسقطوها ثم انقلبوا على شركاء المشروع من العلويين ثم على قادة خراسان.
وستلاحظ هنا وجود شقين كبيرين:

- ✓ فهناك الدعوة.
- ✓ وهناك العمل العسكري.

ولو نظرت إلى التجربة الأوروبية بعد الحربين الأولى والثانية، فستجد فكرة قومية متطرفة وحنيناً إلى الماضي الأمبراطوري أدى إلى نشوء الأحزاب الفاشية والنازية والقومية المتطرفة، وكلها كان لها الشق الدعائي والشق العسكري ومعها يتماهى البنا في حديثه في **رسالة إلى الشباب** الصفحة ١٧٧: **«ولئن كان الرايخ الألماني يفرض نفسه حامياً لكل من يجري في عروقه دم الألمان فإن العقيدة الإسلامية توجب على كل مسلم قوي أن يعتبر نفسه حامياً لكل من تشربت نفسه تعاليم القرآن»**، فالبنا يرى هنا أن ما يقابل الروح الألمانية هي الروح الإسلامية والفارق بينهما في سمو الغاية، أما تكنيك الوصول إلى السلطة والتوسع فذلك قابل للتماهي... ولم يدرك البنا ما جرته هذه

الأفكار على هذه المجتمعات بعدها، ولو أدركه لربما غير كل ذلك.

ولكن يكفينا هنا أن نرى تلك النماذج المعيارية كيف انتشرت بعدها في المخيلة الشبابية وأصبحت جزءاً من فهم الدين لأنه قد تمّ تصليبها من خلال الاستدعاءات النصوصية من الكتاب والسنة، وبالتالي ستأخذ صبغة القداسة والإطلاق.

ومن وحي هذا الخيال سيتم وضع الأهداف والوسائل وبنية التنظيم وأدبياته ومخياله وحجاجه وقواعده الداخلية على فكرة العسكرة:

✓ سواء بشكلها المخفف المدني المطعم بتراتبية صارمة.

✓ أو بأشكالها الأكثر صلابة كما حدث في لحظة تاريخية في مصر وسوريا والسودان وغيرها من بقاع العالم من إيجاد تنظيم خاص.

... فهي:

✓ حين تخفّ تكون أدبيات متداولة وعواطف منتشرة.

✓ وحين تتصلب تتحول إلى عمل شبه عسكري... فالمخيال الجمعي لا يخلو منها...

✓ وحين تشتبك مع قطعيات فكر سيد قطب عليه رحمة الله تصبح حجاجاً صلباً عند الجماعات الجهادية كما هو حادث في سوريا اليوم.

٣ ـ نصوص تشكل الوعي

الأبعاد الثلاثة المؤسسة:

دراسة تصور أي منظمة عن نفسها يقول لنا كثيراً عن منظومتها وسلوكها، ولو قرأنا أدبيات الشيخ البنا (رحمه الله) سنجد أنفسنا أمام خطابات متنوعة متعددة الأوجه ولكن سنأخذ منها ما هو دال على قلب الفكرة التي أراد الشيخ أن يعممها بين أفراد التنظيم وأن تبنى عليها شخصية التنظيم وللنظر إليها من ثلاث زوايا:

- الموقع في الأمة.
- الموقع في الدولة.
- حق استخدام القوة في الدولة.

ودراسة هذه الأبعاد في غاية الأهمية؛ لأن تصور الذات ينعكس على كل العلاقات الأخرى مع المحيط بكل أشكاله وأفراده ومؤسساته، وتصوّر الدولة سيعني ما هو أخطر باعتبار الدولة تعريفاً هي الجهة التي تمتلك حق القهر واستخدام القوة، ثم إن مفهوم القوة حين يتمركز في جماعة خلاف الدولة القائمة، له مآلات خطيرة على الدولة والمجتمع وبطبيعة الحال على الجماعة حاملة الفكرة ذاتها وهو ما قاد الجماعة باستمرار إلى كل صداماتها... وذلك ما سنركز عليه في دراسة فكر البنا في الفقرات الآتية لنعرف بالتحديد أوجه الأزمة القائمة والمستقبلية ما لم تتم المراجعات الحقيقية العلنية وتصحح الوجهة.

أ ـ موقع التنظيم وأفراده في الأمة

«نحن أيها الناس ـ ولا فخر ـ أصحاب رسول الله، وحملة رايته من بعده، ورافعو لواءه كما رفعوه، وناشرو لواءه كما نشروه وحافظو قرآنه كما حفظوه، والمبشرون بدعوته كما بشروا بها، ورحمة الله للعالمين ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٨]». **من رسالة الإخوان تحت راية القرآن.**

لقد تطوّرت فكرة الذات المستعلية من فكرة «نحن جماعة من المسلمين» إلى فكرة نحن صحابة رسول الله... ورحمة الله للعالمين... فلم يعد الأمر نحن نقتدي كغيرنا بالرسول وصحابته... لا... تطور الأمر إلى التطابق... وفكرة التطابق من أخطر الأفكار التي يمكن أن يحملها أي تنظيم عن نفسه، فهو ليس حالة اجتهادية قابلة للصواب أو الخطأ، ويصبح ما هو اجتهادي ظني هو عين الحقيقة، وبالتالي سيصبح من الحق استدعاء الأحاديث الواردة في الجماعة، ومن فارقها فقد فارق الجماعة واجبة الطاعة والجماعة التي هي عين الصحابة... ومن السهولة بعدها الحديث مع من اختلف مع الجماعة وخرج منها على أنه من «المتساقطين عن طريق الدعوة» ويستباح منه كل شيء بعدها... وأن تغادر تلك اللغة اللينة التي بدأت بها الدعوة وتتعلق بفكرة أننا جماعة من المسلمين من غادرها فهو في حضن الأمة أو الجماعة الأكبر... انقلب الوضع رأسا على عقب وتكرس في الممارسات كثير من العنت مع المخالفين والخارجين بل حتى مع المجتمع الذي لم يناصر دعوة الحق «صحابة الرسول» تلك الصورة التي يحملها وإن لم يصرح بها التنظيم عن نفسه صراحة البنا ذاتها... إلا أنها تبرز في كل

سلوكياته فلا غرابة أن تكتسب بعدها الممارسات طابعاً طائفياً بتوليد ذاكرة خاصة بالجماعة وتاريخاً خاصاً وأدباً خاصاً ولغة خاصة، ثم يتحوّل ذلك إلى ظاهرة اجتماعية كاملة من الزيجات الداخلية كما عبّر عنها أحد المسؤولين في خطبة مشهورة «الأخ لا يتزوج إلا أخت»، والتجارة الداخلية والسكن الداخلي فالفرد حين يتعامل مع البيئة الخارجية يتعامل معها باعتبارها منطقة يجب أن يفر منها إلى الداخل حالة شبه كاملة من العزلة... ولو سألت الأخ أن ينشد حينها لصرخ فيك على الرغم من كل مظاهر الإسلام في المجتمع «غرباء... غرباء»... كل شيء يعاد تعريفه، ويصبح هناك فعلياً مجتمعان: مجتمع الجماعة، ومجتمع عموم المسلمين، ناهيك بغير المسلمين كما سيتبين لاحقاً وبينهما قطيعة لا يربطهما إلا جسر من الواجهات والعلاقات التي وظيفتها التجنيد.

ب ـ الموقع في الدولة والموقف المبدئي منها

«أيها الإخوان: أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزباً سياسياً ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله، وصوت داوٍ يعلو مردداً دعوة الرسول (ﷺ) ومن الحق الذي لا غلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلى عنه الناس». (رسالة المؤتمر **الخامس** ـ حسن البنا).

ها نحن نقف على عبارات مفتاحية في غاية الأهمية في فهم المنظمة وفهم نمط التفكير داخلها؛ فأولاً هي لا تأخذ شكلاً محدداً لأنها أكبر من الأشكال فأي وضع قانوني سيجعلها

مطالبة بالالتزام بنوع من النشاط لا تغادره، وبالتالي سيحدّ من حركتها، وهي ليست إلا اختزال لحالة الرسالة الأولى وترجمة لها فكيف توضع في قوالب الدولة المعاصرة وهي بالضرورة نقيضها.

إن المنظمة، بحسب رأي المؤسس، ترى أنها لا تغالي حين تقول إن الناس تخلّوا عن عبء الدعوة ولم يبق إلا المنظمة لتقوم به... هي إذاً آخر الحصون... بل حصن الحصون... والمجتمع أضيق من يضعها في أي شكل قانوني تم التواضع عليه... هي وحدها يجب أن تبقى مختلفة... تلك هي إحدى أهم عُقد المنظمة مع المجتمع الذي تعيش فيه وأي نظام سياسي حاضن... فكم تستطيع الدولة المعاصرة كما نعرفها أن تتعايش مع كيان يرى أنه أكبر منها وأشمل.

فالمنظمة هنا توقع نفسها والدولة التي تعيش فيها في حرج كبير:

- ✓ فإما أن تتقبل الدولة الوضع غير المقنن.
- ✓ أو تسن قانوناً خاصاً لهذه الحالة.
- ✓ أو تصطدم بهذا الكيان.

... تلك معضلة كبيرة خلقها التصوّر الأول عند المؤسس وما زالت تتردد على ألسنة المرشدين حتى اليوم. هي بهذا المعنى ليست منظمة خادمة للمجتمع في جانب من أوجه قصوره بل هي ذاتها الإسلام بكل جوانبه هي دولة داخل الدولة.

ولنستمع إليه عليه (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) يعلن رؤيته للدولة التي يعيش

فيها: «**ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام**» من «**رسالة إلى الشباب**».

هنا تتأسس علاقة ما مع الدولة التي يعيش فيها الشاب المسلم، فهي ليست دولته هو قد يهادنها ولكنها نظام هو مجبر على العيش فيها، وهو يحلم بنقضه ليعيش في «النظام الإسلامي بكل مظاهره»... هنا لغز آخر فالنظام السياسي الإسلامي محلّ خلاف تاريخي طويل، وبين الأحزاب والجماعات الإسلامية اتفاق على المسمى واختلاف في المضمون، وبين الأفكار ما بين المشرقين والمغربين من مسافة عند التطبيق... فالنظام لم يظهر عند باكستان ولا في أفغانستان ولا في الصومال ولا في السودان ولا في إيران وهي الدول التي أتيحت لها الفرصة لوضعه على الأرض تطبيقياً... ولكن عقل الشاب المسلم وتكوينه يعرف ما لا يريد، وهو هذا النظام الذي يعيشه لأنه «غير إسلامي»! ولكنه لا يعرف على وجه التحديد ما هو الشكل الذي يريد؛ فهناك طيف واسع في المخيال يراوح في فضاء واسع من تجربة أردوغان ومهاتير محمد إلى تجربة الملا عمر في أفغانستان وبينهما شتى الرؤى والتصورات... ولكن المحصلة هي حالة تنافر بين الفرد المنتمي والمجتمع الذي يعيش فيه، حالة حادة تنعكس في أدبياته وحجاجه وشِعره وقصصه فكل شيء يتم لتكريس غربته عن مجتمعه. هو حينها يعيش في

مجتمعه الجديد وهو ينتظر اللحظة التي ينهي هذا الوجود الخارجي بالاستيلاء عليه وتغييره بحسب رؤيته... تلك هي المعضلة التي تخلقها كل الجماعات في عقل الشاب المنتمي.

نصوص الفعل الحركي وبنية المشكلة

(الحديث عن البنا ليس حديثاً عن الماضي وشخصه، ولكنه حديث عن الحاضر الذي تتحرك به أكبر المجاميع الإسلامية بما لها وما عليها).

عبارات البنا والتصوّر الذي رسمه لا يمكن أن يقود إلا إلى الحالة التي تعانيها الحالة الإسلامية التنظيمية اليوم، بإيجابياتها وسلبياتها، وقلت الحالة الإسلامية التنظيمية، اليوم، لأفصلها عن حالة المجتمعات الإسلامية التي تعاني أزمة أعمق من مجرد التنظيمات؛ فالتنظيمات جاءت كاستجابة ومحاولة طرح حل على هذه الحالة، وفي حالة البنا، عليه رحمة الله، يلزم قراءة الأفكار المركبة التي يطرحها البنا على تشعباتها وضمّ بعضها إلى بعض لفهم المشهد الكلي... فقد وفرت العبارات المتباينة للبنا غطاء:

✓ لمن أراد مشروعاً عسكرياً وهم رجال التنظيم الخاص.

✓ ومن أراد مشروعاً مدنياً وهم أفراد نضجت بنيتهم المدنية وهم القلة.

ويبقى الأغلب الأعم معلقاً بين خطابين لا يدرى لأيهما الغلبة بين حلم التقدّم لمجتمع حديث وبين حلم العودة إلى ماضٍ يقال إنه الأجمل والأروع... ولا يمكن فهم البنا ومشروعه إلا برؤية الأفكار مباشرة.

والأستاذ البنا (رحمه الله) أنشأ أكبر الجماعات الإسلامية وهي الإخوان المسلمون، ولا نبالغ حين نقول إن كل الفصائل الإسلامية تأثرت بهم سلباً وإيجاباً في مرحلة من مراحل تكوينها، بل حتى الفضاء العام الثقافي تأثر عبر السجال مع أطروحات الجماعة، فنحن لا نبالغ حين نعطيها الأولية في التحليل.

وبسبب هذا الدور الكبير الذي أدته الجماعة، وما زالت، في الفضاء العام، لا بدّ من رؤية جذور الأفكار التي تحملها وقادت باستمرار إلى مآزقها المتنوعة، وهي خارج السلطة أو في السلطة على قدم سواء.

ومن دراسة البنا يمكن فهم الأفكار العميقة التي تحرك المجموع اليوم وتؤثر في قراراته، ومن هنا يمكن الجماعة أن تطوّر نموذجها الفكري عبر مراجعات جادة، ويمكن غيرها أن يرى الجماعة وتصوراتها الكبرى. ويمكن المحيط أن يطرح أسئلة موضوعية متعلقة بلب الموضوعات كما يمكن الفرد العادي من الجماعة الذي في الغالب تساق له العبارات من دون أن تكون عنده خلفية كاملة ليناقش ويبحث لينظر إلى نفسه ويراجع من دون وسيط يقوم بالحجب والتمرير.

وقد يسارع بعضٌ معتذراً أن لهذه الأفكار سياقها التاريخي وظروفها ولا بد من الإنصاف في حق الشيخ البنا ـ عليه رحمة الله ـ فميلاد الأفكار ابن ظروفها... ولو كنت معتذراً للشيخ البنا لوجدت كثيراً لأقوله وربما كان يلزم أن أخرج كتاباً بعنوان البنا بين المنهج والمنتج؛ فالبنا شاب درس أوضاع عصره ودرس التاريخ وكون نظرية للحركة ونظرية للتنظيم وصنع الشكل

والفكر، وطبّق ما اعتقده وكان يقوم بتغيير ما يلزم في أثناء الطريق من دون تقييد نفسه بشكل آسر لا ينفك عنه وكل ذلك يحسب له... أما المنتج فهو ابن عصره وزمانه وقصور طرحه كما يحدث مع كل البشر، ولو أخذ الإخوان المنهج واعتبروا المنتج ابن زمان ومكان وظرف محدّد لما وقعوا في كل هذه المآسي وأوقعوا المجتمع فيها ولتطورت النظرية... والحديث عن فكر البنا ليس حديثاً عن البنا كما يتصور بعضٌ فينبري للدفاع عن شخص البنا وهو في ذمة الله، ولكنه حديث عن الحاضر الذي نعيشه والأفكار التي تحكمه.

ودراسة فكرة حسن البنا تقتضي معرفة الملابسات التاريخية التي صيغت فيها الأفكار والظروف التي واجهتها، وعمر المنظِّر حين وضع الفكرة وطريقة تفكيره ولكن كل ذلك سهل في مقابل إشكاليات التعريف للمصطلحات المفتاحية المستخدمة عند الأستاذ البنا وأهمها وأخطرها، وفي صلب النظرية توجد فكرة النظام الإسلامي الفريد الذي إن خضع الناس له ستحلّ مشاكلهم وستجد البشرية معه السعادة والرفاه، فكلمة نظام حين تطلق قد يقصد بها وجود قيم مبادئ عامة، وقد يقصد بها وجود شكل محدّد للنظام بمعنى مدخلات وعمليات ومخرجات ونظام تحكّم. والمشكلة التي يصنعها مثل هذا الإرباك كبيرة وتعانيها الحركات الإسلامية التي وصلت إلى الحكم، كما في السودان أو تونس أو المغرب أو أفغانستان أو الصومال بشقّيْه مثلاً. فبالتصور العام هناك نظام إسلامي جاهز، كل ما يحتاج إليه ليرى الناس نتائجه هو تمكين وإرادة سياسية وينطلق بعدها بكل النظم الفرعية له، ومنها النظم السياسية والاقتصادية والإعلامية والتعليمية

والصحية... إلخ ليقدم الحلول التي تنتظرها البشرية، والأمر الذي يربك مشاريعها حين تصل إلى السلطة باستمرار هو هذا؛ فهي لا تجد شيئاً تستند إليه سوى ما هو موجود من عبارات عامة، أو أقوال قديمة نشأت في عصر غير هذا العصر... والبنا لم يذكر نظرية مركزة في كتاب واحد يسهل التعاطي معها كما في حالة الأستاذ سيد قطب (رحمه الله) في كتابه **معالم في الطريق** ولكن تفرقت تصوراته في رسائل متعددة وتناول كل موضوع بطرق مختلفة قادت إلى ثلاثة تفسيرات أصبحت تتصارع مستندة إلى هذه العبارات المتناثرة في ثنايا الرسائل التي خاطب بها أناساً مختلفين:

✓ فأحياناً كانت الصياغات تأخذ منحى مهادناً يخيّل للناظر إليه أن البنا قد طرح تفاهماً ما مع الواقع.

✓ وأحياناً تأخذ تصوراً عسكرياً يخيل للسامع أن البنا متجه إلى معركة.

✓ وأحياناً يتم الحديث عن الفضاءين في شكل تهديد سافر أو مبطن...

وهو ما ساعد الفكرة في الانتشار، فالبنا عند طالبي الدولة المدنية السلميين، رجل السلم وعند حاملي السيف هو مشروع عسكري مؤجّل إلى حين الإعداد.

وسبر الأفكار التي طرحها البنا (رحمه الله) ومعرفة إيجابياتها وسلبياتها يعين الإنسان على فهم المشهد الإسلامي المعاصر وإشكالياته سواء للمؤمنين بالمشروع الإسلامي أو المناوئين له.

أ ـ البنا وصياغة الأهداف والوسائل والعقبات

حين ننظر إلى فكر البنا على مستوى الأهداف سنجد أنفسنا أمام قضايا كبرى، مثل: تحرير الوطن الإسلامي من كل استعمار أجنبي وإقامة دولة الإسلام ثم استعادة الخلافة ثم استعادة الأراضي التي أُخذت من المسلمين كإسبانيا، وربما فتح المناطق التي جاءت في الآثار كروما... والفجوة بين الإخوان وهذه الأهداف فجوة واسعة بكل المقاييس؛ فتحرير الوطن الإسلامي بمعنى خروج المستعمر منه، والحصول على الاستقلال القانوني أمر متوّقع حينها، وليس بجهد الإخوان ولكن بكفاح الشعوب وحركات التحرّر المنتشرة حينها، ولكن ذلك هو الجزء الأسهل من التحرير، أما الأسباب العميقة لظاهرة الاستعمار فهي متجذّرة في قصة تطوّر الإنسان الأوروبي وامتلاكه مقاليد العلم والمعرفة لدرجة أن شخصية مثل سيد قطب، وفي أشد كتبه بعداً عن الواقع؛ أي: كتاب **معالم في الطريق**، يقدّر هذه الفجوة بعدة قرون، والفجوة ليست ثابتة بل تزداد اتساعاً مع الوقت وخاصة مع عالمنا العربي، ولكن التصوّر الأدبي والأيديولوجي قادر على العبور بالاتباع من الواقع إلى الحلم من دون الحاجة إلى شواهد موضوعية إلا ذكر بعض النصوص الأدبية أو الدينية.

والسؤال الكبير هو: ما دور الجماعة في تحقيق هذه الأهداف والوصول بالمجتمعات إليها؟ حينها لن نجد عناء كبيراً بعد أن قرأنا نص: «نحن أيها الناس ـ ولا فخر ـ أصحاب رسول الله، وحملة رايته من بعده، ورافعو لواءه كما رفعوه، وناشرو لواءه كما نشروه وحافظوا قرآنه كما حفظوه، والمبشرون بدعوته كما بشروا بها، ورحمة الله للعالمين ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ

حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]». رسالة **الإخوان تحت راية القرآن**.

ويقولها البنا بطريقة أخرى في الرسالة ذاتها: «**فهم الجماعة التي وقع عليها اختيار القدر لإنقاذ العالمين...**».

فمحاكاة الماضي والتماهي معه تصل إلى درجة الانطباق، وبالتالي فالوضع الطبيعي لمثل هذا التصور أن لا يعتبر نفسه إلا قائداً لحركة الجموع، وليس شريكاً في صنع المستقبل، ومن هنا تتولد إشكالية عدم الثقة التي تتعزّز باستمرار من خلال احتكاك الآخر الذي ربما اعتقد أنه في لحظة ما قادر على الدخول في شراكة متكافئة مع الجماعة، فتأتي الحوادث لتثبت أنه واهم فالبنية العميقة للفكرة تجعل أي نوع من الشراكة هو التحاق بالفكرة الكاملة، وليس شراكة في صناعتها وهو أمر ربما لا تشعر به الجماعة ولكن تمارسه لأنه جزء من منظومتها الفكرية الأعمق.

إطلالة على عبارات البنا ـ عليه رحمة الله ـ في الأهداف والوسائل والعقبات وما حولها:

١ ـ الأهداف

لننطلق لرؤية المؤسس لدور الحركة (فتحت عنوان دعوتنا دعوة البعث والإنقاذ يقول:

«اذكروا دائماً أن لكم هدفين أساسيين:

١ ـ أن يتحرر الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي وذلك حق طبيعي لكل إنسان، لا ينكره إلا ظالم جائر أو مستبد قاهر.

٢ ـ أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام وتطبق نظامه الاجتماعي وتعلن مبادئه القويمة وتبلغ دعوته الحكيمة الناس، وما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعاً آثمون مسؤولون بين يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم عن إيجادها»). (من رسالة **بين الأمس واليوم**).

فكرة تحرير الوطن الإسلامي وفكرة إقامة دولة إسلامية في مصر فكرتان ملحّتان في نموذج البنا، وبالتالي تصلحان لتفسير كل أنواع الاشتباك مع المحيط الوطني ومع المحيط الإقليمي والدولي، وحركة التحرير كانت هماً كونياً يومها، فكل دول العالم الثالث في قبضة الاستعمار ومنها العالم الإسلامي:

- ✔ وبالتالي فهو حلم عام يكتسب لغة دينية هنا...
- ✔ وفكرة الدولة المستقلة حلم وطني يكتسب لغة دينية هنا.

... وبالتالي سيندمج مشروعان **أحدهما** وطني يخالج الجميع حينها، **والآخر** إسلامي يخالج فريقاً اجتماعياً بعينه، وعلى الرغم من اختلافهما يتجهان إلى نقطة واحدة وهي التحرّر وإقامة الدولة، وسيختلفان في الروح الداخلية، هل يريد الوطن القادم والذي هو مسلم بحكم التاريخ:

- ✔ محركاً داخلياً مصاغاً بطريقة الفقيه.
- ✔ أم محركاً داخلياً وفق ما أنتجه العصر من أدوات...

والدولة المعاصرة مشروع معقد؛ فهي خاضعة بطريقة كبيرة

لشروط العصر الثقافية ومستوى الوعي الذي نتج من كل التطورات الأوروبية التي حدثت من القرن السادس عشر حتى الآن، وأصبحت مفاهيم كونية سائدة أعادت تعريف الإنسان والدولة والعلاقة بينهما، وأنشأت فضاء جديداً لم يستوعبه الفقيه المسلم حتى الآن، ففكرة المواطنة المتساوية وفكرة الدولة القطرية وفكرة النظام الدولي وفكرة الحدود الشفافة، كل تلك القضايا هي بنت العصر ولم يقاربها الفقه القديم، والذي ما زال متداولاً بيننا حتى الآن فكيف يمكن تركيب محرك من القرن الأول والثاني والثالث الهجري لمركبة فضائية ستعبر طباق السماء في هذا القرن، والفجوة بين أطروحتنا الفقهية وبين العصر لا تقل عن ذلك اتساعاً، فالدولة اليوم لا تحتاج كي توجد إلى بشر وأرض وحكومة تمثلهم فحسب، ولكنها تحتاج إلى اعتراف دولي يقيها شرور المقاطعة الدولية والحصار، كما هو حاصل مع إيران أو حماس في غزة أو كوريا الشمالية، وتحتاج إلى استقرار لا يتأمن إلا بتعاقد مرضٍ لكل أطراف الوطن، ولإمكانات تسيير المجتمع في مأكله ومشربه وبنيته التحتية وتعليمه وصحته وطاقته، وما لم يتوفر الأمران فلا استقرار ولا تنمية، والتنمية تحتاج إلى خطة وتصوّر وإدارة رشيدة وموارد لتنفيذها، ومن دون توفر هذه الشروط الستة فلا مجال للحديث عن دولة... والسؤال كم توفر أطروحة البنا هذه الشروط أو تتوافر عليها؟

٢ ـ الوسائل

والسؤال هل وضوح الأهداف يكافئه وضوح الوسائل؟ ولننظر إلى البنا وهو يجيب في الرسالة ذاتها؛ أي: **بين الأمس واليوم**، عن طريق التعميم على الوسائل:

«الوسائل العامة للدعوات لا تتغير ولا تتبدل ولا تعدو هذه الأمور الثلاثة: الإيمان العميق والتكوين الدقيق والعمل المتواصل، وتلك هي وسائلكم العامة أيها الإخوان فآمنوا بفكرتكم وتجمّعوا حولها واعملوا لها واثبتوا عليها».

٣ ـ العقبات

والبنا بعدها يشرح لنا العقبات التي ستواجه الجماعة والمشروع:

«العقبات في طريقنا: أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها ستلتقي منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات. أما الآن فلا زلتم مجهولين تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد. سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم في سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجهكم كل الحكومات على السواء، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم، وسيتذرع الغاصبون بكل طرق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان. وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات، وسيحاولون أن يلصقوا بها كل

نقيصة، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة، معتمدين على قوتهم وسلطانهم، ومعتدين بأموالهم ونفوذهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وستدخلون بذلك ولا شك في دور التجربة والامتحان، فستجنون وتعتقلون، وتنقلون وتشردون، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]».

وهو تصور غير قائم على معرفة قصور الأفكار الداخلية للمشروع، ولكنه قائم على تصور يتسق مع فكرة أن هذه دعوة الرسول (ﷺ) وصحابته، وبما أنهم مروا بتلك المشاق فدعوة البنا ستمر بها، واختيار الآية يعكس الفكرة فمن يقاوم الفكرة والنموذج فهو مندرج تحت الآية بصورة من الصور... والطريق لأصحاب الفكرة واضح لأنهم حينها يتطابقون مع الجيل الأول.

والجزء الذي لا يلتفت إليه البنا في هذا السياق هو أنه من الطبيعي حين يكون النموذج الاسترشادي لا علاقة له بالدولة القطرية ولا الإصلاح، ولكن يقوم على فكرة الهيمنة على المجتمع ويهدف إلى تجاوز الدولة القطرية وإسقاطها أن يواجه صراعاً وجودياً كالذي يتحدث عنه الأستاذ البنا، فاستبطان فكرة حركة العباسيين أو الحالة الفاشية في إيطاليا والحالة النازية في ألمانيا أو الستالينية في روسيا أمر يجب الانتباه إليه لأنه يقود إلى مسار مسدود كما حدث في كل التجارب السابقة حتى بعد تمكنها من السلطة، وعدم رؤية النموذج الاسترشادي أو

الاعتراف به يقود إلى غياب القدرة على المراجعة الفعالة!

وسنجد فكرة البلاء محددة بالتعذيب والسجون والتشرد والطرد... إلخ؛ حيث يُراد للعقل أن يفهم منها أنك ستدخل في صدام مع المجتمع والدولة والعلماء وكل العالم... إنها نفسية تهيئ لكل ما هو من جنس المواجهة، وستكون النتيجة أن يصبر المؤمنون بالفكرة على كل أنواع هذا البلاء؛ ليكونوا مؤمنين وينجحوا في الاختبار... إنه مرّة أخرى نقل لحالة وليدة هي حالة ظهور الإسلام وقائده محمد (ﷺ)، إلى حالة مجتمع مسلم يعاني، بالأساس، مشاكل مختلفة تماماً، وتحتاج إلى أدوات مختلفة في التعامل معه.

وستمتد فكرة البلاء إلى اليوم لتأخذ حيزاً أساسياً في الحفاظ على نظرية البنا، فكل ما يحدث من خير هو توفيق من الله، وكل ما يحدث من شر هو ابتلاء من الله، لذلك فالتنظيم يعاني منذ أيام البنا وبعده إلى اليوم من دون أي تبصّر بخطأ التشخيص والتصور... وسيكون الرد على كل الإخفاقات أن البلاء قدر من الله لاختبار عباده المؤمنين... وكأن الرعيل الأول الذي يستشهد به البنا في نظريته بقي معذباً في الأرض ولم ينجز المشروع، ولم تقم الدعوة ويشتد عودها ولم ينتشر الإسلام وينتصر.

لكنها مشكلة متأصلة في نظرية البنا ككل... وهي مشكلة مقارنة الواقع بالتاريخ أو تنزيل التاريخ على الواقع... على اعتبار أن التاريخ وأحداثه وحي... وأن الواقع يتحسن بمجرد استنطاق الوحي.

٤ ـ المسار

ويحدثنا البنا مرة أخرى في (ص٢٠٤) في **رسالة المؤتمر السادس** بشكل أوضح عن المسار الذي يخطط له وعن غاية الإخوان المسلمين:

«يعمل الإخوان المسلمون لغايتين: غاية قريبة يبدو هدفها وتظهر ثمرتها لأول يوم ينضم فيه الفرد إلى الجماعة، أو تظهر الجماعة الإخوانية فيه في ميدان العمل العام، وغاية بعيدة لا بد فيها من ترقب الفرص وانتظار الزمن وحسن الإعداد وسبق التكوين. فأما الغاية الأولى فهي مساهمة في الخير العام أياً كان لونه ونوعه، والخدمة الاجتماعية كلما سمحت بها الظروف. فهل هذا ما يريده الإخوان المسلمون ويجهزون أنفسهم له ويأخذونها به؟!

لا أيها الإخوان ليس هذا ما نريد، أما غاية الإخوان الأساسية... أما هدف الإخوان الأسمى.. أما الإصلاح الذي يريده الإخوان ويهيؤن له أنفسهم... فهو إصلاح شامل كامل تتعاون عليه قوى الأمة جميعاً وتتجه نحوه الأمة جميعاً ويتناول كل الأوضاع القائمة بالتغيير والتبديل.

والإخوان المسلمون يعملون ليتأيد النظام بالحكام، ولتحيا من جديد دولة الإسلام، ولتشمل بالنفاذ هذه الأحكام، ولتقوم في الناس حكومة

مسلمة، تؤيدها أمة مسلمة، تنظم حياتها شريعة مسلمة أمر الله بها نبيه (ﷺ) في كتابه حيث قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩]».

هنا وضوح تام فالموضوع ليس عمل خير ونفع عام... ويجب أن لا يُنظر إليه كذلك... بل هو مشروع سياسي بالدرجة الأولى... وهنا مربط الفرس، فمثل هذا المشروع لا يكون إلا بتوافق اجتماعي ضخم ويحتاج إلى بيئة لا توجد فيها قوة اعتراض ذات بال، فطلب إقامة دولة إسلامية بالشكل الذي يطرحه البنا سيعني أن الدولة القطرية مرحلة في الطريق، ولديها مشروع توسعي في العاجل أو الآجل، وبالتالي وبالضرورة ستبرز مشكلتان كبيرتان:

- مسألة الإجماع الوطني.
- مسألة المقبولية الإقليمية والدولية.

فالفرضيات المختفية تحت الخطاب هي أخطر ما فيه:

✓ **أولها**: أن هذا الخطاب مقبول عند كل المسلمين ولهم التفسير ذاته للفكرة السياسية في الإسلام وهي فرضية أثبتت الأيام خطأها، فالناس مسلمون في أغلبيتهم يقومون بما هو عام وشائع من الإسلام عبر العصور، ولكنهم لا يشتركون مع البنا في فهمه السياسي ولا في أن جماعته هي التمثيل لهذا الدين.

✓ **ثانيها**: الفرضيات أن غير المسلمين سيفرحون بهذه

الصفقة التي تحولهم كما سنرى إلى مواطنين من الدرجة الثانية وإن لم يقبلوا فبالإمكان قهرهم على ذلك، وكل ذلك غياب عن العصر ومعطياته، فلا الأقليات أقليات عددية، ولا هي ضعيفة بحيث يمكن قهرها ولا العالم المحيط سيقبل بقهرها ولا الفجوة التي بيننا وبين الآخرين صغيرة، بحيث يمكن فرض إرادتنا عليهم، وبالتالي فأي تصوّر من هذا النوع، من الطبيعي أن يقود إلى حائط مسدود داخلياً وإقليمياً ودولياً، والمشروع لا يقول لنا عن وسيلته لحل هذا التناقض!

والأطروحة تترك ما هو متاح من إمكانية إنشاء أوطان طبيعية لأفكار قادرة على إرباك المشروع الوطني بهذا السقف غير القابل للتحقق... وهو ما حدث مع حركة الثورات العربية، فمع أول اختبار في السلطة تم الدفع في اتجاه إنجاز هذا المشروع في بيئة لا تتفق مع المقدمات التي ساقها البنا ولا ترى هذه الأبعاد... فحدثت الكارثة وقل ذلك عن السودان وغداً عن سوريا... فبغض النظر عن الفكرة وسلامتها من عدمها إلا أن واقعها التنفيذي سيؤول إلى المشكلة ذاتها دائماً. وبالتالي سواء كانت في منطقة مثل: الصومال أو مصر أو سوريا وغير ذلك فالمصير واحد، ولكن الأيديولوجيا لا تسمح بطرح الأسئلة على:

✓ الأهداف.

✓ ولا على روافع الفعل.

وبالتالي تغيب القدرة على النظر إلى الواقع الفعلي الذي يتحرك فيه المشروع؛ ففي مجتمع مصر مثلاً قد يبلغ عدد

المؤمنين بمثل هذا المشروع خمسة أو عشرة ملايين، ولكن هل يكفي ذلك لتحريك الثمانين مليون الآخرين للموافقة على مثل هذا المشروع... وحين يتجاوز أي مشروع سقف ما يسمح به المشهد الاجتماعي تبدأ الأزمة.

وفي هذا المسار الذي يتم سوق الأهداف فيه من دون روافع فعل تكافئها، يقول لنا البنا في المؤتمر السادس:

«أما كيف نتخلص من ذلك فبالجهاد والكفاح، ولا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة، فنخلص من ذلك كله بتحطيم هذا الوضع الفاسد وأن نستبدل به نظاماً اجتماعياً خيراً منه، تقوم عليه وتحرسه حكومة حازمة تهب نفسها لوطنها وتعمل جاهدة لإنقاذ شعبها، يؤيدها شعب متحد الكلمة قوي الإيمان، ولئن فقدت الأمة مصباحاً وهاجاً نهتدي بنوره ونسير على هداه. ولا تستطيع حكومة مصرية أن تقوم بهذا الإصلاح الاجتماعي حتى تتحرر تماماً من الضعف والعجز والخوف والتدخل السياسي الذي يقيد خطواتها، وتتخلص من هذا النير الفكري الذي وضعته أوروبا في أعناقنا فأضعف نفوسنا وأوهن مقاومتنا. ونحن نستقبل في هذه الأيام حوادث جساماً تغيّر النظم والأوضاع وتجدّد الدول والممالك، فأولى بنا أن نتخذها فرصة سانحة للتحلل من آثار الماضي وبناء المستقبل المجيد على دعائم قويمة من هذا الإصلاح الإسلامي القويم.

ولهذا كان هدف الإخوان المسلمين يتلخص في كلمتين:

ـ العودة للنظام الإسلامي الاجتماعي.

ـ والتحرر الكامل من كل سلطان أجنبي.

وبذلك نستطيع أن ننقذ مصر من آثار هذه الويلات. ولنا بعد ذلك آمال جسام في إحياء مجد الإسلام وعظمة الإسلام، يراها الناس بعيدة ونراها قريبة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]».

ها نحن أمام العبارات التي تسطح المشكلة، فعلى فرض وجود حكومة تريد كل ذلك وأكثر ولكنها:

✓ لا تمتلك حلاً لمشكلة الوحدة الوطنية.

✓ ولا حلاً لمشكلة التخلف والفجوة العلمية والتقنية.

✓ ولا مشكلة التمويل لمشاريع التنمية التي تقترحها...

✓ ولا لمواجهة العالم الذي سيقاومها ويفرض الحصار عليها.

فماذا بإمكانها أن تفعل؟ فوضع التصورات عن وضع مثالي تتحرر فيه الإرادة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واستعادة مجد الإسلام مهم ومفهوم، ولكن ماذا عن وسائل تحقيق ذلك وفي أبسط أشكاله مثل:

- حل مشكلة التوافق الوطني.
- حل مشكلة نظام إقليمي ودولي قادر وفاعل.
- وفي ضوء عجز علمي ومعرفي ومادي وفلكي مقارنة بالآخر.

والعقل المسلم يسهب في الأحلام ولكنه يعجز عن رؤية الواقع، وبالتالي حين يصطدم به يستشعر المفاجأة في كل

مرة... ويعود إلى الشكوى مما هو ظاهر ومعروف كوجود العقبات والمؤامرة فحين لا نجيب عن الأسئلة البسيطة لتكوين وطن في أبسط أشكاله... نطلق العنان لفكرة فتح العالم والهيمنة عليه. ومن هنا تظهر إشكالية الأيديولوجيا بأوضح معانيها.

ومع كل تلك المشاكل تأتي العبارات الغامضة وغير المحررة معرفياً لتلبّد سماء التفكير عند الفرد المسلم، ولننظر إلى عبارات البنا وهو يتحدّث عن سيادة الأمة وهي بنت المشكلة السابقة من رسالة مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين ١٦٣:

٥ ـ مصطلحات

«سيادة الأمة الإسلامية:

قرر الإسلام سيادة الأمة الإسلامية وأستاذيتها للأمم في آيات كثيرة من القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وأكد قوامتها وأرشدها إلى طريق صيانتها وإلى ضرر تدخل غيرها في شؤونها بمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١١٩]، وأشار إلى مضار الاستعمار وسوء أثره في الشعوب فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

﴿قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] ثم أوجب على الأمة المحافظة على هذه السيادة، وأمرها باستعداد العدة واستكمال القوة، حتى يسير الحق محفوظاً بجلال السلطة».

ومن الواضح أن من حق كل أمة أن تبحث عن أن تكون في طليعة الأمم وربما هذا ما يقوله كل قادة الدول الكبرى في العالم بصيغ مختلفة، ولكن تواجه العقل المسلم مشكلة كبرى عند الحديث عن «الأمة الإسلامية» فمثلاً الأستاذ سيد قطب كما سنرى لاحقاً يعتقد أن الأمة الإسلامية انتهت منذ قرون طويلة، وتلزم إعادة إنتاجها وفي الواقع العملي مفهوم الأمة مفهوم ثقافي على الأغلب يفترض أن هناك مجموعات بشرية تجمعها روابط ثقافية ومشاعر مشتركة وترغب في العيش في نظام سياسي واحد وفكرة الأمة تستبطن هنا أن كل هذه الشعوب المنتشرة المسلمة بمختلف أعراقها وهوياتها، لديها رغبة في العيش في نظام سياسي موحد والحقيقة البسيطة، المشاهد لها زاويتان: زاوية تثبتها الدراسات أن كثيرين في هذه المجتمعات لا يتبنون مثل هذا التصور مطلقاً، فهم يحبون الإسلام ولكن فكرة التجمع في كيان سياسي واحد هي دعوة الإسلاميين في هذه المجتمعات وليست دعوة المجتمعات، والجانب الآخر أن الواقع العملي أن التوحد السياسي في هذا العصر لكيانات صغيرة أصبح أمراً عسيراً لمجتمعات متجانسة، مثل: اليمن والصومال ناهيك بالسودان ومصر وباكستان والعراق وغيرها التي تكافح للمحافظة على وحدتها الترابية، ولكن الحديث في التعميمات في حدّ ذاته يحمل العقل بمفردات صعبة التعيين وتصور التجانس بينها

افتراضي صرف، ففي مصر لم يتجانس بعد المسلم مع المسلم ولا المسلم مع القبطي ولا حتى السيناوي مع ساكن الدلتا، على الرغم من مسار طويل يمتد إلى سبعة آلاف سنة حضارة، وقل ذلك عن الفلسطيني والفلسطيني، والأردني والفلسطيني، والقائمة لا تنتهي؛ فتاريخياً وفي عصر الإمبراطوريات لم يهدأ قلب الدولة الإسلامية منذ تولي أبي بكر الصديق وحتى يومنا ولم يقتنع بمفهوم الدولة المركزية... وسيطرة حكومة مركزية على مقدرات مجتمعات متباعدة أشبه بالاستحالة... وهذا المسار اليوم أصعب بما لا يقارن حتى في الدول الأكثر تقدماً واستقراراً حيث تفكر إسكوتلندا وويلز في الاستقلال عن التاج البريطاني، وقل عن الباسك في فرنسا وإسبانيا وعن التيبت في الصين... ولكن الاستدعاءات النصية المقطوعة من سياقاتها القرآنية وسياقاتها التاريخية تنجح في التسوية بين واقع تاريخي ما فُهم على غير حقيقته، ولحظة حاضرة لها معطياتها ومؤشراتها.

وسواء وجد النص أم لم يوجد حين تتوفر ظروف السيادة من قوة ومنعة وعلم ومعرفة تحتل أي أمة الصدارة بغير ادعاء بل بحكم الواقع الحي... ومثل هذه العبارات تصلح لتحفيز الهمم ولكنها على أرض الواقع تحتاج إلى آليات وإجابات كبرى... فربما لو نجحنا في توحيد الصومال أو اليمن أو أفغانستان أو العراق لكان هذا مثالاً عملياً حياً أكثر من كل أنواع البلاغة اللفظية... فهنا ليس مطلب المشروع الإسهام مع البشرية بل تسيدها ووضعها تحت الوصاية... فهل سيتم ذلك اختياراً أم بالقسر؟ وكم تكلفة هذا على البشرية؟!

والحقيقة أن الكلام شيء والواقع شيء آخر، والسؤال

الكبير ما هو الشكل الذي ستعمل من خلاله هذه المنظمة أو الجماعة للوصول إلى مثل هذا الهدف؟ فغموض الأفكار وسيلة كبرى في الشحن المعنوي ولكن غياب الوسائل وعدم وجود مصاديق في الواقع تعوّد العقل الحركي على الإغراق في الخيال من دون وجود روافع في الواقع فيكفي ذكر النصوص ليعدّ الأمر واقعاً.

٦ ـ بين الموضوعية والخيال

ولكن كيف لجماعة محدودة الموارد ومطاردة أن تقوم بهذه المهمة أو تعلن عنها؟

ولننظر إلى البنا يشرح لنا تصوّر الإخوان عن أنفسهم (ص١١٠) من رسالة **بين الأمس واليوم**:

«أيها الإخوان المسلمون، اسمعوا:

> «أيها الإخوان: أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزباً سياسياً ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد؛ ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدّد ظلام المادة بمعرفة الله، وصوت داوٍ يعلو مردداً دعوة الرسول (ﷺ) ومن الحق الذي لا غلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلى عنه الناس.
>
> إذا قيل لكم إلام تدعون؟... فقولوا ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد (ﷺ) والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه، فإن قيل لكم هذه سياسة! فقولوا هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام».

فالتصور عن الذات يؤدي دوراً مهماً في تشويش الصورة؛ فهنا لا تنظر المنظمة إلى نفسها كمساهم في نهضة الأمة بل هي كل شيء في المشروع.

وهنا تبرز مشكلة أخرى؛ فالمشروع لا يعمل في فراغ فهو يعمل في دولة قطرية لها نظام ولها أجهزة ولها تشريعات، فما هو التكييف القانوني لهذا الشكل من العمل ومن الأهداف في إطار الدولة القطرية... هل يمكن أي نظام على وجه الأرض أن يسمح بوجود دولة ومشروع دولة عابر للحدود داخل الدولة وليس له تكييف قانوني محدد... وتلك معضلة كبرى كانت وما زالت مصدر الصراع، فالفكرة بهذا الطرح لا يمكن التعايش معها في أي كيان سياسي سابق أو معاصر أو لاحق.

> «وإن قيل لكم أنتم دعاة ثورة، فقولوا نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به، فإن ثرتم علينا ووقفتم في طريق دعوتنا فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا وكنتم الثائرين الظالمين. وإن قيل لكم إنكم تستعينون بالأشخاص والهيئات فقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، فإن لجّوا في عدوانهم فقولوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]».

وهنا يبدو قدر من الانفصال عن الواقع، والسؤال الكبير: هل في حال استلام أي تنظيم إسلامي للسلطة سيسمح ببناء أجسام موازية لها أهداف مغايرة للدولة... هل تتحمل مثلاً حكومة غزة أو حكومة السودان أو أي حكومة إسلامية وجود كيان عميق له أهداف لإسقاط الدولة وتجاوزها ومن دون أصل

قانوني لوجوده..؟ تلك هي المعضلة التي يجد التنظيم نفسه فيها ولكنه لا يرى ضرورة الإجابة عنها...

٧ ـ خطة العمل المعلنة

ولنتابع مع البنا وهو يعلن عن خطة العمل وخطوات الطريق (ص١٢٥) من **رسالة المؤتمر الخامس**، وهي من أوضح الرسائل وأكثرها إثارة للحيرة، فلنتبع ما يقول البنا ولنسقطه على الواقع الذي نعرفه:

> «التدرج في الخطوات وأما التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين، فذلك أنهم اعتقدوا أن كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث: مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب، ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين، ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج، وكثيراً ما تسير هذه المراحل الثلاث جنباً إلى جنب نظراً إلى وحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعاً، فالداعي يدعو، وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك.
>
> ولكن لا شك في أن الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار، ومتانة التكوين».

نحن الآن نطلع على عناوين المحطات التي ستتحرك فيها

الدعوة كما تصوّرها البنا في مصر أولاً وهي تقوم على ثلاث خطوات:

- ✓ التعريف
- ✓ والتكوين
- ✓ والتنفيذ.

وسيجيبنا البنا عما تم وما الذي سيحدث، وسيتحدث عن مرحلة في غاية الأهمية للحركة ومحيطها وهي خطوة التكوين أو خطوة الاختيار والتعبئة، ولذلك سنتوقف عندها لأنها قادت إلى كل الانطباعات عن مشروع الدعوة؟

> «في حدود هذه المراحل سارت دعوتنا ولا تزال تسير، فقد بدأنا بالدعوة فوجهناها إلى الأمة في دروس متتالية وفي رحلات متلاحقة وفي مطبوعات كثيرة وفي حفلات عامة وخاصة، وفي جريدة الإخوان المسلمين الأولى ثم في مجلة النذير الأسبوعية، ولا زلنا ندعو، وسنظل كذلك، حتى لا يكون هناك فرد واحد لم تصله دعوة الإخوان المسلمين على حقيقتها الناصعة، وعلى وجهها الصحيح، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وأظن أننا وصلنا في هذه المرحلة إلى درجة نطمئن عليها وعلى اطراد السير فيها، وصار من ألزم واجباتنا أن نخطو الخطوة الثانية، خطوة الاختيار والتكوين والتعبئة.

خطونا الخطوة الثانية في صور ثلاث:

١ ـ الكتائب: ويراد بها تقوية الصف بالتعارف، وتمازج النفوس والأرواح ومقاومة العادات والمألوفات، والمران على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، واستمداد النصر منه، وهذا هو معهد التربية الروحية للإخوان المسلمين.

٢ ـ الفرق للكشافة والجوالة والألعاب الرياضية: ويراد بها تقوية الصف بتنمية جسوم الإخوان، وتعويدهم الطاعة والنظام والأخلاق الرياضية الفاضلة، وإعدادهم للجندية الصحيحة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وهذا هو معهد التربية الجسمية للإخوان المسلمين.

٣ ـ درس التعاليم في الكتائب أو في أندية الإخوان المسلمين: ويراد بها تقوية الصف بتنمية أفكار الإخوان وعقولهم بدراسة جامعة لأهم ما يلزم الأخ المسلم معرفته لدينه ودنياه، وهذا هو معهد التربية العلمية والفكرية للإخوان المسلمين، ذلك إلى مختلف نواحي النشاط الأخرى التي يدرب بها الإخوان على الواجب الذي ينتظرهم كجماعة تعد نفسها لقيادة أمة، بل لهداية العالمين.

بعد أن نطمئن على موقفنا من هذه الخطوة نخطو إن شاء الله الخطوة الثالثة، وهي الخطوة العملية التي تظهر بعدها الثمار الكاملة لدعوة الإخوان المسلمين».

ها نحن مع مخطط تحرك معلن يبدأ بالتعريف ثم التكوين ثم سينتقل إلى التنفيذ وستظهر بعدها الثمار الكاملة لدعوة الإخوان التي يتصور أنها تحقق الأهداف... لكن أي أهداف... هل هي تحرير الوطن الإسلامي وإقامة الدولة الإسلامية أم هي الأخيرة في اتجاه الأولى وهو الأقرب للفهم هنا فلا يتصور غيرها في هذا السياق... لكن لنواصل الرحلة مع التحرك النهائي لحسم المشهد كما تصوره البنا عليه رحمة الله:

٨ ـ الخطة الأخيرة في المسار

«الخطوة التنفيذية ص١٢٨ من رسالة المؤتمر الخامس:

متى تكون خطوتنا التنفيذية؟ أيها الإخوان المسلمون: نحن هنا في مؤتمر أعتبره مؤتمراً عائلياً يضم أسرة الإخوان المسلمين، وأريد أن أكون معكم صريحاً للغاية فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة... في الوقت الذي يكون فيه منكم ـ معشر الإخوان المسلمين ـ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسياً روحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لحج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل إن شاء الله، وصدق رسول الله القائل: «ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة».

إني أقدّر لذلك وقتاً ليس طويلاً بعد توفيق الله واستمداد معونته وتقديم إذنه ومشيئته، وقد تستطيعون أنتم معشر نواب الإخوان ومندوبهم أن تقصروا هذا الآجل إذا بذلتم همتكم وضاعفتم جهودكم، وقد تهملون فيخطئ هذا الحساب، وتختلف النتائج المترتبة عليه، فأشعروا أنفسكم العبء وألقوا الكتائب وكونوا الفرق، وأقبلوا على الدروس، وسارعوا إلى التدريب وانشروا دعوتكم في الجهاد التي لم تصل إليها بعد، ولا تضيعوا دقيقة بغير عمل.

وقد يظن من يسمع هذا أن الإخوان المسلمين قليل عددهم أو ضعيف مجهودهم، ولست إلى هذا أقصد وليس هذا هو مفهوم كلامي، فالإخوان المسلمون والحمد لله كثيرون، وإن جماعة يمثلها في هذا الاجتماع آلاف من أعضائها كل منهم ينوب عن شعبة كاملة لأكثر من أن يستقل عددها أو ينسى مجهودها أو يغمط حقها، ولكن أقصد إلى ما ذكرت أولاً من أن رجل القول غير رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المنتج الحكيم الذي يؤدي إلى أعظم الربح بأقل التضحيات».

إذاً، نحن أمام تصوّر إغلاق المشهد، ثلاثمئة كتيبة مجهزة، سيتم بها التنفيذ الذي لا يصلح له عموم الإخوان. والسؤال: هل هذه الكتائب لتحرير الوطن الإسلامي أم للاستيلاء على

الحكم؟ وهل هذا العدد موضوعياً كافٍ لأي من المشروعين وهل أخضعت النظرية للمسائلة؟ ولكن قبل عمل أي تعقيبات لنواصل مع البنا وهو يشرح في **رسالة التعاليم** وفي ركن الطاعة ص٣٦٢:

«الطاعة وأريد بالطاعة:

امتثال الأمر وإنفاذه سواء في العسر واليسر والمنشط والمكره، وذلك أن مراحل هذه الدعوة ثلاث:

١ ـ التعريف: بنشر الفكرة العامة بين الناس، ونظام الدعوة في هذه المرحلة نظام الجمعيات الإدارية، ومهمتها العمل للخير العام ووسيلتها الوعظ والإرشاد تارة وإقامة المنشآت النافعة تارة أخرى، إلى غير ذلك من الوسائل العملية، وكل شعب الإخوان القائمة الآن تمثل هذه المرحلة من حياة الدعوة، وينظمها القانون الأساسي، وتشرحها وسائل الإخوان وجريدتهم، والدعوة في هذه المرحلة عامة. ويتصل بالجماعة فيها كل من أراد من الناس متى رغب المساهمة في أعمالها ووعد بالمحافظة على مبادئها، وليست الطاعة التامة لأزمة في هذه المرحلة بقدر ما يلزم فيها احترام النظم والمبادئ العامة للجماعة».

تعليقنا: فالعمل الدعوي والخيري هنا ليس مقصوداً في ذاته بل هو وسيلة لتوسيع قاعدة الأنصار حتى تتم المرحلة الثانية.

٢ ـ التكوين: باستخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد وضم بعضها إلى بعض، ونظام الدعوة ـ في هذه المرحلة ـ صوفي بحت من الناحية الروحية، وعسكري بحت من الناحية العملية، وشعار هاتين الناحيتين (أمر وطاعة) من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج، وتمثل الكتائب الإخوانية هذه المرحلة من حياة الدعوة، وتنظمها رسالة المنهج سابقاً، وهذه الرسالة الآن.

والدعوة فيها خاصة لا يتصل بها إلا من استعد استعداداً تاماً حقيقياً لتحمل أعباء جهاد طويل المدى كثير التبعات، وأول بوادر هذا الاستعداد كمال الطاعة.

تعليقنا: ها نحن نتكلم بوضوح عن العسكرية البحتة، فالدعوة ستار، بحسب هذا التصور، لتكوين منظمة عسكرية... وهذا التصور قاد بشكل طبيعي بعدها إلى فكرة التنظيم الخاص.

«٣ ـ التنفيذ: وهي مرحلة جهاد لا هوادة فيه، وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغاية، وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون، ولا يكفل النجاح في هذه المرحلة إلا كمال الطاعة كذلك وعلى هذا بايع الصف الأول من الإخوان المسلمين في يوم ٥ ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ.

وأنت بانضمامك إلى هذه الكتيبة، وتقبلك لهذه الرسالة، وتعهدك بهذه البيعة، تكون في الدور

الثاني، وبالقرب من الدور الثالث، فقدّر التبعة التي التزمتها وأعدّ نفسك للوفاء بها».

والفكرة التي يتحدث عنها البنا تحمل في ثناياها غيبة كاملة عن الواقع المعاش في حضن الدولة القطرية القائمة واشتراطاتها كأي دولة، بغض النظر عن سلامة تعاقدها ومشروعيتها؛ فحين يعلن طرف ما في الدولة رغبته في إسقاط النظام القائم عبر إنشاء نظام واجهات... تقوم بالتعريف بفكرة إسقاط الدولة ونقضها ثم تقوم بالتجنيد لتكوين جيش من اثني عشر ألفاً لمواجهة الدولة ثم ما إن ينجز حتى تكون جاهزة للمواجهة فهو لا ينتظر أن تتركه الدولة يمضي في مخططه ولا ينتظر التساهل معه، فهي قضية حياة أو موت. وحين يحدث الصدام لا يشتكي هذا الطرف مما لقيه فليست هناك مظلومية في فقه الدولة وبقائها فالمسألة عندها تكون مسألة وجود، وتهديد الوجود هو تهديد صفري بامتياز... والغريب أن يسأل فرد: لماذا يواجهوننا بهذه القسوة؟ وهو غير مدرك لعمق الأطروحة ومقولاتها!

تلك هي النظرية الأم للأستاذ البنا وما زالت هذه الأدبيات هي التي تشكل مخيال القيادة وما زال مثل هذا يقال للمنتمين، وبالتالي فالعلاقة مع المجتمع والعلاقة بأي نظام سياسي تستبطن فكرة الخلع والإبعاد... إن كثيراً من المنتمين لم يقرؤوا الأدبيات المؤسسة ولم ينظروا إليها بعيون الخارج، ولكن نظرة واحدة للنسق تظهر بوضوح المشكلة التي تحيط بالمنظمة التي أسسها البنا عليه رحمة الله.

ولنتأمل الفكرة ذاتها مصاغة بطريقة أخرى لنكتشف بعداً آخر للمشكلة، ص١٧٧ من **رسالة إلى الشباب**: «أيها الشباب:

إن منهاج الإخوان المسلمين محدود المراحل واضح الخطوات، فنحن نعلم تماماً ماذا نريد ونعرف الوسيلة إلى تحقيق هذه الإرادة».

١ ـ نريد أولاً الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، فهذا هو تكويننا الفردي.

٢ ـ ونريد بعد ذلك البيت المسلم في تفكيره وعقيدته وفي خلقه وعاطفته وفي عمله وتصرفه ونحن لهذا نعنى بالمرأة عنايتنا بالرجل، ونعنى بالطفولة عنايتنا بالشباب وهذا هو تكويننا الأسري.

٣ ـ ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله أيضاً، ونحن لهذا نعمل على أن تصل دعوتنا إلى كل بيت، وأن يسمع صوتنا في كل مكان، وأن تتيسر فكرتنا وتتغلغل في القرى والنجوع والمدن والمراكز والحواضر والأمصار، لا نألو في ذلك جهداً ولا نترك وسيلة.

٤ ـ ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله (ﷺ) أبي بكر وعمر من قبل. **ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية، ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام.**

٥ ـ ونريد بعد ذلك أن نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامي الذي فرقته السياسة الغربية وأضاعت وحدته المطامع الأوروبية. **ونحن لهذا لا نعترف بهذه التقسيمات السياسية ولا نسلم بهذه الاتفاقات الدولية**، التي تجعل من الوطن الإسلامي دويلات ضعيفة ممزقة يسهل ابتلاعها على الغاصبين، ولا نسكت على هضم حرية هذه الشعوب واستبداد غيرها بها. فمصر وسورية والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وكل شبر أرض فيه مسلم يقول: لا إله إلا الله، كل ذلك وطننا الكبير الذي نسعى إلى تحريره وإنقاذه وخلاصه وضم أجزائه بعضها إلى بعض.

ولئن كان الرايخ الألماني يفرض نفسه حامياً لكل من يجري في عروقه دم الألمان، فإن العقيدة الإسلامية توجب على كل مسلم قوي أن يعتبر نفسه حامياً لكل من تشربت نفسه تعاليم القرآن. فلا يجوز في عرف الإسلام أن يكون العامل العنصري أقوى في الرابطة من العامل الإيماني. والعقيدة هي كل شيء في الإسلام، وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟

٩ ـ حرب كونية جديدة (الإمبراطورية الإسلامية)

٦ ـ **ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حيناً من الدهر ودوّى فيها صوت المؤذن بالتكبير والتهليل، ثم أراد لها نكد الطالع أن ينحسر عنها ضياؤه فتعود إلى الكفر بعد الإسلام. فالأندلس وصقلية والبلقان وجنوب إيطاليا وجزائر بحر الروم، كلها مستعمرات إسلامية يجب أن تعود إلى أحضان الإسلام، ويجب أن يعود البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين إسلاميتين كما كانتا من قبل،**

ولئن كان السنيور موسوليني يرى من حقه أن يعيد الإمبراطورية الرومانية، وما تكونت هذه الإمبراطورية المزعومة قديماً إلا على أساس المطامع والأهواء، فإن من حقنا أن نعيد مجد الإمبراطورية الإسلامية التي قامت على العدالة والإنصاف ونشر النور والهداية بين الناس.

٧ ـ نريد بعد ذلك ومعه أن نعلن دعوتنا على العالم وأن نبلغ الناس جميعاً، وأن نعم بها آفاق الأرض، **وأن نخضع لها كل جبار**، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

ولكل مرحلة من هذه المراحل خطواتها وفروعها ووسائلها، وإنما نجمل هنا القول دون إطالة ولا تفصيل، والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل».

إن المشروع ليس دعوة للإسلام بل عودة لحلم الإمبراطورية، وهو يعلن صداماً كونياً قادماً مع العالم، فكل شيء تم في العالم القائم يجب نقضه لصالح الحلم الإمبراطوري وكل البشرية يجب إخضاعها لهذا الفهم للدين... ولكن أي دولة أو مجتمع أو أمة تستطيع تحمل مثل هذا المشروع المفتوح على الصراعات ومع كل العالم.

أما الغريب هنا فهو استدلال حسن البنا بأمثلة أدخلت العالم في حروب عالمية أدّت إلى كوارث ضخمة عاناها العالم لعقود طويلة، ومقارنة الإسلام ومنهجه مع هتلر وتجربة الحزب النازي الذي لو نجح تمدده في أوروبا وروسيا فسيكون الدور قطعاً على دول العالم الإسلامي، فطبيعة هذا النوع من الأفكار

لا يقف إلا بالقوة والتدمير... وهذا فعلاً ما انتهت إليه ألمانيا ومشروع هتلر التوسعي... ودخلت بعده المنطقة في حالة من مداواة الجراح دفعت تكلفاتها تلك الأفكار التي يراد لنا أن نقارنها بالإسلام وما تعنيه حركته في هذا العصر الذي تغيرت معطياته، ولم تعد هناك حاجة إلى فتح البلاد بالقوة بل بالعلم والقدرة على الإقناع أولاً... من هنا يمكن أن نستنتج أن الأمثلة التي اختارها البنا هي بنت الواقع الذي عاشه والبيئة العالمية المحيطة التي صبغت فكر حسن البنا ونظريته.

ولو افترضنا أن كل ذلك صحيحاً ولا مشكلة فيه من الناحية الفكرية... فما الذي سيجعل العالم لا يفعل معنا الفعل نفسه لأي سبب آخر وتحت أي مسمى آخر، ويكون الفعل بذلك أخلاقياً ولا غبار عليه، فإن كان المنطلق أننا معنا الحق والعقيدة والوحي الذي يأمرنا بما نفعل، فالطرف الثاني لديه عقيدته كذلك ونظرياته التي تخوله أن يفعل تماماً ما نريد أن نفعله نحن به... فما هو حال العالم إن آمن كل أصحاب رسالة أو دين بأن الآخر يجب أن يخضع لسلطانه وقهره بالقوة؟

١٠ ـ من لا يؤمن بهذه الأفكار لا حظّ له من الإسلام؟

والبنا بعد أن يعرض تلك الصورة يعلم أن كثيراً من الناس يمكن أن يناقشها من ناحية موضوعيتها ولهذا يبادر بالهجوم:

«ليقل القاصرون الجبناء: إن هذا خيال عريق ووهم استولى على نفوس هؤلاء الناس، وذلك هو الضعف الذي لا نعرفه ولا يعرفه الإسلام. ذلك هو

الوهن الذي قذف في قلوب هذه الأمة فمكن لأعدائها فيها، وذلك هو خراب القلب من الإيمان وهو علة سقوط المسلمين. وإنما نعلن في وضوح وصراحة أن كل مسلم لا يؤمن بهذا المنهاج ولا يعمل لتحقيقه لا حظّ له في الإسلام، فليبحث له عن فكرة أخرى يدين بها ويعمل لها».

إن البنا يكتشف، وهو الذكي بلا ريب، أن هذا القول بعيد المنال وغير واقعي لو شئنا مساءلته بطريقة عاقلة فالمنطق الذي يقف خلفه عملياً واهن فلذلك فضّل الهجوم على المخالف. . . «القاصرون» و«الجبناء»، «الضعف والوهن»، «خراب القلوب. . .» وتنزلق إلى قضية التكفير «لا حظّ له في الإسلام»، فتمرير كل تلك المقولات من دون إخضاعها لمحاكمة عملية يحتاج إلى تهديد المتسائل لا إقناعه؟؟

ونحن نكتشف المزيد عن الفكرة بقراءة **رسالة التعاليم**؛ فلنواصل حتى تتضح الفكرة ص٣٥٩ ولنتابع مع البنا قليلاً:

«العمل وأريد بالعمل: ثمرة العلم والإخلاص: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

ومراتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق:

١ ـ إصلاح نفسه حتى يكون: قوي الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قادراً على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهداً لنفسه، حريصاً على وقته، منظماً في شؤونه، نافعاً لغيره، وذلك واجب كل أخ على حدته.

٢ ـ وتكوين بيت مسلم، بأن يحمل أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسلام في مظاهر الحياة المنزلية، وحسن اختيار الزوجة، وتوقيفها على حقها وواجبها، وحسن تربية الأولاد، والخدم وتنشئتهم على مبادئ الإسلام، وذلك واجب كل أخ على حدته كذلك.

٣ ـ وإرشاد المجتمع بنشر دعوة الخير فيه، ومحاربة الرزائل والمنكرات، وتشجيع الفضائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلامية، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائماً، وذلك واجب كل أخ على حدته، وواجب الجماعة كهيئة عاملة.

٤ ـ وتحرير الوطن بتخليصه من كل سلطان أجنبي ـ غير إسلامي ـ سياسي أو اقتصادي أو روحي.

٥ ـ وإصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة وأجير عندها وعامل على مصلحتها، والحكومة إسلامية ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام غير متجاهرين بعصيان، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه.

ولا بأس أن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه ولا بالنوع، ما دام موافقاً للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي.

ومن صفاتها: الشعور بالتبعية، والشفقة على الرعية، والعدالة بين الناس، والعفة عن المال العام والاقتصاد فيه.

ومن واجباتها: صيانة الأمن، وإنفاذ القانون، ونشر

التعليم، وإعداد القوة، وحفظ الصحة، ورعاية المنافع العامة، وتنمية الثروة، وحراسة المال، وتقوية الأخلاق، ونشر الدعوة.

ومن حقها متى أدت واجبها: الولاء والطاعة، والمساعدة بالنفس والأموال.

فإذا قصرت: فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

إعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية بتحرير أوطانها وإحياء مجدها وتقريب ثقافتها وجمع كلمتها، حتى يؤدّي ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة.

وأستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]، ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة تجب على الجماعة متحدة وعلى كل أخ باعتباره عضواً في الجماعة، وما أثقلها تبعات وما أعظمها مهمات، يراها الناس خيالاً ويراها الأخ المسلم حقيقة، ولن نيأس أبداً، ولنا في الله أعظم الأمل ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]».

١١ ـ آفات مصدرها عجز الفقه

أ ـ نظرة إلى المواطنة وحرب على العالم

ها هي المشكلة الأخرى العويصة في قسم كبير من الفكر الإسلامي المعاصر تعبّر عن نفسها فليست هناك مواطنة متساوية في رأي الفقيه، والوطن هنا هو دولة إمبراطورية لدين خاص

والدولة المدنية التي يتحدث عنها الأستاذ البنا في فكرة الدستور والنظام النيابي والقانون ليست الدولة المدنية التي تعترف بدولة المساواة والمواطنة على الأقل لقارئ هذا النص: «**ولا بأس أن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه ولا بالنوع، ما دام موافقاً للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي**». فالمسلم غير المتدين غير أهل لدخول الحكومة، وبالتالي يجب معرفة سيرته وصلاته وغير المسلم غير مرغوب به في هذه الحكومة إلا تحت بند الضرورة فهل لغير المسلمين أن يتخوفوا على فكرة المواطنة أم إن تخوفهم وهم؟... فحين يعارض المسلم فكرة الأسلمة التي يطرحها البنا فهل لتخوفه وجه مقبول... هل سيدخل في نظام يقوم على الكفاءة للعمل؟ وكم من الناس اليوم سيخرجون بسبب هذه الرؤية من الولايات الحكومية، وحين يعارض غير المسلم مثل هذا التوجه هل له مسوغ حقيقي وهو يرى نفسه في وطنه لا يستدعى إلا عند الضرورة وفي غير مناصب الولاية العامة!

هل تجدي عندها مقولات: «الذمة» و«العدل» و«لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، التي تساق في معرض التمدح بينما المخيال مسكون بقوانين من هذا النوع وفي هذا العصر؟

فالفكرة تدور حول صلاح الأفراد وهي فكرة الفقيه التاريخية ولم تبلغ بعد فكرة دولة المؤسسات وتقاس بدرجة مأسستها وبقدرتها على القيام بوظائفها المنوطة بها، وبالتالي هي لا تقاس بنوعية أفرادها بل بقدرتها على القيام بالوظائف المنوطة بهم، ولم يعد القرار قراراً فردياً منوطاً بشخص بل يمر بمراحل متعددة ويحصل على موافقات متعددة قبل أن يصبح نافذاً.

ولقائل أن يقول: ولكن هذا قد تجاوزناه في الدستور وفي البرامج الانتخابية وهذا حق... ولكن في التكوين الفكري وتأسيس المخيال، هذه هي الأدبيات التي تدرس ولم يتمّ الإعلان عن خطئها ولا التخلي عن تدريسها ولا بيان تاريخيتها... ناهيك بأن يكون الخطاب المسموع والمرئي يتجه إليها باستمرار في الإعلام الإسلامي وفي الخطب... إن المسألة ليست في كيفية الاعتذار عن هذه الأفكار بل في طريقة معالجة وجودها في المخيال... فالمجتمع يخاف من المآل وليس من خطاب اللحظة والحال، فحين تكون الأدبيات المتداولة والخطاب المتداول يعيد تعريف الدولة المدنية بحيث يفرغها من محتواها أو يقبل بها مناورة على أمل العودة بالنموذج لاحقاً إلى سياقه القديم فلا غرابة في أن يخاف المجتمع وأن ينظر بحذر إلى أصحاب المشروع.

ب ـ حين نغوص بعمق أكثر في المشروع نكتشف جوانب أخرى أكثر دلالة وأوسع مدى من الإخوان

فكرة القوة ليست خاصة بالإخوان؟

فكرة القوة ص١٣٤ ـ ١٣٥ من رسالة المؤتمر الخامس:

«الإخوان والقوة والثورة

ويتساءل كثير من الناس: هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟ وهل يفكر الإخوان المسلمون في إعداد ثورة عامة على النظام السياسي أو النظام الاجتماعي في مصر؟... ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين في حيرة، بل إني أنتهز هذه الفرصة فأكشف

اللثام عن الجواب السافر لهذا بوضوح وجلاء، فليسمع من يشاء.

أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته؛ فالقرآن الكريم ينادي بوضوح وجلاء: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. والنبي يقول: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير...»، بل إن القوة شعار الإسلام حتى في الدعاء وهو مظهر الخشوع والمسكنة، واسمع ما كان يدعو به النبي في خاصة نفسه ويعلّمه أصحابه ويناجي به ربه: «اللّهُمّ إنّي أعوذُ بِكَ مِنَ الْهَمّ وَالْحَزَنِ، وَأعوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأعوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ والْبُخْلِ وَأعوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدّيْنِ وَقَهْرِ الرّجَال»، ألا ترى في هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف: ضعف الإرادة بالهم والحزن، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل، وضعف العزة والكرامة بالدَّين والقهر؟.. فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قوياً في كل شيء، شعاره القوة في كل شيء؟.. فالإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا أقوياء، ولا بد أن يعملوا في قوة.

ولكنّ الإخوان المسلمين أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا في أعماقها ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان، ثم يلي ذلك قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح، ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعاً، وأنها

إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفكّكة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك.

هذه نظرة، ونظرة أخرى: هل أوصى الإسلام ـ والقوة شعاره ـ باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال أم حدّد لذلك حدوداً واشترط شروطاً ووجه القوة توجيهاً محدوداً؟ ونظرة ثالثة: هل تكون القوة أول علاج أم أن آخر الدواء الكي؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟ هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه، والثورة أعنف مظاهر القوة، فنظر الإخوان المسلمين إليها أدق وأعمق، وبخاصة في وطن كمصر جرّب حظه من الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون.

وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين: **إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولاً، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون في كرامة وعزة، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح».**

لاحظ قوله الإخوان سيستخدمون القوة العملية؛ حيث لا يجدي غيرها وعند توفر الشروط والتوقيت الصحيح والسؤال... هل هناك دولة معاصرة تنتظر تنظيماً له أفكار عسكرية حتى يتم استعداداته لينقض عليها؟

ومن المفهوم أن يكون ذلك سراً... لكن بعد هذا البيان وهذا الزمن من التجارب الفاشلة كيف يتوقع من الدولة وأجهزتها أن تتصرف، وكم من التضحيات يجب أن يُقدم حتى تتم مراجعة حقيقية لنظام الأفكار؟

فكرة وسيلة استخلاص الحكم ليست مقصورة على الإخوان؟

الموقف من الثورات:

«وأما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ولم يفكر أولو الأمر في إصلاح عاجل وعلاج سريع لهذه المشاكل، فسيؤدي ذلك حتماً إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال، وإهمال مرافق الإصلاح، وليست هذه المشاكل التي تتعقد بمرور الزمن ويستفحل أمرها بمضي الأيام إلا نذيراً من هذه النذر، فليسرع المنقذون بالأعمال».

والسؤال الذي يتركه هذا التقرير ما هي البدائل الأخرى التي سيتم في إطارها استخدام القوة التي تحدّث عنها الإمام البنا سابقاً، فإن لم تكن الثورة فهي الانقلابات بل وما هو أخطر كيف سيتم تجميع القوة التي ستواجه قوة الدولة؟ وهل الدولة القائمة حينها غائبة أم مغيبة؟... إن مثل هذا القول كلف كثيراً من الدماء وسيكلف فلا توجد دولة ولا نظام سيقبل بحدوث مثل هذا الأمر وهو أشبه بالانتحار!

بقي أن نسأل عن الدولة... فهل التنظيم هو دعوة للمجتمع للعودة إلى الإسلام أم هو صراع على الحكم باسم الإسلام؟

فكرة الحكم ليست مقصورة على الإخوان؟

فكرة الحكم ص١٣٦ من **رسالة المؤتمر الخامس**:

«الإخوان المسلمون والحكم

قد يكون مفهوماً أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد، إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذاً لأحكامه وإيصالاً لآياته ولأحاديث نبيه، وأما الحال كما نرى: التشريع الإسلامي في واد والتشريع الفعلي في وادٍ آخر، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف».

هكذا تمركزت فكرة الحكم في العقل الحركي المسلم، وإلى هنا بدا الوجه العسكري لأطروحة البنا وهو ما سمح لغيره باتهامها بأنها مخطط انقلابي ضد الدولة ومنها ولدت مأساة المنتمين إلى الفكرة... وكثير منهم بطبيعة الحال لم يقرأ الفكرة ولكنه يعيش على قراءة القشرة ويعيش بعقلية المظلومية من دون أن يدرك طبيعة المشهد الذي يوجد فيه... وبقي أن ننظر إلى الوجه المدني للفكرة حتى تكتمل الصورة.

ج ـ الوجه المدني للنظرية

١ ـ **فكرة الدستور** ص١٣٧

«الإخوان المسلمون والدستور

إن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري التي تتلخص في المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها، وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة وعلى مسئولية الحكام أمام الشعب ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال، وبيان حدود كل سلطة من السلطات، هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم.

ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، وهم لا يعدلون به نظاماً آخر».

وقبل أن نخلق انطباعات متقدمة عن الموضوع فلنتذكر الموقف السابق عن الدولة كلها: «ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية، ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام». لقد رأينا أن فكرة الدستور ستشغب عليه أفكار عدم المساواة كمثل فكرة: «ولا بأس أن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه ولا بالنوع، ما دام موافقاً للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي»... ولذلك حين تتم صياغة أي دستور لوطن طبيعي تتعدد فيه الأعراق والأديان ستبرز مشكلة الفكرة التي تتصور أنه بالإمكان

قسر المجتمع على الموافقة على برنامج الإقصاء السياسي في هذا العصر، والاستئثار بصياغة التعاقد الوطني والاستئثار بمقاعد السلطة باعتباره حقاً مستمداً من الدين لا من التوافق والإجماع الوطني...

وفي سياق الدولة شبه الليبرالية التي عاصرها البنا في العهد الملكي سنجد نبرة أخرى تصالحية مقبولة تضيع لو تذكرنا فكرة العسكرة المنتشرة في الأدبيات، وتبدو كأنها محاولة للاختراق الجزئي للواقع في تلك اللحظة لحين بزوغ فرصة الاختراق الحاسم وتنفيذ البرنامج المعلن في الأدبيات ولننظر إلى فكرة القانون.

٢ ـ فكرة القانون ص١٣٩ من رسالة المؤتمر الخامس

«الإخوان المسلمون والقانون

قدمت أن الدستور شيء والقانون شيء آخر، وقد أَبَنْت موقف الإخوان من الدستور، وأبين لحضراتكم الآن موقفهم من القانون.

> إن الإسلام لم يجئ خلواً من القوانين، بل هو قد أوضح كثيراً من أصول التشريع وجزئيات الأحكام، سواء أكانت مادية أم جنائية، تجارية أم دولية، والقرآن والأحاديث فياضة بهذه المعاني، وكتب الفقهاء غنية كل الغنى بكل هذه النواحي، وقد اعترف الأجانب أنفسهم بهذه الحقيقة، وأقرها مؤتمر لاهاي الدولي أمام ممثلي الأمم من رجال القانون في العالم كله.

فمن غير المفهوم ولا المعقول أن يكون القانون في أمة إسلامية متناقضاً مع تعاليم دينها وأحكام قرآنها وسنة نبيها، مصطدماً كل الاصطدام بما جاء عن الله ورسوله، وقد حذر الله نبيه (ﷺ) من ذلك من قبل، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۞ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩ ـ ٥٠]، ذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥ و٤٧]، فكيف يكون موقف المسلم الذي يؤمن بالله وكلماته إذا سمع هذه الآيات البينات وغيرها من الأحاديث والأحكام، ثم رأى نفسه محكوماً بقانون يصطدم معها؟».

ومن المنطقي طرح سؤال القانون الذي يراعي مختلف الشرائع الحاضرة في الوطن باعتبار الوطن تعبيراً عن مكوّناته ومنها المكون الإسلامي ومشكلة القوانين التي لا تتفق مع الشريعة قضية عالقة في فضاء الحالة العربية، وهي تقود باستمرار إلى صدام بين الفكرة التي ترى أن الدولة إسلامية والفكرة التي تقول إن الدولة هي محصلة توافق اجتماعي وتلك معضلة أخرى تواجهها المطالب الإسلامية حتى الآن وستبقى معضلة لحين تبنّي حل توافقي يزيل التعارض. وفكرة أسلمة القوانين تقابلها فكرة أن القوانين إسلامية ما لم تتعارض مع الشريعة والفضاء رحب في هذه الحوارات.

ولكن تعقيد الفكرة لا يقف عند هذا الفضاء؛ فالفكرة الإسلامية المنتشرة باستثناء بعض الآراء المتقدمة التي قدمت اجتهادات جريئة في هذا الفضاء، وهي استثناءات لا تشكل الفضاء العام حتى الآن ولكن الجموع الكبرى لم تستطع استيعاب فكرة الدولة القطرية وطريقة عملها وباستمرار تجنح إلى تحميل المجتمع مشروعاً تسميه «الخلافة الإسلامية» ولكن قبل أن نعلق على المشكلة لنستمع إلى البنا يتكلم عنها:

٣ ـ فكرة الخلافة ص١٤٤ **من رسالة المؤتمر الخامس:**

«الإخوان المسلمون والخلافة

ولعل من تمام هذا البحث أن أعرض لموقف الإخوان المسلمين من الخلافة وما يتصل بها، وبيان ذلك أن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكر في أمرها والاهتمام بشأنها، والخليفة مناط كثير من الأحكام في دين الله، ولهذا قدم الصحابة رضوان الله عليهم النظر في شأنها على النظر في تجهيز النبي (ﷺ) ودفنه، حتى فرغوا إلى تلك المهمة واطمأنوا إلى إنجازها.

والأحاديث التي وردت في وجوب نصب الإمام، وبيان أحكام الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها، لا تدع مجالاً للشك في أن من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير في أمر خلافتهم منذ حورت عن منهاجها ثم ألغيت بتاتاً إلى الآن.

والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس مناهجهم، وهم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لا بد منها، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لا بد من أن تسبقها خطوات:

لا بد من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها، يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات، وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد، وإن المؤتمر البرلماني الإسلامي لقضية فلسطين ودعوة وفود الممالك الإسلامية إلى لندن للمناداة بحقوق العرب في الأرض المباركة لظاهرتان طيبتان وخطوتان واسعتان في هذا السبيل، ثم يلي ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية، حتى إذا تم ذلك للمسلمين نتج عنه الاجتماع على (الإمام) الذي هو واسطة العقد، ومجتمع الشمل، ومهوى الأفئدة، وظل الله في الأرض».

تبدو الفكرة معقولة في عصر الإمبراطوريات، فقد كانت غزواً يتبعه سيطرة واحتماء بقوة الإمبراطورية التي تسحق معارضيها أو من يقف في طريقها. فالعثمانيون رعاة آخر إمبراطورية قاموا بهزيمة المماليك في الريدانية للسيطرة على مصر مثلاً، ولكن بعد قيام الدول القطرية وانتشار الهويات الخاصة تغير المشهد بالكامل، وأمامنا التجارب حاضرة فلا اليمن يريد أن يبقى موحداً ولا باكستان بقيت موحدة ولا

السودان بقيت موحدة والجميع مهدّد بالتقسيم... وداخل كل نسيج اجتماعي عوامل التشظي أكبر من عوامل الالتحام... والفكرة السطحية تقول إنه بإمكان الإسلام مسح تلك التباينات وتجاوز الواقع العملي الذي لم ينشأ حديثاً، فمنذ لحظة وفاة الرسول (ﷺ) كاد مشروع الانقسام يعزل المدينة عن الجزيرة، وتم اخضاع الجميع في حروب الردة، ثم كاد مشروع الشام الكوفة أن يقسم المجتمع إلى دولتين لولا تنازل الحسن (عليه السلام)، ثم توالت الانقسامات في القرن الأول والثاني؛ إذ إن قلب الدولة لم يستقر، وفي أغلب الأوقات كانت تلك الوحدة شكلية بحتة... وعملية الوحدة السياسية هي مشروع توافقي في هذا العصر ولم تنجح أكثر الوحدات التي تمت حتى الآن... خاصة إن كانت ستطرح تحت مفهوم «ظل الله في الأرض». إن المخيال باستمرار لا يتصل بالعصر، بل يعيش في فضاء قديم جداً وهو يحاول أن يتماهى مع العصر ظاهراً، ولكنه في العمق يتحدث عن ذلك الولي الذي يقود الدولة العالمية، ولا يهم بعدها اعتبارات الواقع وربما وجد الإنسان عذراً للبنا ومعارف عصره، ولكن ما مبرر اجترار الأفكار ذاتها في هذا العصر بعد ما رأينا صعوبة إبقاء المجتمعات القائمة موحدة ناهيك بجمع المتفرقة.

ولنعد إلى فكرة أخرى والدولة العصرية التي عاصرها البنا فيها أحزاب، ولكن هناك نظرة خاصة للأحزاب ستبقى عالقة في الفضاء على الرغم من أنها تم تجاوزها عبر ضغط الواقع ودفق الحياة.

٤ ـ فكرة الأحزاب ص١٤٦ من رسالة المؤتمر الخامس

«الإخوان المسلمون والأحزاب

والإخوان المسلمون يعتقدون أن الأحزاب السياسية المصرية جميعاً قد وجدت في ظروف خاصة، ولدواع أكثرها شخصي لا مصلحي، وشرح ذلك تعلمونه حضراتكم جميعاً.

ويعتقدون كذلك أن هذه الأحزاب لم تحدد برامجها ومناهجها إلى الآن، فكل منها سيدعي أنه يعمل لمصلحة الأمة في كل نواحي الإصلاح، ولكن ما تفاصيل هذه الأعمال، وما وسائل تحقيقها؟ وما الذي أعد من هذه الوسائل، وما العقبات التي ينتظر أن تقف في سبيل التنفيذ، وما أعد لتذليلها؟ كل ذلك لا جواب له عند رؤساء الأحزاب وإدارات الأحزاب، فهم قد اتفقوا في هذا الفراغ، كما اتفقوا في أمر آخر هو التهالك على الحكم وتسخير كل دعاية حزبية وكل وسيلة شريفة وغير شريفة في سبيل الوصول إليه، وتجريح كل من يحول من الخصوم الحزبيين دون الحصول عليه».

لكن هل هذه حال الأحزاب فقط أم حال الجميع؟ أي: هل يمتلك الإخوان برنامجاً محدداً مختلفاً عن بقية الأحزاب وهو قادر على صناعة الفرق أم أن الحال من بعضه؟ وهل التهالك على الحكم هو خاص بالأحزاب الأخرى أم يعم الجميع؟ وهل تجريح الخصوم أمر لا تقوم به الحالة الإسلامية؟

«ويعتقد الإخوان كذلك أن هذه الحزبية قد أفسدت على الناس كل مرافق حياتهم وعطلت مصالحهم، وأتلفت أخلاقهم، ومزقت روابطهم، وكان لها في حياتهم العامة والخاصة أسوأ الأثر.

ويعتقدون كذلك أن النظام النيابي، بل حتى البرلماني، في غنى عن نظام الأحزاب بصورتها الحاضرة في مصر، وإلا لما قامت الحكومات الائتلافية في البلاد الديمقراطية؛ فالحجة القائلة بأن النظام البرلماني لا يتصور إلا بوجود الأحزاب حجة واهية وكثير من البلاد الدستورية البرلمانية تسير على نظام الحزب الواحد وذلك في الإمكان.

.. كما طلبوا من جلالة الملك حل هذه الأحزاب القائمة حتى تندمج جميعاً في هيئة شعبية واحدة تعمل لصالح الأمة على قواعد الإسلام.

وبهذه المناسبة أقول إن الإخوان المسلمين يعتقدون عقم فكرة الائتلاف بين الأحزاب، وأنها مسكن لا علاج، وسرعان ما ينقض المؤتلفون بعضهم على بعض، فتعود الحرب بينهم خدعة على أشد ما كانت عليه قبل الائتلاف، والعلاج الحاسم الناجح أن تزول هذه الأحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها وانتهت الظروف التي أوجدتها ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون».

وفي موضع آخر يقول الإمام البنا عن فكرة الأحزاب ص١٦٦ ـ ١٦٨ من رسالة مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين:

«الحزبية السياسية

بقي للسياسة معنى آخر يؤسفني أن أقول إنه وحده هو

المعنى الذي يرادفها ويلازمها بغير حق في أذهان كثير منا، ذلك هو الحزبية

وإن لي في الحزبية السياسية آراء خاصة ولا أحب أن أفرضها على الناس فلا حق لي في ذلك ولا لأحد، ولكني كذلك لا أحب أن أكتمها عنهم، ... إن الحزبية السياسية إن جازت في بعض الظروف في بعض البلدان، فهي لا تجوز في كلها، وهي لا تجوز في مصر أبداً، وخاصةً في هذا الوقت الذي نستفتح فيه عهداً جديداً، ونريد أن نبني أمتنا بناء قوياً يستلزم تعاون الجهود وتوافر القوى والانتفاع بكل المواهب، والاستقرار الكامل والتفرغ التام لنواحي الإصلاح. إن وراءنا في الإصلاح الداخلي منهاجاً واسعاً مطولاً، يجب أن نصرف كل الجهود إلى تحقيقه، لإنقاذ هذا الشعب الدائم الحيوية، الجم النشاط، المجهز بكل وسائل النشاط، الذي لا ينقصه إلا القيادة الصالحة والتوجيه القويم، حتى يتكون أصلح تكوين، يقضي على الضعف والفقر والجهل والرذيلة، وهي معاول الهدم وسوس النهضات، وليس هنا محل تفصيل هذا المنهاج فذلك له وقت آخر، وأنا أعلم أننا جميعاً نشعر بثقل وطأة الأعباء، وبالمجهودات العظيمة التي يجب أن تبذل في سبيل التنظيم الداخلي في كل مظاهر الحياة.

... وأعتقد كذلك أن هذه الأحزاب المصرية الحالية أحزاب مصنوعة أكثر منها حقيقية، وأن العامل في وجودها شخصي أكثر منه وطني، وأن المهمة والحوادث التي كونت هذه الأحزاب يجب أن ينتهي هذا النظام بانتهائها».

«والإسلام لا يقر الحزبية

وبعد هذا كله أعتقد أيها السادة أن الإسلام وهو دين الوحدة في كل شيء، وهو دين سلامة الصدور، ونقاء القلوب، والإخاء الصحيح، والتعاون الصادق بين بني الإنسان جميعاً، فضلاً عن الأمة الواحدة والشعب الواحد، لا يقر نظام الحزبية ولا يرضاه ولا يوافق عليه، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول رسول الله (ﷺ): «هل أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصوم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين.

وكل ما يستتبعه هذا النظام الحزبي من تنابز وتقاطع وتدابر وبغضاء، يمقته الإسلام أشد المقت، ويحذر منه في كثير من الأحاديث والآيات، وتفصيل ذلك يطول وكل حضراتكم به عليم».

لقد تجاوز الإخوان هذا الموقف، وقبلوا بالحزبية بحكم حركة الواقع ولكن سنجد أنفسنا أمام التنظيم الشامل الذي يعتقد أنه يمتلك الحقيقة، وبالتالي لا بد من أن يعود في لحظة ما إلى فكرة الحزب الواحد، فالوصول إلى نتائج المشروع لا تحتمل القسمة السياسية على متعدد ولذلك فالأفكار التأسيسية يصعب التغلب عليها ما لم يتم تفكيك أساس وجودها... وبالتالي، ففكرة الاستئثار تظهر وإن بدا أنها انتهت. إن ذلك الموقف الذي ينظر إلى الآخر الحزبي على أنه ناقص وأنه غير أهل للثقة سيظل يطبع الفكر اليوم كما كان في السابق.

ولننظر إلى بعد آخر مربك في الخطاب الإسلامي وحيرته بين خطاب التعاون وخطاب العداء مع الآخر!

٥ ـ **فكرة الحقوق الدولية** ص١٦٤ من رسالة مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين

«الحقوق الدولية

وأحب قبل أن أختم هذا الاسترسال أن أؤكد لحضراتكم تأكيداً قاطعاً أن سياسة الإسلام داخلية أو خارجية تكفل تمام الكفالة حقوق غير المسلمين، سواء أكانت حقوق دولية أم كانت حقوق وطنية للأقليات غير المسلمة، وذلك لأن شرف الإسلام الدولي أقدس شرف عرفه التاريخ، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ويقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وقد كفل الإسلام حقوق الأقليات بنص قرآني هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]».

ها هنا عودة إلى النصوص لبيان شكل من العدل مع «الأقليات»... والدولة المدنية تعترف بالمواطنة المتساوية وليست مسألة متعلقة بالبر والإحسان، والفارق كبير... وتلك مشكلة كبرى لا ينتبه إليها من يقوم بهذا الطرح، ولذلك لا يكتشف التناقض بين قضية المساواة وبين قوله: «ولا بأس أن

نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه ولا بالنوع ما دام موافقاً للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي». فالمواطنون في الدولة لا يحتاجون إلى البر والإحسان بالمعنى الامتناني في هذا العصر بل يريدون حقوقاً في الوطن متساوية، ولكن الخطاب هنا يستعين بالنص في غير سياق الإشكال، والمشكل الذي يربك الخطاب هنا أن تتم إقامة الدولة على أساس عقدي وليس على أسس التعاقد المجتمعي. والدولة باعتبارها مكاناً يضم مجموعات من الناس لها عقائد متنوعة، ولها ثقافات وعادات مختلفة في البلد الواحد...

إذا كان اعتبار العقيدة هو الأساس الذي تُبنى عليه الدول، فذلك لا يمكن أن يتم إلا في بلد كل أهله يدينون لله بالدين نفسه، ولكن التاريخ وواقع الحال يقول إن الدولة والسلطة أعقد من مجرد تبني عقيدة محددة، فنحن نشهد عبر التاريخ منذ عهد عثمان معارك وصراعات لم تكن بسبب عقدي... بل بسبب سياسي، فهل كون الناس على عقيدة واحدة ودين واحد كافياً لردم هذا... وللأسف فواقع الصومال، السودان، إيران، أفغانستان، مصر، سوريا يقول إن الدولة لا تستقر بسبب عامل العقائد، بل بسبب منظومة من التعاقدات الوطنية والقيم الجامعة التي تشمل علاجاً لقضايا متعلقة بالدين والثقافة والاجتماع ومختلف القضايا التي تخص الشأن العام.

إن العقيدة كشأن خاص بين العبد وربه، والدولة كشأن عام بين المجتمع بعضه مع بعض بمختلف أطيافه شأنان مختلفان، لا ننكر أن هناك علاقة بين الخاص والعام، لكنها علاقة لا يمكن

ضبطها على أساس الإكراه والإجبار، بل على أساس الدعوة والهداية.

ولو غصنا إلى أعمق من ذلك في فكر البنا سنجد المزيد كما سنرى في الفقرات الآتية:

٦ ـ «العلاقة بالعالم ص٢٢٠ من رسالة المؤتمر السادس

لقد ردد الساسة جميعاً كلمة «النظام الجديد»... فهتلر يريد أن يتقدم للناس بنظام جديد، وتشرشل يقول إن إنجلترا المنتصرة ستحمل الناس على نظام جديد، وروزفلت يتنبأ ويشيد بهذا النظام الجديد، والجميع يشيرون إلى أن هذا النظام الجديد سينظم أوروبا ويعيد إليها الأمن والطمأنينة والسلام، فأين حظ الشرق والمسلمين من هذا النظام المنشود؟

نريد هنا أن نلفت أنظار الساسة الغربيين إلى أن الفكرة الاستعمارية إن كانت قد أفلست في الماضي مرة، فهي في المستقبل أشد فشلاً لا محالة، وقد تنبهت المشاعر وتيقظت حواس الشعوب، وإن سياسة القهر والضغط والجبروت لم تأت في الماضي إلا بعكس المقصود منه، وقد عجزت عن قيادة القلوب والشعوب، وهي في المستقبل أشد عجزاً.

وإن سياسة الخداع والدهاء والمرونة السياسية

إن هدأ بها الجو حيناً فلا تلبث أن تهب العاصفة قوية عنيفة. وقد تكشفت هذه السياسة عن كثير من الأخطاء والمشكلات والمنازعات، وهي في المستقبل أضعف من أن توصل إلى المقصود.

وإذاً فلا بدّ من سياسة جديدة، وهي سياسة التعاون والتحالف الصادق البريء، المبني على التآخي والتقدير، وتبادل المنافع والمصالح المادية والأدبية بين أفراد الأسرة الإنسانية في الشرق والغرب، لا بين دول أوروبا فقط، وبهذه السياسة وحدها يستقر النظام الجديد وينتشر في ظله الأمن والسلام. إن حكم الجبروت والقهر قد فات، ولن تستطيع أوروبا بعد اليوم أن تحكم الشرق بالحديد والنار. وإن هذه النظريات السياسية البالية لن تتفق مع تطور الحوادث ورقي الشعوب ونهضة الأمة الإسلامية، ولا مع المبادئ والمشاعر التي ستطلع بها هذه الحرب الضروس على الناس.

ونحن لا نطمع في حق سوانا، ولا يستطيع أحد أن ينكر علينا حقنا. وإن خيراً لكل أمة أن تعيش متعاونة مع غيرها من أن تعيش متنافسة مع سواها حيناً من الدهر، يندلع بعده لهيب الثورة في البلاد المغصوبة، وجحيم الحرب بين الدول المتنافسة».

هذا كلام معقول، ونتمنى لمثل هذا الفهم أن يطغى على ما يشوهه في الخطاب الإسلامي، وأن يتم البناء عليه والتنظير له للمستقبل.

ولكن لننظر إلى مقولة سابقة عرضناها من باب التذكير: «ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حيناً من الدهر ودوّى فيها صوت المؤذن بالتكبير والتهليل، ثم أراد لها نكد الطالع أن ينحسر عنها ضياؤه فتعود إلى الكفر بعد الإسلام. فالأندلس وصقلية والبلقان وجنوب إيطاليا وجزائر بحر الروم، كلها مستعمرات إسلامية يجب أن تعود إلى أحضان الإسلام، ويجب أن يعود البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين إسلاميتين كما كانتا من قبل، ولئن كان السنيور موسوليني يرى من حقه أن يعيد الإمبراطورية الرومانية، وما تكونت هذه الإمبراطورية المزعومة قديماً إلا على أساس المطامع والأهواء، فإن من حقنا أن نعيد مجد الإمبراطورية الإسلامية التي قامت على العدالة والإنصاف ونشر النور والهداية بين الناس.

نريد بعد ذلك ومعه أن نعلن دعوتنا على العالم وأن نبلغ الناس جميعاً، وأن نعم بها آفاق الأرض، وأن نخضع لها كل جبار، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

ولكل مرحلة من هذه المراحل خطواتها وفروعها ووسائلها، وإنما نجمل هنا القول دون إطالة ولا تفصيل، والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل».

والسؤال: أي الخطابين على العالم أن يصدق: خطاب إدانة الحروب والفتح أم خطاب الحروب والفتح؟ والعقل المسلم يصدر خطاب التعقل والسلام حين يكون محتاجاً ثم يرتد إلى خطاب الحرب والتهديد حين تزول الضغوط وتلك معضلة ليست باليسيرة فجذور خطاب العداء والصراع عميقة وإنشاء خطاب واضح يفهمه العالم ويكون متسقاً أخلاقياً ليس بالأمر اليسير.

فالعالم عليه أن يتبع سياسة أخلاقية لأنها الأنفع للمستقبل، ويتوقف عن فكرة السيطرة على العالم، ولكن نحن لنا الحق في أن نفكر في غير ذلك؟؟ كيف لإنسان أن يفكر بهذه الطريقة ما لم ير لنفسه حقاً خلاف سائر البشر!

٧ ـ من أين تولد فكرة الكيل بمكيالين؟

ولننظر إلى جوهر الفكرة التي تقود إلى مثل هذا الإشكال، ولمعرفة أي الخطابين هو الحقيقي وأيها الناتج من الضغوط؛ لندخل في فكرة الاستعلاء.

عودة إلى فكرة الاختلاف والاستعلاء:

أ ـ فكرة الاستعلاء ص١٩٨ من رسالة **الإخوان تحت راية القرآن:**

«ولكننا أيها الناس: فكرة وعقيدة، ونظام ومنهاج، لا يحدده موضع، ولا يقيده جنس، ولا يقف دونه حاجز جغرافي، ولا ينتهي بأمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك لأنه نظام رب العالمين، ومنهاج رسوله الأمين.

نحن أيها الناس ـ ولا فخر ـ أصحاب رسول الله، وحملة رايته من بعده، ورافعو لواءه كما رفعوه، وناشرو لواءه كما نشروه، وحافظو قرآنه كما حفظوه، والمبشرون بدعوته كما بشروا، ورحمة الله للعالمين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [صٓ: ٨٨].

أيها الإخوان المسلمون:

هذه منزلتكم، فلا تصغروا في أنفسكم فتقيسوا أنفسكم بغيركم، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلاً غير سبيل المؤمنين، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله ومنهاجها من سنة رسوله، بغيرها من الدعوات التي تبررها الضرورات، وتذهب بها الحوادث والأيام.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]».

إن الفكرة حين تتلبس بفكرة التماهي مع الدين تصبح عصية على المراجعة أو النقد وتجعل صاحبها عاجزاً عن أن يساوي بين ما يطلبه من الآخرين من عدل وما يطبقه على نفسه من معايير! وها هنا تماهٍ تام مع الرسول (ﷺ) ومع الصحابة، ولحظة يبدو فيها أن كل شيء سيبدأ من جديد، ومطلوب من المنتمين الخلّص أن يروا أنفسهم فوق كل المخالفين... من هنا يصبح حق السيطرة والاستفراد مشروعاً فمن سينازع الرسول والصحابة أو يناقشهم فهم حملة الحقيقة

وغيرهم رعاة الباطل... إن ما رأيناه في مصر أو في غيرها هو انعكاس لتلك الرؤية الأحادية للمشروع الوطني، فهو ليس مشروع الدولة التي يتم الحديث عنها بل هو مشروع الدولة كما يراها الفريق الممثّل للصحابة، ومن هنا ولدت المشكلة وعلى هذا الأساس بنيت التصرفات، ففي العمق يوجد عالم الأفكار غير المحررة.

وهذا لا يعني أن الطرف الآخر في المعادلة بريء من مثل تلك الأفكار بمسوغات مختلفة، وأهمها المصلحة الوطنية والخوف من الإسلاميين ومآلات تصرفاتهم، وبالتالي سيقود مشهد الإقصاء والكيل بمكيالين على أشد ما يمكن من بطش.

ومع فكرة الاستعلاء غير المحررة تظهر فكرة هيمنة الهوية، وللنظر إليها في خطاب البنا عليه رحمة الله.

ب ـ فكرة هيمنة الهوية

فكرة هيمنة الهوية ص٢٤٧ في رسالة في اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد

«ما هي دعوتكم؟

لقد أعلنتم من أول يوم أن دعوتكم «إسلامية صميمة»، على الإسلام تعتمد ومنه تستمد، وهتفتم بها من كل قلوبكم: «الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا...» ولكنكم مع هذا فهمتم الإسلام فهماً شاملاً:

١ ـ فآمنتم به نظاماً اجتماعياً كاملاً يصحح للناس أوضاع

مجتمعهم في كل شيء، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة من شؤون الحياة إلا تناولها، وأوضح ما فيها من خير ليقبل الناس عليه، وما فيها من شر ليجتنبوه.

٢ ـ وآمنتم كذلك بأن من واجب المسلم الحق أن يجاهد في سبيل هذا الإسلام حتى **يهيمن على المجتمع كله، ويحتل مكانه الذي هيأه الله له في دنيا البشر.**

٣ ـ وآمنتم كذلك بأن ذلك أمر ممكن ميسور لو أراده المسلمون واجتمعوا عليه.

وقد تكون هذه الأمور الثلاثة محلّ خلاف بينكم وبين فريق من المسلمين أنفسهم، فلا زال كثيرون لا يرون الإسلام إلا في صور من العقائد الصحيحة أو الفاسدة، والعبادات الكاملة أو الناقصة... ولا يزال الكثيرون يرون أن الجهاد في سبيل هذا الإسلام أمر قد انقضى وقته ومضى زمنه... ولا يزال الكثيرون يرون أن العقبات أمام المجاهدين في سبيل هذه الغاية أكبر من أن يزيلها شيء».

إن فكرة الهيمنة على مجتمع متعدد الاتجاهات فكرة في غاية الخطورة، وهي حين تكون عن طريق الدعوة والإقناع شيء، وحين تأخذ مساراً ملتوياً، سواء كان بالقوة أو استغلال العملية الديمقراطية شيء آخر، فعلى أي الخيارات اتجهت بوصلة الفكرة؟ ففكرة هيمنة الهوية الخاصة في مجتمع متعدد الهويات هي وصفة للانقسام والتشرذم ولم يكن ممكناً لمن يحمل هذا التصور أن يقبل بفكرة الشراكة المتساوية، فباستمرار ستبرز فكرة هيمنة الهوية وستكون مبرراً لفكرة الاستئثار، وفكرة

الجهاد ستحل بدل فكرة التوافق، فالآخر حين يرفض حقنا في الهيمنة فنسارع بِعَدّه معادياً للدين... وتلك مشكلة كبرى فمن دون مراجعة الفكرة والقول إن الآخر لا يعادي الدين، ولكن يسأل أيضاً أين حقه في احترام هويته ووضعها على قدم المساواة في مجتمع تسوده المساواة؟

نحن الإسلام أيها الناس!

لكن من أين تأتي فكرة إخضاع الآخر لمفهوم الهوية المستعلية؟

نحن الإسلام ص٢٥٢ وفي الرسالة ذاتها، رسالة في اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد:

«وسيقول الناس ما معنى هذا وما أنتم أيها الإخوان؟ إننا لم نفهمكم بعد، فأفهمونا أنفسكم وضعوا لأنفسكم عنواناً نعرفكم به كما تعرف الهيئات بالعناوين.

هل أنتم طريقة صوفية أم مؤسسة اجتماعية أم حزب سياسي؟ كونوا واحداً من هذه الأسماء والمسميات لنعرفكم بأسمائكم وصفتكم.

فقولوا لهؤلاء المتسائلين: **نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة:**

ـ طريقة صوفية نقية: لإصلاح النفوس وتطهير الأرواح وجمع القلوب على الله العلي الكبير.

ـ وجمعية خيرية نافعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتواسي المكروب وتبر بالسائل والمحروم وتصلح بين المتخاصمين.

ـ ومؤسسة اجتماعية قائمة: تحارب الجهل والفقر والمرض والرذيلة في أية صورة من الصور.

ـ وحزب سياسي نظيف يجمع الكلمة ويبرأ من الغرض ويحدد الغاية ويحسن القيادة والتوجيه.

وقد يقولون بعد هذا كله لا زلتم غامضين فأجيبوهم: لأنه ليس في يدكم مفتاح النور الذي تبصروننا على ضوئه... **نحن الإسلام أيها الناس فمن فهمه على وجهه الصحيح فقد عرفنا كما يعرف نفسه فافهموا الإسلام أو قولوا عنا بعد ذلك ما تريدون!»**.

إن حالة التماهي بين الذات الاجتهادية والدين نفسه مشكلة خطيرة فلا يوجد أحد هو الإسلام ذاته، فإن هزم أو أخطأ هزم الإسلام أو أخطأ... تلك هي المشكلة حين يغيب الخط الفاصل بين الاجتهاد والنص، فكل فعل اجتهادي هو أثر للنص وليس النص ذاته ولكن العقل المسلم في تكييف الأيديولوجيا يذيب ذلك الفارق... فالأيديولوجيا نحت بشري بالضرورة ولكن صاحبها يعتقد أنه اكتشف الدين الحق، إما باسم النص أو باسم العلم وعندها تصبح فكرة الهيمنة على الآخر طبيعية.

٨ ـ حساسية الضمير العالمي فماذا عن ضميرنا؟

إن البشرية قد تطورت، وأصبح الضمير الإنساني حساساً لكل أشكال عدم المساواة والعدوان، وأصبحت هناك لغة بشرية ومواثيق حقوق إنسان وإن لم تنفّذ بحذافيرها، ولكنها معايير إنسانية عامة، والأهم من ذلك أننا أصحاب قيم ومبادئ عنوانها الأبرز الرحمة، ونشرها بين العالمين... إن العدل والحرية والكرامة الإنسانية وعلى الرغم من كونها من القيم المتفق عليها

إنسانياً وتتوافق مع العقل البشري، إلا أننا كمسلمين مأمورون بها ومحاسبين عليها، وبهذا يكون موقفنا من هذه القيم إنسانياً ودينياً. ولننظر إلى البنا يخاطبنا ويشرح:

تطور التفكير العالمي ص٢٥٩ في اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد:

«ونعتمد كذلك على التطور في التفكير العالمي وهذه اليقظة في الضمير الإنساني، ويا ويح الدنيا إذا كانت ستسودها وتصرفها من جديد الأفكار الرجعية، وتتحكم فيها المطامع الاستعمارية، وإذا كانت الدول المنتصرة تظن أن في استطاعتها أن تقود الدنيا من جديد بالحديد والنار، فما أبعد هذا الظن وأعرقه في الوهم والخيال، فإن موجة اليقظة التي أحدثتها هذه الهزات العنيفة لا يمكن أن يقف تيارها حتى يصل إلى غايته ويبلغ مداه، ولن يستقر بعد اليوم في الأرض السلام إلا إذا أدركت الدول الكبرى هذه الحقيقة واعترفت لغيرها من الأمم والشعوب بحقها في الحياة والحرية والاستقلال».

لكن هل نؤمن نحن بالحقوق ذاتها للآخرين... هل تخلصنا من فكرة إكراه الآخرين ونريد أن نكتفي بالدعوة أم أننا ننتظر الفرصة للقيام بالشيء ذاته الذي تقوم به الدول الاستعمارية ولكن بحجة الحق الديني... هل هذا التطور في الفكر العالمي وفي الضمير الإنساني والبعد عن المطامع الاستعمارية موضوع متعلق بالآخر أم هو شيء نلتزم به نحن، قبل أن نطالب به الآخرين؟ ولننظر إلى النص الذي استعرضناه سابقاً:

«ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حيناً من الدهر ودوّى فيها صوت المؤذن بالتكبير والتهليل، ثم أراد لها نكد الطالع أن ينحسر عنها ضياؤه فتعود إلى الكفر بعد الإسلام. فالأندلس وصقلية والبلقان وجنوب إيطاليا وجزائر بحر الروم، كلها مستعمرات إسلامية يجب أن تعود إلى أحضان الإسلام، ويجب أن يعود البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين إسلاميتين كما كانتا من قبل، ولئن كان السنيور موسوليني يرى من حقه أن يعيد الإمبراطورية الرومانية، وما تكونت هذه الإمبراطورية المزعومة قديماً إلا على أساس المطامع والأهواء، فإن من حقنا أن نعيد مجد الإمبراطورية الإسلامية التي قامت على العدالة والإنصاف ونشر النور والهداية بين الناس.

نريد بعد ذلك ومعه أن نعلن دعوتنا على العالم وأن نبلغ الناس جميعاً، وأن نعم بها آفاق الأرض، وأن نخضع لها كل جبار، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم».

وتلك معضلة أخلاقية في الكيل بمكيالين ولكن صاحبها لا يكتشف الصورة لأنه تماهى مع الحقيقة الربانية فيحق له ما لا يحق لغيره.

٩ ـ العلاقة بالأقليات غير المسلمة؟

بقي أن ننظر إلى سؤال مشروع عن الوحدة الوطنية في ضوء المشروع الذي طرحه البنا عليه رحمة الله:

هل يعكر الإسلام العلاقة مع أبناء المجتمع ص٢٨٦ من **رسالة نحو النور**،

موقف الإسلام من الأقليات والأجانب

«يا صاحب...

يظن الناس أن التمسك بالإسلام وجعله أساساً لنظام الحياة ينافي وجود أقليات غير مسلمة في الأمة المسلمة، وينافي الوحدة بين عناصر الأمة، وهي دعامة قوية من دعائم النهوض في هذا العصر، ولكن الحق غير ذلك تماماً، فإن الإسلام الذي وضعه الحكيم الخبير الذي يعلم ماضي الأمم وحاضرها ومستقبلها قد احتاط لتلك العقبة وذللها من قبل، فلم يصدر دستوره المقدس الحكيم إلا وقد اشتمل على النص الصريح الذي لا يحتمل لبساً ولا غموضاً في حماية الأقليات، وهل يريد الناس أصرح من هذا النص: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فهذا نص لم يشتمل على الحماية فقط، بل أوصى بالبر والإحسان إليهم، وأن الإسلام الذي

قدّس الوحدة الإنسانية العامة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم قدس الوحدة الدينية العامة كذلك فقضى على التعصب وفرض على أبنائه الإيمان بالرسالات السماوية جميعاً في قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۞ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۞ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ [البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٨].

ثم قدس بعد ذلك الوحدة الدينية الخاصة في غير صلف ولا عدوان فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

هذا الإسلام الذي بني على هذا المزاج المعتدل والإنصاف البالغ لا يمكن أن يكون أتباعه سبباً في تمزيق وحدة متصلة، بل بالعكس إنه أكسب هذه الوحدة صفة القداسة الدينية بعد أن كانت تستمد قوتها من نص مدني فقط».

هكذا اعتقد الأستاذ البنا أنه قد حل مشكلة المواطنة المتساوية، ويبدو المشهد متعلقاً بذكر آيات متعلقة بالإنصاف العام وهو ليس محل السؤال السياسي، بل جوهر الاهتمام هو

موضوع المواطنة المتساوية. أما العقل الأيديولوجي فلا يقر بوجوبها من الأصل، فأقصى ما يعتقده أنه حام وأنه متفضل متعطف مع من يصفهم بالأقليات... فلا غرابة أنّ نرى المشهد المعاصر وهو أصدق حالاً من أي مقال... فأينما حلّت الأفكار ذاتها أصبح المجتمع منقسماً على نفسه.

مرة أخرى يتصدر التعامل التبسيطي ذاته مع سؤال العلاقات الدولية الخطاب:

١٠ ـ هل يعكر العلاقة بالغرب ص٢٨٧ [نفس المصدر السابق]

«موقف الإسلام من العلاقة مع الغرب

وقد يظن الناس كذلك أن نظم الإسلام في حياتنا الجديدة تباعد بيننا وبين الدول الغربية، وتعكر صفو العلائق السياسية بيننا وبينها بعد أن كادت تستقر، وهو أيضاً ظن عريق في الوهم، فإن هذه الدول إن كانت تسيء بنا الظنون فهي لا ترضى عنا سواء تبعنا الإسلام أم غيره، وإن كانت صادقتنا بإخلاص وتبودلت الثقة بينها وبيننا فقد صرح خطباؤها وساستها بأن كل دولة حرة في النظام الذي تسلكه في داخل أرضها، ما دام لا يمس حقوق الآخرين فعلى ساسة هذه الدول جميعاً، أن يفهموا أن شرف الإسلام الدولي هو أقدس شرف عرفه التاريخ، وأن القواعد التي وضعها الإسلام الدولي لصيانة هذا الشرف وحفظه أرسخ القواعد وأثبتها.

فالإسلام الذي يقول في المحافظة على التعهدات وأداء الالتزامات: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ويقول: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٧]، ويقول في إكرام اللاجئين وحسن جوار المستجير: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ﴾ [التوبة: ٦]، وهذا بالمشركين فكيف بالكتابيين؟ فالإسلام الذي يضع هذه القواعد ويسلك بأتباعه هذه الأساليب، يجب أن يعتبره الغربيون ضمانة أخرى، تضمن لهم الوفاء بمعاهداتهم وأداء التزامات الدول الإسلامية لهم، بل نقول إنه من خير أوروبا نفسها أن تسودها النظريات السديدة في معاملات دولها بعضها لبعض، فذلك خير لهم وأبقى».

إن مشكلة الخطاب المزدوج لا تربك العقل المسلم الأيديولوجي فهناك خطاب للداخل وخطاب للخارج؛ فخطاب الخارج يطبعه أحياناً الاعتدال ويعتمد على لغة العموميات، وخطاب الداخل هو خطاب حدّي يرسل من جهة واحدة.

١١ ـ أفكار التعايش واضطرابها

ولننظر إلى أبسط أفكار التعايش في مجتمع متعدد وبين أبناء الوطن الواحد داخل منظور الأيديولوجيا وقد ذكرنا وضع غير المسلم في الحكومة الإسلامية كما يراها البنا أو الفقه التقليدي:

«ولا بأس أن تستعين بغير المسلم عند الضرورة»، كما جاء في فقرة سابقة، وبالتالي فحقه السياسي كمواطن تبخر ولننظر هنا إلى حقه الاقتصادي:

مقاطعة غير المسلمين تجارياً ص٣٦٧ من **رسالة التعاليم**

«من واجبات البيعة لدى الأخ المسلم

أن تخدم الثروة الإسلامية العامة بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية، وأن تحرص على القرش فلا يقع في يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال، ولا تلبس ولا تأكل إلا من صنع وطنك الإسلامي».

هذه الأفكار المتعلقة بإدارة الأوطان المتعددة الهويات والأديان والاتجاهات، لا ينظر إليها صاحب المنظور الأيديولوجي بأنها وصفة لهدم الوحدة الوطنية؛ لأنه لا يراها هدفاً بل يراها عائقاً دون الهدف وهو يريد هيمنة الهوية الخاصة على كل الهويات الأخرى، ومن هنا تتولد الصراعات وحركات الانفصال التي يعزوها بعد ذلك إلى المؤامرة الخارجية.

١٢ ـ الفروض المستحيلة

ها نحن ألقينا الضوء على جملة الأفكار التي تطرحها نظرية الإمام البنا عليه رحمة الله، وبنظرة واحدة سنجد حجم الإشكالات التي تنتج عنها، ففرضياتها الكبرى:

✓ إمكان إنشاء كيان له خطة معلنة انقلابية وله ذراع شبه عسكري يسعى لتغيير النظام السياسي عاجلاً أو آجلاً من دون أن تقوم الدولة ككيان سياسي بمنع ذلك وإن فعلت فهي معتدية!

✓ الاستعداد لغزو العالم أمر واقعي وعلى العالم أن يقف مكتوف الأيدي إلى أن يتم ذلك.

✓ المجتمع ينتظر هذه الهيمنة من قبل التيار الإسلامي ويتقبلها لأنه مسلم وعلى غير المسلمين الخضوع لهذا الوضع.

✓ شركاء الوطن سيقبلون بدولة فيها درجات من المواطنة تفرّق بين المسلم وغير المسلم في مناصب الدولة ولن تكون هناك مشكلة.

✓ العقد الوطني قابل للبقاء مع حث المواطنين على التعامل الاقتصادي بناء على التقاطع لا على المواطنة والعيش المشترك ومن ذلك مقاطعة غير المسلمين اقتصادياً لأنهم غير مسلمين.

✓ الخطاب المزدوج لن يكتشفه أحد.

✓ التماهي مع النص ومع حالة الإسلام الأولى ومن يخالف فكرة التنظيم فهو يخالف الإسلام.

✓ الاكتفاء بسرد النصوص في وجه الأسئلة المركبة.

والنتيجة الوحيدة المحتملة لمثل هذا المشروع لو استمر في هذا الطريق هي ما نشاهده من إشكال؛ ففي المناطق التي لم يصل فيها إلى السلطة سيكون موضعاً للمطاردة والصراع، وفي المناطق التي يصل فيها إلى السلطة سيقود إلى انقسام وطني وصراع إقليمي ودولي.

١٣ ـ أزمة منهج الاشتقاق

أما عن المنهج المؤسس للنظرية وهو الأهم فيحتاج إلى مراجعة عميقة وجادة لأنه مرتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً...

ومرتبطاً بالنتائج التي سيؤول إليها مستقبل فهم الدين ودوره في الحياة، ويمكن تلخيص المنهج الذي نتجت عنه هذه النظرية من خلال النقاط الآتية:

ـ اقتطاع الآيات من سياقها القرآني بهدف تأكيد أفكار معينة، وهو منهج يعانيه معظم العاملين اليوم في تعاطيهم مع القرآن.

ـ فكرة الإسقاط التاريخي على الواقع من دون أي اعتبار للفوارق الفكرية والظرفية للزمان والمكان وتطور العصر.

ـ فكرة اعتبار أن كل ما تم في فترة الرسول (ﷺ) هو سيناريو قابل للاستعادة بغض النظر عن تغيّر الأحوال، وعدم التفريق بين الرسول المبلغ وبين مقامات الخطاب النبوي الأخرى.

ـ استخدام لغة العموميات في معظم النظرية.

١٤ ـ على من يقع اللوم؟

هذا من جانب حسن البنا (رحمه الله)... لكن هل يقع عليه اللوم في هذا الاجتهاد وبقائه حتى اليوم من دون أي مراجعة أو تجديد؟

إن الحركة اليوم أمام مسؤولية كبرى تجاه نفسها وتجاه مؤسسها وتجاه الأجيال التي تؤمن بهذه الأفكار... أن تعيد النظر في الأفكار التي تأسست عليها النظرية والمنهجية التي قامت عليها الأفكار الكبرى... إنه عصر مختلف، ولو كان البنا اليوم بيننا لأنتج بلا شك نظرية جديدة... فقراءة عصر عن عصر تختلف، والجهد البشري تصدقه التجربة في فائدته من عدمها... والأيام خير شاهد على ذلك.

ثانياً: سيد قطب عليه رحمة الله

معالم في الطريق

سيد قطب

دار الشروق الطبعة السادسة ١٩٧٩م

الكلام عن الأستاذ سيد قطب محفوف بالمخاطر؛ فالرجل تأثر به كثير من البشر وأصبح مجرد التحدث عن أي قصور في فكرته ـ عند محبيه ـ تعرُض لشهيد الإسلام ولكن لا يمكن فهم الظاهرة الإسلامية من دون الحديث عن أهم شخصية أثّرت وما زالت تؤثر في فكر الشباب الإسلامي.

فمن عشاق **الظلال** والاستمتاع بسبحات سيد الفكرية الرائعة إلى أقصى درجات الغلو والتكفير إلى الفكر الجهادي وإعلان الحرب على الكفار وحتى على المجتمعات المسلمة. الكل يدّعي وصلاً بسيد وكتابات الأستاذ سيد.

والحاكمية هي قضية سيد قطب (رَحِمَهُ اللهُ) ومن قبله المودودي، وهي ليست حكراً عليهما، فالحاكمية قضية يؤمن بها كل مسلم يعرف إسلامه وقد أفاض الأصوليون في شرحها في كتب أصول الفقه في كلامهم عن الحكم والحاكم والمحكوم فيه والمحكوم عليه، في سياق حديثهم عن الحكم التكليفي ولكن المودودي ومن بعده الأستاذ سيّد قطب نقلاها إلى سياق آخر ليعيدا تعريف المجتمع المسلم ذاته والعلاقة به.

وقضية الحاكمية ـ بمعنى أن الحكم الكوني والحكم التشريعي في كل مجالات الحياة (عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات) حيث وجد حكم الله واضح وصريح... هو حق الله

وحده... وأن أي منازعة له في الأمر تنقل المرء إلى الجاهلية ـ قضية مفهومة... وبقي أن نقول إن دائرة المظنون من الأحكام هي الأوسع والأكبر وهي محل اجتهاد ويبقى مبدأ الإيمان واحداً أن الحكم لله... ولكن العلماء ميّزوا بين من ينازع الله ومن ينحرف بدافع الشبهة أو الشهوة أو الاجتهاد... **ولكن عند سيد لا فرق، وبالتالي فكل المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ لم تكن إسلامية؛ لأنها نازعت الله في حق التشريع، ولا فرق بين كثير الأمر ولا قليله ولا من خالف شهوة أو شبهة وبين من أنكر الأمر برمته... فلا وجود عنده لمجتمعات مؤمنة تنحرف شيئاً ما عن المعيار ومنها مجتمعاتنا المعاصرة، فالإسلام هنا هو كاتالوغ كامل بكل ما يحتاج إليه المؤمن أن يشرع في تطبيقه.**

هكذا بدا الأمر لسيد أو بدا لنا من قراءته الأولى... فالإسلام هنا ليس منظوراً شاملاً بل هو نظام وإن غابت تفاصيله... وإن كانت تفاصيله العملية منوطة بالبشر داخلة في حساب التنافس البشري الذي قد يأتي بخير منها في حين قد يعجز المسلم عن صرف النصوص العامة لواقع عملي، لا يهم كل ذلك عند سيد فمن لم يطبق الإسلام لأي سبب فهو خاضع للجاهلية.

بل كل من معه في السجن من الإسلاميين لا يمثّلون تلك الفئة المؤمنة إلا أن يعيدوا النظر في فهمهم لـ «لا إله إلا الله» وينظموا للطليعة المرتقبة التي ستعيد إنتاج الإسلام، فكل من لا يؤمن بأن ما حوله جاهلية اعتقادية، فهو ليس من الطليعة، وتأثر كثير ممن في السجون بتلك الفكرة مما دعا جماعة الإخوان إلى إخراج كتاب **دعاة لا قضاة**، باسم الشيخ الهضيبي ـ عليه

رحمة الله ـ وكان التحذير من أعضاء الجماعة الذين يحملون ذلك الفكر جارياً بين أفراد التنظيم إلى حين.

وسيد قطب ـ عليه رحمة الله ـ قدّم فكرة الحاكمية في نظرية تعيد تفسير التاريخ الإسلامي وتجعلها أي «لا إله الا الله» **وبتفسير سيّد** معيار الإسلام والإسلامية... فكل شيء عنده يقوم على فهم «لا إله إلا الله» ومن دون ذلك تبقى قضية الإسلام معلقة... ولا ينفع للدلالة على فهمها القيام بالصلاة والصيام والحج وسائر العبادات بل إن التفكير في أي نوع من النظم يجب أن لا يكون حتى تستقر «لا إله إلا الله» في النفوس.

وهو يدعو إلى بداية تربوية جديدة للمنظمين للفكرة، قد تطول حول «لا إله إلا الله» وتعتمد على القرآن المكي، والمفاصلة مع المجتمع والمفاصلة مع المجتمع المحيط من الأهل والأقارب والأصدقاء على «لا إله إلا الله»، حتى يعرف الجميع أنهم ليسوا على الدين فيختاروا إما الإيمان والانضمام إلى الطليعة أو الكفر والبقاء لَبِنات داعمة للمجتمع الجاهلي.

أما العلاقة بالعالم فهي الحرب حتى يخضع لمقتضى «لا إله إلا الله» وتقوم مملكة الله في الأرض بدل مملكة البشر وإن من قالوا بالسلم العالمي وغير ذلك لم يفهموا «لا إله إلا الله» على حقيقتها فـ «لا إله إلا الله» ليست إكراه الناس على اختيار الدين ولكن هي إخضاع البشرية له، ثم إن أرادت الإسلام انضمت إلى الطليعة التي هي الأمة الحقيقية، وإن شاءت بقيت على ما هي عليه ودفعت الجزية للطليعة.

ونظرية سيّد انتشرت بعد موته أكثر من حياته، ولكن لم

يكتب لها التنفيذ وباءت محاولات معتنقيها في المفاصلة مع المجتمعات والانغلاق لإنشاء المشروع التربوي للفشل الذريع، ولكن بقيت أفكاراً متداولة ومؤثرة بشكل مجزَّأ، كنظرية الولاء والبراء التي استخدمتها كل الحركات وتوسعت فيها.

إن انتشار فكر سيّد وفكرة الجاهلية وفكرة المفاصلة لم يتم بسبب كثرة قرّاء منتجه **الظلال**، ومنتجه الوجيز **معالم في الطريق**، ولكن بسبب الرواية المنقولة مشافهة عن **صموده** في وجه سجانيه **وقصائده** التي تحولت إلى لغة تخترق المشاعر، ولا تمر على العقول، ومن **الاستدعاءات الجزئية** لمقولاته تكونت أسطورة ورواية عند جيل كامل.

ولفهم سيد وحتى لا نضيع في التفصيلات سنبدأ بوجيز عباراته:

ولنذهب مع سيد وعباراته في كتابه **معالم في الطريق** لنرى ماذا يقول تحديداً:

الغرض من البحث: هو بيان أوجه القصور في النظرية ومآلاتها في الواقع
المعيار: قابلية التنفيذ ـ قابلية التفسير السلبي ـ الأثر العملي في المخيال الجمعي
ما لم ندرجه هنا: نظرية الولاء والبراء ـ ونظرية الحرب وهما الأخطر في فكر سيد، وهما الثمرة العملية لهذا التصور في **المعالم**.

موضع السؤال	العبارة	الصفحة	الملاحظة
حال البشرية	بما أن «البشرية على حافة هاوية والسبب هو إفلاسها في عالم القيم». بما أن «الديموقراطية أوشكت على الإفلاس وبدأت تأخذ من الاشتراكية». • بما أن «الاشتراكية فشلت في تحقيق موعودها الاقتصادي». • بما أن «النهضة العلمية أدت دورها وانتهت». • بما أن «الوطنية والقومية ليس لها رصيد». إذن «لا بد من قيادة جديدة كل الجدة ولديها قيم جديدة كل الجدة وهذه لا يمتلكها سوى الإسلام». • إذن «جاء دور الإسلام».	١ ـ ٣	كل هذه القضايا ليست مسلّمات ولا مطلقات فلا الديمقراطية انتهت ولا الفكر الاشتراكي زال ولا القومية انتهت. . . ولا النهضة العلمية انتهى دورها ولا الوطنية انتهت، ودعوى إفلاسها في جانب القيم موضوع يعتمد على زاوية من زوايا النظر.

الحل للبشرية			القيم البشرية الكبرى مستقلات عقلية أتمها الدين بصبغها بمعنى اليوم الآخر ولم ينشئها ابتداء.
تعريف الأمة الإسلامية	جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج «وهي بهذه المواصفات الكاملة انقطع وجودها من على ظهر الأرض».	٦	في الحالة البشرية العادية لا يوجد هذا النقاء المتخيل أبداً، ولكن قلّ أن يوجد واقعاً، فالبشر هم البشر تتغلب عليهم نوازعه حيناً ويغلبونها حيناً ويرتقي جانب أو جوانب ويضعف آخر.

وجود الأمة الإسلامية	هذه الأمة بهذه المواصفات «قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعاً».	٦	إلى عصر الدولة العثمانية على الأقل (١٩٢٤م) كانت الشريعة بالمعنى القانوني هي أساس الحياة في الإمبراطورية، ولكن سيد يريد كمالات الإسلام كما تخيّل في لحظة الوحي والصحابة!
زمن غيابها	ووجود هذه الأمة المسلمة «قد انقطع منذ قرون كثيرة».	٦	

نحن وعصرنا	«نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية، تصور الناس وعقائدهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية هو كذلك من صنع الجاهلية».	١٧		لاحظ كلمة «كل» بمعنى أن المسجد والأذان والدعوة وسائر المظاهر ووجود قطاع من المجتمع له أشواق إلى الإسلام الكامل، كل ذلك جاهلية ما لم يتم أحد أمرين: تجديد العلاقة بالانضمام إلى الطليعة للبدء من جديد... أو تحويل النظام السياسي وجهته لتتم حلقة خضوع المجتمع لما تصوره سيّد الإسلام الكامل وما عدا ذلك لا وجود لإسلام جملة.

الحل	«لا بد من إعادة وجود هذه الأمة لكي يؤدي الإسلام دوره في قيادة البشرية مرة أخرى».	٦	هنا يقصد في المحمية المصغرة التي سماها الطليعة. . . وحينها تكون الطليعة هي التعبير عن وجود الإسلام وما عداها جاهلية وستعامل الناس من حولها على هذا الأساس مفاصلة وولاء وبراء.
الفجوة	مسافة شاسعة فقد غابت الأمة الإسلامية عن الوجود وعن الشهود دهراً طويلاً وقد تولت قيادة البشرية أفكار أخرى وأمم أخرى وتصورات أخرى وأوضاع أخرى فترة طويلة.	٦	البشرية منذ أمد طويل محكومة بأوضاع وأمم وأفكار فهي ليست فراغاً ينتظر من يملأه.

ماذا حدث في الفجوة	أبدعت العبقرية الأوروبية في هذه الفترة رصيداً ضخماً من العلم والثقافة والأنظمة والإنتاج المادي وهو رصيد ضخم تقف البشرية على قمته ولن تفرط فيه ولا فيمن يمثله بسهولة وبخاصة أن العالم الإسلامي يكاد يكون عاطلاً عن كل هذه الزينة.	٦		هناك علم وهناك ثقافة وأنظمة وإنتاج مادي، والبشرية تستشعر قيمته وليست مستعدة للتنازل عنه ولا فيمن يمثله بسهولة فالبشرية لم تنتظر العالم الإسلامي بهذا المعنى الذي لم يستطع أن ينجز شيئاً منذ أمد طويل بل منذ الجيل الأول الفريد فماذا يعني ذلك؟

أين أوروبا اليوم	العبقرية الأوروبية سبقته (أي العالم الإسلامي) في هذا المضمار سبقاً واسعاً وليس من المنتظر خلال عدة قرون على الأقل التفوق المادي عليه.	٧	السبق الأوروبي طبقاً لسيد متقدم بعدة قرون في المنتج المادي فقط! والعالم الإسلامي ذاته تحول إلى الجاهلية وبالتالي فاقد للمنتج الأخلاقي! ولكن الطليعة ستوفر المنتج المتكامل الأخلاقي ولو بعد قرون!

المؤهل القيادي	العقيدة والمنهج اللذان يسمحان للبشرية بأن تحتفظ بنتاج العبقرية الأوروبية المادية تحت إشراف تصور آخر يلبي حاجة الفطرة.	٧		هنا يظهر السؤال... كيف؟.. كيف سيحدث ذلك... فهذا ما يحتاج إما إلى قوة إقناع أو إلى قوة إخضاع أو إلى كلا الأمرين، وقد سبق أن قال إن الفجوة بيننا وبين القوم قرون؟

الحلول للواقع	لم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة ليختزنوها جاهزة حتى تطبق بمجرد قيام المدينة.	٣٤	فليس على الطليعة أن تقترح حلولاً للنظم أو قضايا المجتمع القائم لأنه من صنع الجاهلية ولكن فقط عندما تتمكن ستجد الحلول... من سيوجدها حينها؟ أهم البشر ذاتهم أم هي مختزنة في مكان ما وسيفتح الباب عند التمكين؟

نقطة البدء	أن تتمثل العقيدة والمنهج في تجمع إنساني أي في مجتمع مسلم.	٨	
كيفية البدء	إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق، تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعاً. تمضي وهي تزاول نوعاً من العزلة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة.	٩	ليس المهم هنا النظرية ذاتها ولكن تأثيرها في عقل الشاب المسلم في علاقته بمجتمعه فهو شعورياً لم يعد عضواً فيه فذلك ضد الإيمان... هو مجبر على العيش فيه بحكم الواقع!!!

من هي الطليعة	«لهذه الطليعة المرجوة المرتقبة كتبت «معالم في الطريق»».	١٠		فسيد لم يكن يرى الطليعة موجودة لا في الإخوان ومن معهم من المسجونين معه، فهؤلاء لم يقرروا وصم المجتمع بالجاهلية بعد... ففي الأفق سيخرج من يعرف الحقية عن المجتمع وسيقوم بمفاصلته!

سبب وجودها	كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل القرآن والقرآن وحده.	١٢	فالمطلوب بحسب هذه الفقرة عزل المتعلم عن ثقافة عصره، وقصره على تدبر القرآن من خلال نظرية سيد... وليس من خلال حتى التراث الفقهي والعلمي الذي سيعتبره سيّد مشوباً بالجاهلية.
سبب اختفائها	«لننظر في النبع الذي كان يستقي منه هذا الجيل الأول فلعل شيئاً تغيّر فيه ولننظر في المنهج الذي عليه فلعل شيئاً تغير في ذلك».	١٤	فالنبع تلوث بمنتجات أخرى..؟

سبب تغيّر النبع	فلسفة الإغريق ومنطقهم، وأساطير الفرس وتصوراتهم، وإسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم والأصول أيضاً وتخرجت على ذلك سائر الأجيال.	١٤	تفصيل الملوثات... وربما نتفق مع سيد في أن هناك كل ذلك ولكن هل الطريق يكمن في عزل الإنسان عن كل التراث وعن كل المنتج البشري وأي نوع من البشر سينتج حينها؟ وكم المدة؟

أسباب أخرى للتغير	«منهج التلقي»... التلقي للتنفيذ نزل القرآن مفرقاً بحسب الحوادث ليعالج كل حادثة ويدل المؤمنين على كيفية التعاطي مع الموضوع والحالة... وهكذا يتم الانتفاع به.	٦		والسؤال كيف سيفرق سيد القرآن مرة أخرى حتى يستطيع أفراد الطليعة أن يسيروا كما سار الجيل الأول من الصحابة (عشر آيات لا يجاوزونها حتى يعملوا بها)... كيف يمكن اصطناع الأحداث ذاتها وربطها بنصوص بعينها ليصبح لها مدلول عملي مغاير للمدارسة التقليدية أو حتى مدارسة سيد في الظلال؟ وهل تحقق ذلك في عصر سيد؟ وهل سار بعده؟

الانضمام إلى الطليعة	يعني الانخلاع من كل المجتمع الجاهلي وإعطاء الولاء والطاعة والتبعية للمجتمع الجديد.	١٦	ها نحن نجد تكريساً أشد صرامة لفكرة (نحن الصحابة) عند البنا عليه رحمة الله... فهنا مجتمع يقابل مجتمع... مجتمع المؤمنين يقابل مجتمع الجاهلية... فهل هناك غرابة في أن يصطدم المجتمعان ولو بعد سنين؟. إنها الأفكار العميقة تنتج عالمها في الواقع ولو بعد عقود.

العلاقة بالمجتمع	كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية... حتى لو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء.	١٦	حكم الواقع هو التعامل، ولكنه تعامل المؤمن مع مشركي الجاهلية؟
المساهمة في المجتمع	لأن الأفراد ـ المسلمين نظرياً ـ الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية... أي إن الأفراد ـ المسلمين نظرياً ـ سيظلون يقومون ـ فعلياً ـ بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون ـ نظرياً ـ لإزالته وسيظلون خلايا حية في كيانه تمده بعناصر البقاء. والامتداد... وذلك بدل أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لإقامة المجتمع الإسلامي.	٤٩ ـ ٥٠	من الطبيعي أن مهمة المسلم، بحسب نظرية سيد هي هدم المجتمع الجاهلي وبالتالي أي سعي لتطويره سيصبح عملاً مضاداً للفكرة الأساس، وهي الهدم... وانظر إلى العبارات بدقة...

العلاقة بالعالم	... والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض...	٥٩		من الطبيعي بعدها أن العالم كله يصبح أرضاً للصراع... فحين لم يسلم المجتمع القريب فكيف سيسلم المجتمع البعيد؟
الدعوة أم السيف	والذي يدرك طبيعة هذا الدين - على النحو المتقدم - يدرك حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف - إلى جانب الجهاد بالبيان.	٦٤		ومن الطبيعي أن يتم تفسير الإسلام بأنه سيف لا يهدأ حتى يخضع البشرية لسلطان الطليعة باسم الدين، فَهُم وحدهم ممثلوه!

إعطاء الحلول	عندما تستقر حقيقة «لا إله إلا الله..» عندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع.	٣٣	
المطلوب من المسلم	إنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، يجب أن يدعوهم أولاً الى اعتناق العقيدة ـ حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين.	٣٣	من يدخل الطليعة ممن يدعون أنفسهم مسلمين، عليه أن يعيد اعتناق العقيدة لأن الخلاف لم يكن خلاف سلوكيات بل خلاف حول الإيمان والكفر الجاهلي وليس الكفر العملي.

المطلوب من البشرية	الإسلام هو الأصل العالمي الذي يجب على البشرية كلها أن تفيء إليه أو تسالمه بالجملة فلا تقف لدعوته بأي حائل.	٥٨	على البشرية أن تستسلم لهذا الفهم إن أرادت النجاة من سيف الطليعة؟
عنوان المشروع	تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض.	٦٠	ومملكة الله هنا تقودها الطليعة بحكم أنها هذا التمثيل الحي للفكرة... ها هنا وصلنا إلى اليوتوبيا والعالم المثالي الذي أراده الأستاذ سيد قطب!

ليس المهم ما قصد سيد بكل هذه العبارات، وليس المهم إيجاد الأعذار له بسبب قسوة السجن ومرارته، فكل ذلك مفهوم وكم أثيرت من نقاشات حول قصد سيد وسوء الفهم الذي لحق بمقولاته... فسيد عند بعضٍ هو أساس فكر التكفير والتفجير، وعند بعض آخر هو بريء من سوء أفهامهم... وسيد ذهب إلى ربه وهو بين يدي خالقه لا يصله شيء مما نقول ولا يغير من مآله.

إن المهم في القصة أن هذه المقولات سواء قالها سيد أو غيره تستخدم في الحجاج الدائر اليوم من قبل كثير من الشباب، وتقودهم في اتجاهات التكفير والتفجير أو تخوم هذه الحالة ذلك هو المهم أما العقلاء الذين يستطيعون التمييز والاختيار، فلا خوف عليهم من قراءة سيد أو غير سيد وهنا مربط الفرس.

ولنناقش العبارات التي أمامنا، وليس سيد الغائب من المشهد، لنصل إلى عمق تلك الافكار، ولنبدأ بمقدمة كتاب **معالم في الطريق** التي بنى عليها سيد جملة أفكاره. وسيد يبدأ الكتاب بإسقاط كل الواقع القائم:

- بما أن «البشرية على حافة هاوية والسبب هو إفلاسها في عالم القيم».
- بما أن «الديمقراطية أوشكت على الإفلاس وبدأت تأخذ من الاشتراكية».
- بما أن «الاشتراكية فشلت في تحقيق موعودها الاقتصادي».
- بما أن «النهضة العلمية أدت دورها وانتهت».

• بما أن «الوطنية والقومية ليس لها رصيد».

• إذن «لا بد من قيادة جديدة كل الجدة ولديها قيم جديدة كل الجدة وهذه لا يمتلكها سوى الإسلام».

• إذن «جاء دور الإسلام».

إن فكرة إفلاس البشرية من القيم أمر نظري صرف، فلا بد من بعض القيم لتواصل البشرية مسيرتها، ومن دون وضوح أي القيم التي يتم الحديث عنها في هذا السياق فالموضوع مفتوح على مجهول فلو سقطت كل القيم جملة لعمّت الفوضى كل زاوية من زوايا الحياة، ولانقلب العالم إلى جحيم ولكن من رحمة الله أن البشرية تتفاوت في موضوع القيم، ويختفي بعضها ليبقى آخر، فحتى في البلاد التي توصف بأنها دول فاشلة تستمر الحياة لوجود بعض القيم، ثم إن درجات وجود القيمة مختلفة، فقدر من الصدق وقدر من الأمانة وقدر من الثقة وقدر من التعقّل، وتقدير المصلحة وقدر من حب الأوطان... كل ذلك ما يستبقي الحياة حتى في أشد البلاد بعداً عن الأديان... والإسلام كدين ليس جديداً على البشرية فهو مستمر من أكثر من ألف وأربعمائة سنة فموضوع الجدة التي يدّعيها سيّد أيضاً موضوع يحتاج إلى نقاش، وبحسب نظرية سيّد فالإسلام اختفى منذ قرون، بل مع اختفاء الجيل القرآني الفريد من صحابة رسول الله (ﷺ)، وانحراف الحياة الإسلامية عن السوية الأولى بدأ بالفتنة الكبرى ووصل ذروته بالتغير السياسي الكامل مع وصول الدولة الأموية للحكم على رأس الأربعين من الهجرة ولقائل أن يقول معترضاً ماذا ننتظر من مشروع لم يصمد إلا أربعين سنة، وخرج من الحياة العملية للبشرية ـ طبعاً بحسب

نظرية سيد قطب ـ... وما هي الضمانات أن الجيل الذي سينشئه سيد سيكتب له البقاء أكثر من الجيل الذي أنشأه الرسول (ﷺ)؟

والديمقراطية والنهضة العلمية والوطنية والقومية ما زالت محركات بشرية كبرى، ولم يقل أحد إنها انتهت، فالقول إنها لم تبلغ بالإنسان ما يريده من عدل وحرية وكرامة وسلام صحيح، ولكن أي فكرة أخرى يمكن أن يقال عنها الشيء نفسه ولا تكون قد انتهت بما فيها الأديان!

والبشرية عبر العصور شعرت بأنها مهددة بالفناء إما بسبب وباء كالطاعون أو بسبب جيش كالمغول أو بسبب التسلح أو بسبب اختلالات البيئة، ولكنها في كل مرة تخرج من هذه المقولة وتستمر! على الأقل حتى الآن أي بعد ما يقارب النصف قرن على وفاة الأستاذ سيد (رحمه الله) ما زالت مستمرة؟

وسيّد يخلص من ذلك بقوله: وجاء وقت الإسلام، والحقيقة أن وقته من حيث نزوله وستستمر الحاجة إليه بمعنى من المعاني ربما على غير ما يقصد الأستاذ سيد قطب (رحمه الله) فالبشرية قطعت كما قال سيد نفسه في عباراته السابقة شوطاً كبيراً من التقدم في مجالات الحياة والفكر والثقافة، وليس من المتخيّل أن تتخلى عن مكتسباتها، **وما تحتاج إليه في الحقيقة هو الرحمة المهداة للعالمين بوصل الأرض بالسماء وبذلك المنظور الشامل الذي يجعل الإنسان مركز الرحمة لا مركز قهر الآخرين تحت أي دعوى وهو بلاغ للناس وتذكير بالمآل وهداية إلى طريق الخير وبعدها للناس أن تسير وأن تختار.**

والنتيجة أنه جاء دور الإسلام... فكأن الإسلام لا يستطيع أن يثبت نفسه إلا حين تفشل الخيارات الأخرى، ولا يقف مستقلاً مقنعاً بذاته وذلك موضع تساؤل. وعلى كل حال، فهو ما زال لم يجرب عملياً في حلّ إشكاليات العصر... فماذا تقدم إلينا نظرية الشهيد سيد قطب في هذا المجال وكيف أثرت في الأوضاع القائمة وفي العقل المسلم؟

فسيد ـ عليه رحمة الله ـ بدأ كتابه ببيان أن كل تجارب البشرية باءت بالفشل ولم يبق إلا الإسلام الخيار الوحيد الذي يستطيع انتشال البشرية من وهدتها، ولكن الإسلام يعاني مشكلة وهو غياب الأمة الحاملة للدين (الأمة المسلمة)؛ فقد اختفت هذه الأمة مع اختفاء الجيل الأول وهو الجيل الفريد وعادت الأمة إلى الجاهلية وما هو أشد من الجاهلية، فكل ما يحيط بنا على الرغم من المساجد والأذان والمصلين والحج والعمرة والصوم ونطق الشهادتين، كل شيء عاد إلى الصفر والحضارة الغربية «العبقرية الغربية» بمصطلحه أبدعت ثقافة وعلوماً ومنتجات مادية، ولكنها تفتقر إلى القيم الجديدة التي يقدمها الإسلام فقط.

والأمة المسلمة التي يعنيها سيد هي: **«جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج، وهي بهذه المواصفات الكاملة انقطع وجودها من على ظهر الأرض» هذه الأمة بهذه المواصفات قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعاً.**

وبما أن الإسلام جاء دوره لقيادة البشرية والإسلام فكرة لا

وجود لها إلا بوجود الأمة التي تحمله فلزم البدء بإيجاد الأمة من الصفر؛ أي: بعثها من جديد؛ وهذا يعني بالضرورة أن ما يسمى اليوم العالم الإسلامي هو ليس الأمة الإسلامية التي اختفت مع الجيل الأول، وخيمت الجاهلية الاعتقادية على العالم بما فيه المجتمعات المسماة إسلامية: «**نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية، تصوّر الناس وعقائدهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية هو كذلك من صنع الجاهلية**». وهذه الطليعة التي يتكلم عنها الأستاذ سيد ليست مجتمعه ولا حتى الإخوان المسلمين الذين كانوا معه في السجن، بل هي شيء سيتم في المستقبل: «**لهذه الطليعة المرجوة المرتقبة كتبت «معالم في الطريق»**»، هذه الطليعة المرتقبة بين البداية وبين وصولها إلى مبتغاها مسافة شاسعة: «**والانتماء لها يعني الانخلاع من كل المجتمع الجاهلي وإعطاء الولاء والطاعة والتبعية للمجتمع الجديد**»، وسيكون هناك مجتمعان: مجتمع مسلم تمثّله الطليعة ومجتمع محيط هو الجاهلية ومن هنا سينشأ الصراع: «**إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق، تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعاً. تمضي وهي تزاول نوعاً من العزلة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة!**» وسيد يعترف بالعبقرية الأوروبية: «**العبقرية الأوروبية سبقته (أي: العالم الإسلامي) في هذا المضمار سبقاً واسعاً وليس من المنتظر خلال عدة قرون على الأقل التفوق المادي عليه**» وقد «**أبدعت العبقرية الأوروبية في هذه الفترة**

رصيداً ضخماً من العلم والثقافة والأنظمة والإنتاج المادي، **وهو رصيد ضخم تقف البشرية على قمته ولن تفرط فيه ولا في من يمثله بسهولة، وبخاصة أن العالم الإسلامي يكاد يكون عاطلاً من كل هذه الزينة»**، ولكنه أي المنتج الغربي رصيد خالٍ من القيم الإسلامية التي تحتاج إليها البشرية، والأمة الإسلامية التي ستنشأ نواتها من الطليعة المؤمنة هي التي تستحق أن تشرف **على** هذا الإنتاج المادي الذي أنتجته العبقرية الغربية، وتحافظ عليه وتنمّيه... ولكن بين مرحلة البدء بإنشاء الطليعة وبين تمكينها ربما مضت قرون.

والانضمام إلى الطليعة يعني البدء بالإسلام من جديد بإعلان الشهادتين ثم الدخول في مرحلة قد تطول، من محاولة تشرب معنى «لا إله إلا الله» وفي هذه المرحلة يجب أن لا يتصل الإنسان بأي مؤثر ثقافي أو معرفي غير القرآن، ولا أن ينظر في أي تصور عن النظام الإسلامي المناسب للبيئة؛ لأن تلك ليست مهمته فحين تستقر «لا إله إلا الله» في النفوس لن يعود الناس بحاجة إلى إقناع؛ فاتباع النظام الإسلامي ليس لأنه الأفضل بحسب المقارنات بل لأنه ما أمر الله به بغض النظر عن صلاحيته... فالله قد اختاره فهو الأصلح.

والفرد المنظّم للطليعة عليه أن يدرك أن بقاءه في المجتمع الجاهلي هو تقوية وإعانة له على البقاء، في حين أن مهمة المسلم هدم المجتمع الجاهلي الذي يعيش فيه حتى تقوم مملكة الله بدل مملكة الإنسان، أما العلاقة بالأمم الأخرى غير المسلمة فقوامها السيف لأن هدم النظم التي تحول بين الإنسان وبين الله واجب، وهدم النظم السياسية ليس لإكراه الناس على

الإسلام، فهم بعدها مخيرون بين الإسلام أو دفع الجزية، فذلك مقتضى من مقتضيات «لا إله إلا الله» وليس هناك مجتمع يختلط فيه الإسلام بغير الإسلام، فكل مجتمع لا تقوم الحياة فيه على «لا إله إلا الله» وتنصبغ حياته وقيمه ومبادئه وأخلاقه وسلوكه وشعائره وشرائعه بالإسلام، فهو لا يعدّ مجتمعاً مسلماً بل هو مجتمع جاهلي؛ لأن أساس بنائه ليس «لا إله إلا الله»، وإن ظهرت بعض علامات اتّباع المنهج فيه، والمنتسب إلى الطليعة والمبايع لها، يسلّمها أمره كله ويفاصل المجتمع، فيوالي الطليعة ويتبرأ من المجتمع.

تلك هي نظرية الأستاذ سيد ـ عليه رحمة الله ـ من دون عبارات ملغزة، ولنتذكر ليس المهم تقويم سيد ـ عليه رحمة الله ـ بل تقويم أثر المقولات في المتلقين ولننظر إليها في نقاط:

○ مشروع الإسلام كله سيبدأ من الصفر.

✓ الإسلام انتهى بغياب الجيل الأول من حياة البشرية.

✓ المجتمعات التي يعيش فيها الشاب المسلم هي مجتمعات جاهلية.

✓ وظيفة الشاب المسلم القضاء على هذه المجتمعات والتعامل معها عبر عقيدة الولاء والبراء.

✓ الطليعة ستنشأ في هذه المجتمعات وتعلن المفاصلة معها على «لا إله إلا الله».

✓ ليس على الطليعة أن تنشغل بتقديم حلول ونظم إلى المجتمعات.

✓ الحلول والنظم ستبرز بطريقة ما بعد أن يسلم المجتمع زمامه للطليعة.

✓ من يدخل الطليعة عليه أن ينفصل عن كل المؤثرات الثقافية إلا المنهج الذي وضعته الطليعة.

✓ الغرب متفوق وأبدع في العلم والماديات.

✓ الأمة الإسلامية (التي ستنشأ من الطليعة) هي من سيأخذ من الغرب إبداعاته وسيشرف على العالم.

✓ المجتمع المحيط بالطليعة عدو يجب إخضاعه.

✓ العالم المحيط عدو يجب إخضاعه ثم تخييره بين الإسلام أو الجزية.

في ضوء كل ذلك وبغض النظر عن ما قصده سيد وما لم يقصده... هل يشك عاقل في أن قراءة تلك النصوص، من المحتمل وبقوة، أن تقود إلى الجانب المظلم من الفهم فينقلب الإنسان على مجتمعه ويناصبه العداء وليس بالضرورة أن يفكر في تكفيره وتفجيره ولكن في أن يتذبذب في علاقته به.

إن المشاهد الحي لتلك النظرة الاستعلائية التي ينظر بها المتدين إلى مجتمعه نظرة (استعلاء الإيمان!!)... هو حينها يفهم أن أفراد مجتمعه إن لم يكونوا في جاهلية بالمعنى الذي أراده قطب، إلا أنهم ليسوا المجتمع المسلم الذي يتقبله الشاب المسلم الذي يريد مجتمع الجيل القرآني الفريد... والمجتمع الوحيد المسلم بالنسبة إليه حينها، ولو ضمنا هو مجتمع التنظيم وهو الذي له الولاء والبراء وهو إذ ينخرط في المجتمع الأكبر

مضطراً، فليس لمجتمعه حرمة وواجب بل عليه أن يصبح أداة للتنظيم فيه... مع كل ما يستتبعه ذلك من تشوه في العلاقات وفي الرؤية... تلك هي ببساطة المشكلة في الفكر وليست المشكلة مع سيد عليه رحمة الله.

لم نذكر سيد هنا لمحاكمة فكره ولا شخصه فذلك غير مجدٍ، ولا معنى له فقد مضى إلى ربه وهو في جواره وفي رحمته، ولكن ما يهمنا هو ذلك الأثر الممتد لفكر سيد في فضاء الحالة الإسلامية فهي في الظاهر قد تأخذ شكلاً سلفياً أو إخوانياً أو جهادياً، ولكن في العمق سنجد سيد قطب حاضراً بتلك الأفكار التي فسر بها «لا إله إلا الله» ومن خلالها أصدر أحكامه على البشر من حوله وعلى العالم... فالعالم جاهلية والمجتمع جاهلي والإنسان المسلم الطليعي فيه غريب، ووظيفته هدم هذا المجتمع وأول خطواته هو الانعزال الشعوري عنه والانضمام إلى الطليعة وإعطاء الولاء لها وعدم المساهمة في بناء المجتمع لأن المراد هدمه... وبعد قرون ستتمكن الطليعة وستخضع العالم لها.

لقد قاد سيد كلام البنا إلى نهاياته الطبيعية، فالصدام مع المجتمع والدولة والعالم أصبح أكثر حدة وصراحة، فهم ليسوا مؤمنين لم يفهموا الفهم الشامل كما ردّد الإمام البنا ـ عليه رحمة الله ـ ولكنهم في الجاهلية هكذا دفعة واحدة، وعقل الشاب المسلم اليوم هو خليط من كل هذه المقررات يستدعيها مع كل موقف وهي ما تعطيه تفسيراً لمعاناته، فهو يواجه الجاهلية والفسطاطين وكل لغة المفاصلة والولاء والبراء تجد طريقها لحياة الفرد المنتمي ولعقليته بسهولة من خلال هذه الأدبيات.



خاتمة

اليوم وفي ضوء كل الأحداث تتضح أهمية مراجعة عالم الأفكار المأزوم والأفكار المأزومة، ومن دون هذه المراجعات الكبرى لا يمكن إنتاج عصر جديد. . . عصر تحلم به جماهير الأمة.

إن رسالة «رحمة للعالمين» ما زالت بكراً تنتظر من يحملها بحقها، فهي رسالة تحتاج إلى منظومة فكرية صحيحة، وتحتاج إلى نظام علاقات سليم ليولد عالم مشاريع جديد ينهض بالأمة.

الهروب إلى الماضي ليس حلاً لإشكالات الأمة، فمهما نبشنا أضابيره فلن نجد شيئاً يسد احتياجات هذا العصر المعقد، وفي رحلة التاريخ بيان.

الفكر التنظيمي الذي تم إنتاجه يحتاج إلى مراجعات كبرى في كثير من الأوجه حتى يمكن أن تستفيد الأمة من طاقات التنظيمات، وتعود هذه التنظيمات لتصبح جزءاً من روافع التقدم بدل أن تكون جزءاً من آلية التآكل والوهن.

الوعي بأن ما أنتجته البشرية هو رحلة كبرى للانتقال بالمجردات العقلية إلى واقع عملي، وأن ذلك تم عبر رحلة

القيم من مستوى التجريد للواقع العملي عبر مسارات معروفة لم نسلكها وسلكوها هم بنجاح.

كلما أسرعت التنظيمات بمعالجة فكرة «التمكن من المجتمعات» وجففت منابعها الفكرية لصالح فكرة «تمكين المجتمعات» كلما سهلت عملية الانتقال السلس إلى العصر الجديد.

مشروع ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ما زال بكراً ولكن تحويله إلى واقع يحتاج إلى تعديلات كبرى في فضاء الخطابات الثلاثة:

- ✓ خطاب «يا أيها الناس».
- ✓ خطاب «يا أيها الذين آمنوا».
- ✓ خطاب «يا أهل الكتاب».

وهذا يعني أن يصبح العالم مسرح دعوة إنسانية تسع كل البشر وكل المخلوقات وأن تحالف المؤمنين يقوم على وقف الإفساد في الأرض ووقف سفك الدماء.

الانتقال من مربع الدفاع عن الأشخاص إلى مربع النظر في الأفكار وآثارها في الواقع، فالأشخاص لهم الاحترام، ويمكن الاعتذار لهم بشتى الطرق ولكن ما نفذ من أفكارهم فأثّر في الواقع سلباً هو المهم وهو ما يجب أن يتعرض للمساءلة.

وأخيراً هذا كتاب تفاكر ونظر، والله أعلم بالصواب وهو يهدي إلى الحق وسواء السبيل.

